خوف ٣

أسامة المسلم



«منحاز لنفسي ومتعصب لأفكاري . . لا أملك وقتاً أصرفه لتفنيد وجهة نظر يقف خلفها حاقد ناقم . . ولا ذرة احترام أقدمها لمتغطرسٍ متعالٍ . . مكتفٍ بجنوني . . متعايش مع غربتي وغرابتي . . أجيد التظاهر بالإنصات لكل أحمق مشبع بالثقة . . لكني في الحقيقة لا أكترث . . لأنه أصغر من أن أراه . . وهو أغبى من أن ينتبه . . »

خوف

مشكلتنا لم تكن يوماً الالتزام أو التفريط ..

مشكلتنا كانت وما زالت «التطرف» في أحد الاتجاهين..

البقاء في الوسط مفهوم لم نتقن التعامل معه حتى الآن..

تطرفنا في الكرم وحولناه لتبذير وإسراف ..

تطرفنا في النصح وجعلناه ترهيباً وتخويفاً ..

تطرفنا في الحب فأصبح تملكًا واستحواذًا ..

أسامة المسلم

الخوف لــه رائحة ..

جاذبـة كالمسك..

خانقة كالدخان ..

المُقدِّمة الأخيرة

هناك صراع أزلي بين ما هو منطقي وما هو حقيقي ..

وللأسف تم أدلجتنا وبرمجتنا على الخلط بينهما وخرجنا بمفهوم مدمر وهو أن كل شيء حقيقي لا بد وأن يكون منطقيّاً أو على أقل تقدير يحمل الكثير من «الواقعية» وهذا المفهوم نواة للكثير من الجهل المتفشي بيننا عما يدور حولنا.

من المنطقي بالنسبة لمعظمنا أن يتغلب الخير على الشر دائماً ولذلك صدقنا هذه «الفرضية» وتعاملنا معها على أنها حقيقة حتمية ستتحقق طال الزمن أو قصر لكن يؤسفني أن أخبرك بأن هذا غير صحيح فالخير والشر يستمدان قوتهما ممن يؤمنون بهما وانتصار أحدهما على الآخر مرهون بالدرجة الأولى بقوة إيمان من يحمل راية دون الأخرى.

وهذا يثير سؤالاً آخر .. هل الحياد خير أم شر ..؟

وهل للحياد وجود من الأساس ..؟

هل هو مقصور فقط على الحياد بالقول والعمل أم يشمل كذلك المعتقد والفكر ..؟

الحياد في اختيار العقيدة عند البعض يعتبر كفراً بواحاً وعند البعض

الآخر يعتبر حرية شخصية وكذلك فالإيمان بمعتقد أو بمنظومة ق
معينة يسلب منك حق اتخاذ قراراتك وتصبح بلا اختيار منك خيّ
بالنسبة لجماعة وشريراً في نظر جماعة أخرى.

الإنسان مجبول في كثير من الأحيان على عدم الاعتراف بأنه على خط
حتى لو أدرك وتيقن من ذلك فإنه يفضل أن يبقى على الخطأ الذي
دافع عنه وآمن به ومارسه طويلاً على أن يتراجع عنه وهذا الأم
سيكون لا بأس به لولا أن بعض هؤلاء البشر «الخطائين» يسير من
خلفهم مجموعة بل في بعض الأحيان حشود غفيرة من المصدقين له
والذين ساروا وراءهم مغيبين لعقولهم مؤمنين بهم حد الكفر بغيره
لسنوات طويلة وقد ينتبهون متأخرين ويحاسبونهم أشد الحساب على
أعمارهم التي أهدرت بسبب تفسيرات وتأويلات خاطئة.

وخشية من سخطهم وانقلابهم عليهم والاقتصاص منهم يستمر
هؤلاء المضللون بالدفاع عن منهجهم الخاطئ باستماتة وينبذون أي
تصحيح أو تجديد لفكرهم المعطوب فصاحب الفكرة الخاطئة يهون
عليه ضلال الناس على أن يسقط من أعينهم وبين أيديهم.

وهذا يقودنا لسؤال آخر ..

ما هو أفضل بديل للحقيقة؟

الإجابة .. كذبة يصدقها الجميع ..

فالكذبة التي يتفق الكل على حقيقتها أقوى وأطول عمراً من الحقيقة التي لا يؤمن بها سوى القلة ..

تغيير قناعة شخص مصدق بأمرٍ ما أو فكرة معينة أسهل بكثير من إقناع المتردد في قبولها. لأن المتردد لا يتخذ قراراً حاسماً في معظم شؤون حياته سواء كان صحيحاً أو خاطئاً فهو معطل من كل النواحي الفكرية والجسدية والحديث معه مضيعة للوقت لأنه حتى وإن اقتنع فسيتردد بالتصريح والاعتراف بذلك وإن اعترف فسيتخاذل في تغيير سلوكه بناءً على هذه القناعة الجديدة وإن فعل فسيتردد في إقناع غيره بها والقائمة تطول ولا تنتهي من تلك المطبات والحفر التي تجعله متذيل الطريق متأخراً عن اللحاق بالركب الفكري السوي ليقع فريسة سهلة لمن يسمون أنفسهم بـ «المفكرين» لأنهم يسلمون عقولهم لهم دون تحفظ أو مساءلة لما يطرحونه.

التفكير والتفكر ليسا تخصصًا علميًّا بل طبيعة بشرية .. ومن ينسب لنفسه لقب «مفكر» أو لغيره يؤكد أنه لا يفقه معناها ..

أشياء كثيرة تخيفني .. أعترف بذلك .. لكن مصدر ذلك الخوف لم يكن يوماً جنّاً أو شياطين .. بل بشراً .. بشراً يسيرون معنا وبيننا ..

يفرقون تلاحمنا ويبددون قوتنا ويعززون فرقتنا بأفكارهم المسمومة ..
وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً ..

من مبدأ: «الأقربون أولى بالمعروف» بالطبع ..

الخوف ذكاء فطري وغريزي .. وما نسميه شجاعة غالباً ما هو إلا اندفاع غير محسوب النتائج من مجموعة من الحمقى الذين لا يجيدون استخدام عقولهم .. الشخص الذي يحسب الاحتمالات والعواقب لكل تصرف يقوم به ويضع الخوف أمامه كرادع هو إنسان يملك عقلاً نشطًا ومتقدماً وليس لدي أدنى شك بأن العكس صحيح.

لذا عزيزي القارئ ..

كن خائفاً .. خائفاً جدّاً

ووفر شجاعتك لشيء يستحق ..

لأن نهايتك قد تكون على يد أكثر من تثق برأيهم ونصيحتهم ..

فلا يوجد شيء أكثر رعباً وقسوة في هذه الدنيا من البشر ..

«هذه المدونة توثق الفترة التي قضيتها بعد العهد الذي قطعته للرجل الأنيق بتذكر «جواهر» حتى تعود لأهلها وتم إعادة صياغة المذكرات بقالب روائي متعدد الخطابات لتحاكي الأحداث من جميع الزوايا ووجهات نظر الشخصيات. . »

العُودُ اليابس

بعد صلاة الظهر وفي باحة منزلنا .. جلست متقرفصاً عند نبتة أمي المفضلة .. «جهنمية مجنونة» كما يطلق عليها .. وقد طرحت جميع أزهارها وتساقط معظم أوراقها فجأة مما تسبب بحزن والدتي ودفعني لمحاولة إنعاشها. وبينما كنت أقوم بذلك دخل (عواد) من باب المنزل الرئيس الذي تركته مفتوحاً لأخي القادم في الطريق إلينا مع زوجته لزيارتنا بعد ما أنجبا طفلهما الأول.

(عواد) : ماذا تفعل؟

أجبته دون أن ألتفت إليه أو أنهض وعيناي تتأملان النبتة شبه العارية : «أحاول علاج ما يمكن علاجه .. ما الذي تفعله أنت هنا؟ .. ألم تصلك الحوالة المالية؟»

(عواد) : بلى بلى .. ليس هذا سبب قدومي

- ماذا إذاً؟

تجاهل (عواد) سؤالي وعاد لموضوع النبتة وقال : جدد لها السماد ..

قلت وأنا أحمل من على الأرض إحدى الأوراق الساقطة وأقربها من عينيّ : «هذه النبتة حزينة فقط ..»

(عواد) بشيء من التهكم : حزينة؟

- نعم .. سقوط أوراق النبتة قبل موسمها مؤشر للضيق والهم وعلاجه فقط يكون بالحديث معها من وقت لآخر بتودد وستستعيد عافيتها .. المزارعون قديماً كانوا يتحدثون بشكل يومي مع الأشجار التي لا تثمر ويقيمون حولها تجمعاتهم العائلية حتى تخرج من حزنها .. النباتات كائنات تشعر وتحس حتى وإن لم تنطق وتعبر عن ذلك

(عواد) ساخراً : تقصد مثل الحديث مع النمل؟ .. للعلم لقد جربت طريقتك ولم تنجح بالمناسبة

نهضت واقفاً وظهري مدار لـ (عواد) وقلت : أنا لم أقل بأن الطريقة ستنجح مع الجميع

(عواد) : وهل هذه الحجة التي تبرر بها كل علمك الذي لا ينتفع به على حد قولك؟

وجهت وجهي تجاهه وقلت بنظرة يفهمها (عواد) : ماذا تريد؟ .. ولَمَ أتيت في هذا الوقت؟

(عواد) : حسناً .. حسناً .. أفهم تلك النظرة .. لا تغضب .. لقد أتيت لأحدثك في موضوع هام

وقبل أن يبدأ (عواد) بحديثه فُتح الباب ودخل أخي وزوجته

وهي تحمل بين يديها ابنتهما المولودة حديثاً وحينما شاهدت (عواد) استعجلت بالدخول تاركة أخي يتقدم نحونا قائلاً : السلام عليكم

(عواد) : وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته

تقدمت باسماً وعانقت أخي قائلاً : أهلاً بالأب الجديد وبمن جعلني عمّاً

(أخي) وهو يفك عناقي : ومتى سترد لي الجميل؟

(عواد) : لا تفتح هذا الموضوع معه كي لا تفسد مزاجه ولا أستطيع الحديث معه طيلة اليوم

- لا تقلق فلا أحد يفسد مزاجي غيرك .. وأخي بالذات لا يمكنني الاستياء منه مهما قال

(أخي) : أتمنى ذلك لأني أيضاً أريد الحديث معك في أمرٍ خاص

(عواد) : حسناً إذًا .. لن أقاطع هذا الاجتماع العائلي وسأعود في وقت لاحق

- وماذا عن الموضوع الهام الذي أتيت من أجله؟

(عواد) : يمكننا تأجيله للغد

(أخي) : لِمَ لا تبقى وتتناول الغداء معنا على الأقل؟ .. أمي لو علمت بأنك أتيت ورحلت بسرعة ستستاء منا

(عواد) وهو يهم بالرحيل : بلغها سلامي ووعدي بأني سأزورها قريباً

(أخي) باسماً : رافقتك السلامة إذاً

رحل (عواد) فتوجهت أنا وأخي لمجلس الرجال حيث كانت الضيافة اليومية موجودة وجلسنا معاً نتجاذب أطراف الحديث والذي تخلله سؤالي عنه وعن حياته الجديدة ولم يفوت هو الفرصة لمحاولة إقناعي بالإقدام كذلك على الزواج بالرغم من معرفته المسبقة عن رأيي بهذا الموضوع.

- دعك من هذا الأمر الآن وأخبرني عن الموضوع الحقيقي الذي تريد الحديث معي فيه

(أخي) بشيء من التردد : سأتكلم لكن أرجوك حاول أن تفهم أن ما سأقوله هو لمصلحتك ولأني أحبك

- أعرف هذه المقدمة .. هل سنذهب لشيخ جديد؟

(أخي) : لا لا .. لقد انتهينا من هذه المرحلة

- وما المرحلة الجديدة الآن؟

أدخل أخي يده في جيبه وأخرج علبة حَوت مجموعة من الأقراص ومدها لي..

نظرت إليها دون أخذها وقلت : ما هذه؟

(أخي) ويده لا تزال ممدودة لي : لقد تحدثت مع صديق لي وشرحت له ما تعاني منه ..

قاطعته قائلاً : ما أعاني منه؟

(أخي) محاولاً انتقاء كلماته : أقصد حالتك

- تعبيرك هذا أسوأ من سابقه .. لكن أكمل على كل حال ..

(أخي) : صديقي هذا متخصص وبارع في مجاله وقد وصف لك هذه الأقراص وأخبرني بأن ..

أخذت العلبة وألقيت عليها نظرة وفي الحال عرفت محتواها ولمن توصف .. كان عقارًا لمعالجة الذُّهان ..

رميت بالعلبة جانباً وقلت : صاحبك هذا طبيب نفسي ..؟

(أخي) : نعم وهو ..

- لا تكمل .. أنا لا أعاني من الفصام

(أخي) : أنت تتحدث مع نفسك معظم الوقت .. أمي أخبرتني بذلك وتقول أيضاً بأنك تتكلم طيلة الليل في غرفتك

- وهل كل من يتحدث مع نفسه مصاب بالذُّهان؟ .. أمي تبالغ كعادتها في تفسير الأمور

(أخي) : ليس فقط أمي من لاحظ .. وحديثك مع نفسك ليس محصورًا على غرفتك وأنت تعرف ما أعني

- وأعرف كذلك أنك لا تعرف حقيقة سير الأمور من حولك وهذه نعمة أحسدك عليها

(أخي) : لا تراوغني بالحديث فكل شيء واضح وحديثك الدائم مع نفسك ليس له سوى تفسير واحد

تبسمت وقلت بنبرة متهكمة : وهو أني مجنون .. لمَ ليس على الهاتف مثلاً ..؟ ربما أنا على علاقة مع فتاة ولا أريدكم أن تعرفوا

(أخي) : أنا أتحدث بجدية .. قرص واحد يوميّاً سوف يبعد عنك تلك الهلوسات

- انتقلنا من دجل «المتمشيخين» إلى دجل «أطباء النفس» ..

(أخي) : هل أصبح الطب الحديث دجلاً الآن؟ .. أنصت لنفسك .. أنت ترى الجميع على خطأ وأنت وحدك على صواب وهذه من صفات..

قاطعته قائلاً : المجانين .. قلها لا تخجل ..

(أخي) : لمَ لا تحاول الإنصات لي بهدوء وتفهم ما أحاول إيصاله لك؟

- الرأي السديد لن يجد قبولاً أو أذناً صاغية إذا كان صاحبه فظّاً أو متعجرفًا ..

(أخي) متهكماً : تقصد مثلك؟

الصمت عن الكلام في بعض المواقف يتطلب عقلاً واعيًا وبصيرة استثنائية يفتقدها الكثير للأسف .. لذلك صمت .. لأني لم أتعود من أخي أن يخاطبني بتلك الطريقة ولم أرد أن أحتد معه في النقاش لأني أعرف أنه يتحدث بدافع حب وليس شيئاً آخر.

(أخي) : أنت فقط تحتاج بعض المساعدة وهذا الدواء ..

قاطعته مجدداً وقلت : لو كان لدي مشكلة فستكون روحانية وليست نفسية أو جسدية وعلاجها سيكون من خلال علومها فقط .. علم النفس ما هو إلا محاولة قاصرة لإلباس العلم الروحاني لباساً علميّاً «مجرداً» .. كمن يحاول البحث في إعجاز القرآن وربطه بالنظريات العلمية معرضاً الدين للشك والسخرية.

(أخي) : علاج روحاني؟ .. اسمح لي يا أخي بأن أقول لك إن هذا هو الهراء الذي لا يقبله العقل .. ترفض الدين والعلم وتؤمن بهذه الهرطقات؟

- معظم الأمراض التي يطلق عليها «نفسية» ما هي إلا أمراض روحانية وطب النفس الذي تؤمن به هو في أصله دجل وأدويته ما هي إلا مجموعة من العقاقير المخدرة والمسكنات القوية لتثبيط الأعراض دون علاج العلة الأساسية وهذا هو الدجل الحقيقي لكن المسميات العلمية البراقة أعطته قبولاً عند البسطاء ومن هم على شاكلتك ..

(أخي) متهكماً : الأطباء دجالون إذاً؟

- ليس كلهم .. لا تحاول خلط كلامي لمصلحتك .. الشخص الذي يتحدث معك لساعات مدعياً اهتمامه بك وتفهمه لك وفي النهاية يصرف لك مجموعة من المهدئات والمخدرات

كي تنام وتنسى علتك الأساسية ليس بطبيب ولا يختلف عن «المتمشيخ» الذي يهز رأسه منصتاً لك ولشكواك متظاهراً بالاهتمام وفي النهاية يصرف لك الدواء الوهمي من زيوت ومياه ملوثة ببصاقه .. جميعهم دجالون مهما اختلفت مسمياتهم

(أخي) وهو يهم بالنهوض : كما تشاء .. لقد حاولت

قبل أن يخرج أخي من المجلس للتوجه لوسط المنزل حيث كانت زوجته وأمي قلت له :

«أنا لا أنكر أهمية الطب الحديث في علاج العلل وإنقاذ الكثير من الأرواح والقضاء على الأوبئة التي تفتك بالبشر لكن هذا لا يعني أنه لم يقف عاجزاً عند العديد من الحالات التي سماها «مستعصية» بحجة أنه لم يكتشف لها علاجاً بعد وأنه لا توجد علوم أخرى تستطيع علاج ما عجز عنه .. مشكلتي مع الطب الحديث ومناصريه أنهم يعطلون ويرفضون أي بديل لا يسير على منهجهم ويرون أنه خزعبلات.

استدار أخي وقال : هم على الأقل لا يتلاعبون بأرواح الناس..

- هل تعرف أن مئات الآلاف من الأشخاص يموتون سنويّاً بسبب الأخطاء الطبية .. ماذا تسمي هذا؟ .. أليس تلاعباً بالأرواح؟

(أخي) : أسميه تلاعباً بالألفاظ لإثبات وجهة نظرك .. العلم هو الأصل والأساس

تبسمت وقلت : والإحصاءات «العلمية» أثبتت أن أكثر مكان يموت فيه الناس هو المستشفيات .. ليس أرض المعركة .. ليس الشوارع .. ولا حتى بيوتهم .. بل بيوت الرحمة التي من المفترض أنها أنشئت لإنقاذ حياتهم .. فكر بهذه المعلومة قليلاً .. نحن فئران تجارب عند الكثير منهم لا أكثر .. بعضنا سيشفى بأمر الله وكثير منا سيهلك بأخطاء خلقه

(أخي) قبل أن يغلق الباب خلفه : لنرَ لمن ستلجأ أولاً حينما تحتاج عملية جراحية

قلت محدثاً نفسي باسماً : «سألجأ إلى الله أولاً ثم لجراح ماهر بالطبع ..»

بقيت أفكر بحواري الذي دار مع أخي وتفهمت لمَ لم يستوعب المقصد من كلامي .. أنا لست معترضاً على الطب الحديث ولا أنكر أهميته في تحسين حياة البشرية لكني أرفض غطرسته وتعاليه على العلوم المعالجة الأخرى وتعطيله لها بحجة أن لا علم آخر يمكن أن يساهم في تحسين حياة الناس الصحية عدا علب العقاقير وأنصال المشارط.

أخرجت هاتفي المتنقل واتصلت بـ(عواد) وأخبرته بأني متفرغ له الآن لو كان قريباً ولم يبتعد وما زال يريد الحديث معي وخلال دقائق وصل

عند باب منزلنا فخرجت له وركبت معه وانطلق بالسيارة لوجهة لم يخبرني بها.

- هيا أخبرني الآن .. ما هو موضوعك المهم؟

(عواد) وعيناه على الطريق أمامه: «حالة ..»

بالرغم من أنني اتفقت مع (عواد) بعد ما حدث له مع (جواهر) قبل أكثر من عام ألا يعود للعلاج ولا يستقبل أي حالة تُعرض عليه إلا أنه استمر من وقت لآخر بجلب بعضها لي وكان يتحجج بالقول إنه لا يعالجها بنفسه ويريد مني أنا أن أعالجها ومهما حاولت الممانعة إلا أن تنفيذ طلبه كان أهون وأسهل من الإنصات لتوسلاته. (عواد) بالرغم من كل سلبياته إلا أنه كان رجلاً طيباً وعطوفاً في طبيعته ولا يملك القدرة على تجاهل من يحتاجون العون منه خاصة إذا كان يعرف أنني يمكن أن أقدم لهم المساعدة. وفي الحقيقة حينما أعانده وأرفض يلجأ لأمي والتي لسبب ما تحبه ويدعي أني أضايقه وهي بدورها تضغط عليّ لإرضائه وهنا يوقعني في فخه وأستجيب له.

- حدثني عن هذه «الحالة» قبل أن نصل ..

(عواد): منزل عائلة كبيرة .. كبيرة العدد بسيطة الحال .. فحالتهم المادية متواضعة لذلك فالمنزل مكتظ ومزدحم جدّاً .. يقيمون في حي متواضع ودخل رب الأسرة محدود

- لم أكن أسألك عن حالتهم المادية ..

(عواد) : ذكرتها لك كي تفهم لمَ المشكلة غريبة .. بالرغم مما أخبرتك به للتو إلا أن أفراد تلك العائلة وطيلة سنوات عيشهم بعضهم مع بعض كانوا منسجمين جدّاً ولا يعانون من أي مشكلات أو خلافات بينهم وروح المودة والمحبة هي رأس مالهم الحقيقي لدرجة أن أهل الحارة التي يقطنون فيها كانوا يحسدونهم على ذلك التناغم والانسجام فيما بينهم

- ما زلت لا أرى المشكلة ..

(عواد) : سأخبرك الآن .. تغير كل ذلك قبل عدة أشهر .. بدأت الخلافات تنشب بينهم ووصلت لحد الشجار والتشابك بالأيادي بشكل يومي .. الأخ يضرب أخته والأب يهدد زوجته بالطلاق بشكل متكرر وزوجات الإخوان متذمرات ويطالبن بالرحيل أو الطلاق .. مشكلات تزداد يوماً بعد يوم وكلها مستجدة ولا يوجد سبب واضح لنشوبها

- أنا لست أخصائيّاً اجتماعيّاً يا (عواد) وهذا النوع من المشكلات يُحل بالمحاكم أو الجمعيات المختصة

(عواد) : أنا متيقن أن العلة روحانية ..

- ومن أين أتيت بهذا اليقين؟

(عواد) : من نقل لي المشكلة صديق لأحد الإخوة الكبار في المنزل وأخبرني بأن صاحبه شخص هادئ جدّاً ولم يعهدوا عنه أبداً رفع الصوت أو الشجار مع أي أحد لكنه قبل أسبوع ضرب أخته الصغيرة بشكل وحشي وتسبب لها بإصابات بالغة وكان كالمجنون ولم يفصل بينهما ويبعده عنها إلا تدخل أهل الحي .. هذا ليس أمراً طبيعيّاً وأنا واثق أن هناك سبباً يستلزم حضورك للتعرف عليه

- وما رأيك أنت؟

(عواد) : أعتقد أن الموضوع له علاقة بـ .. لا أعرف ..

- هل فحصت المنزل؟

تردد (عواد) بالإجابة وبدا عليه التوتر خشية سخطي عليه لأني حذرته من ممارسة أي عمل ميداني دون الرجوع لي لكن الإجابة كانت واضحة على وجهه فقلت : وماذا وجدت؟

(عواد) : لم أجد شيئاً خارجاً عن المألوف .. المنزل طبيعي ولا توجد أي علامات سلبية

- إذاً فنحن متفقان أن المشكلة هي مصدر لشحنة سلبية في المنزل تؤثر على أمزجة القاطنين فيه

(عواد) : هذا كان حدسي الأول لكنني لم أجد شيئاً

- لم تجد شيئاً مما تعلمته مني

(عواد) : أنت من توقف عن تلقيني وحرمتني العلم

- هل نسيت ما حدث عند المنزل المسكون؟ .. ذاكرتك ليست ضعيفة حسب علمي

(عواد) : ألن تغفر لي تلك الزلة وتتجاوزها وتعيد لي مدوناتي؟

- هذا الموضوع انتهى وأغلق إلى الأبد .. وانسَ فكرة طلب علم أكثر على يدي .. فأنا لا أفهم سبب إصرارك على ذلك

(عواد) : لا أستطيع منع نفسي من طلب المزيد؟

- هذا عذر وليس بسبب ..

(عواد) : وما الفرق؟

- العذر تبرير مقنع لك وليس لي .. والسبب حجة مقنعة لي ..

(عواد) : أفهم من ذلك أنه لا يوجد أمل؟

- لن تكتفي من شيء لا تحتاجه من الأساس .. لذا انسَ الموضوع

(عواد) : لقد تغيرت .. صدقني تغيرت

- لا أحد يتغير يا (عواد) . . لا أحد يتغير .. ربما يتظاهر بذلك لفترة وجيزة لكنه في النهاية لن يستطيع أن يتحول لشخصٍ جديد فالإنسان مجبول على اتباع التراكمات التي نشأ عليها

(عواد) : أنا لست إنساناً سيئاً لهذا الحد

- أنا متيقــن من ذلك .. ولأنــك لست سيئاً فهذا العالم لا يلائمك .. لقد وصلت لأقصى حد يمكنك تحمله والتعامل معه وهذا كافٍ ..

حَدُّ السِّكِين

بعد عدة دقائق وصلنا للحي الذي يقع فيه المنزل وكان كما وصفه لي (عواد) .. حيّاً متواضعاً ومكتظّاً بالناس والمحلات الشعبية منتشرة في جميع أرجائه وهذا النوع من التجمعات في العادة يكون مصدراً للطاقة الإيجابية والتأثير عليه يستلزم مصدراً سلبيّاً قويّاً مناهضاً ومعاكساً له هذا إن صح تخميني المبدئي أن سبب المشكلة هو مصدر طاقة سلبي مشوش لتوازن البيت وسكانه.

ركنا السيارة أمام المنزل وما أن ترجلنا منها حتى تأكدت شكوكي وشعرت بتلك الطاقة تتأجج وتنبثق من داخل المنزل وتخرج من بين شقوقه معكرة هالتي ومزاجي. بعد ما استأذنا من صاحب البيت قمنا أنا و(عواد) بصحبة بعض رجال الأسرة بالتجول في أركانه وغرفه وكانت المهمة صعبة بعض الشيء فعدد النساء والأطفال الذين كان لزاماً علينا انتظارهم للانتقال من غرفة لأخرى قبل الكشف عليها يجعلنا نستغرق بعض الوقت.

لم يبالغ (عواد) حينما قال بأن المنزل مكتظ وما أثار عجبي هو أن رب الأسرة قال لي إن من أراهم أمامي ليسوا كل سكان البيت فبعضهم موجود بالخارج خاصة الصغار لأن وجود الجميع وسط المنزل في

الوقت نفسه شبه مستحيل لذا يحدث نوع من «التفويج» وتبادل الأماكن على مدار اليوم. لم أتصور يوماً أني سأشاهد أحداً يعيش بهذه الطريقة ومع ذلك شعرت بأنهم متكيفون رغم ما يحدث لهم مؤخراً.

تحديد مصدر تلك الطاقة السلبية لم يكن سهلاً لأن جدران وأثاث المنزل تشبعت منها وكان ذلك مشتتاً لي فأنا لا أبحث عن الشحنة بل مصدرها وهي قد تكون في أي مكان ونابعة من أي شيء أو شخص لكن ما حسم لي الأمر هو حينما دخلنا الغرفة المخصصة لاستقبال الضيوف من النساء ووقفت في منتصفها. وقتها شعرت بأن الطاقة كانت أقوى من أي مكان آخر في أرجاء المنزل ولسوء الحظ لم ألبس خاتمي الذي يحتوي على حجر مبدد للطاقة السلبية وأستعين به عندما أرغب بالخروج والاختلاط بالناس في حال صادفت هالة نجمية أو قوية مفعلة.

لاحظ (عواد) أني تشتت بعض الشيء وقال : ما بك؟ .. هل أنت بخير؟

- أحضر لي بعض الماء في الحال

بعد ما تناولت كفايتي استعدت تركيزي وجلت بنظري في الغرفة حتى وقعت عيني أسفل مني فنزلت متقرفصاً ماسحاً بكفي على قطعة من صوف الخراف المدبوغ بسطت على الأرض للزينة وقلت : من أين اقتنيتم هذه القطعة؟

أجابني أحد الواقفين وقال : لا أعرف ..

- يهمني أن أعرف من أين حصلتم عليها

هم الرجل بالخروج قائلاً : سأحاول أن أسأل أخواتي لأعرف متى ومن أين حصلنا عليها؟

لم يغب الرجل طويلاً حتى عاد وأخبرنا بأن أحد أبناء إخوانه ابتاعها من محل زودني بعنوانه وحينها لففت القطعة وحملتها وناولتها لـ (عواد) وقلت : شكراً .. لقد انتهينا ..

(عواد) : إلى أين؟ .. ألن تكشف على بقية غرف المنزل؟

- لم يعد هناك حاجة لذلك .. مصدر العلة بين يديك

سرت مبتعداً عن (عواد) وتوجهت لرب الأسرة وهو رجل طاعن في السن وقلت له وبعض أبنائه يسمعون : شكراً لاستقبالنا يا عم .. بعد إذنك سآخذ قطعة الفراء هذه معي قبل خروجي

(الرجل المسن) : لكنها قديمة ومتسخة يا بني ..

- لا بأس .. لكني لا أستطيع أخذها دون إذنك

(الرجل المسن) : هي لك شريطة أن تبقى كي نُضيفك

وافقت بعد ما طلبت من (عواد) وضع القطعة في السيارة وعدم تركها في المنزل دقيقة واحدة وما حدث خلال استضافتنا هو أن المنزل وأفراد العائلة بدت عليهم في الحال مؤشرات التحسن والراحة وكأن هماً ثقيلاً انجلى من على صدورهم ولم يكونوا مدركين للسبب.

مع حلول المغرب ركبنا السيارة وطلبت من (عواد) التوجه للمحل الذي باع تلك القطعة للعائلة وخلال الطريق قال بوجه مكتئب :

أشعر بالضيق..

- لماذا؟ .. ما بك؟

(عواد) : تذكرت فجأة أمي رحمها الله وضاق صدري على فراقها وكأنه أول يوم

- القطعة بدأت تبث طاقتها علينا .. ركز حتى نصل

(عواد) : هل هي عمل سحري؟

- لا .. لكنها مشحونة بطاقة سلبية هائلة وأريد معرفة السبب

وصلنا للمحل وقد كان متخصصاً في بيع السجاد الصناعي بالأمتار ولم يكن لديه أي شيء طبيعي يبيعه سوى مجموعة من قطع الفراء عُلقت عند مدخل المحل وتلك القطع أيضاً كان يصدر منها شحنات سلبية لكن ليس بنفس قوة القطعة التي كانت بحوزتنا. بعد سؤال صاحب المتجر عن مصدر تلك القطع بدت عليه علامات التوتر ورفض إخبارنا. شعرت بأن الأمر له علاقة بأمور غير قانونية لا أكثر فطمأنته بأننا مجرد تجار مثله من خارج المدينة ونريد الحصول على الفراء بالجملة للتجارة فيه ومع ذلك لم يوافق حتى أغويته بالمال فأخبرني بأنه يحصل عليها من مسلخ غير مصرح له يقع خارج حدود المدينة فطلبت

من (عواد) التوجه إليه في الحال وخلال الطريق قال : ألن تشاركني بما تفكر به ..؟

- ما زلت أفكر ولم أصل لنتيجة حاسمة بعد كي أشاركك إياها .. لكن هناك فكرة أخرى طرأت ببالي ونحن نتحدث مع ذلك البائع وسأشاركك بها

(عواد) : ما هي؟

- إعادة ترميم غرفتي

(عواد) : هل قررت أخيراً التخلي عن الجدران السوداء؟

- لا .. لكن بعض القطع تحتاج إلى استبدال

(عواد) : كنت أظنك تفكر بقطعة الفراء ومشكلة العائلة المسكينة وليس تجديد أثاثك

- بعض الأفكار الجميلة تولد في ظروف مؤلمة وقبيحة .. وقطعة الفراء هي سبب رغبتي بتجديد أثاث غرفتي

(عواد) : تتحدث بألغاز كالعادة ..

وصلنا للعنوان الذي زودنا به تاجر السجاد أول العشاء وكان أشبه بالمزرعة الخاصة القديمة والمتهالكة ولم نرَ أي نور على سورها وبعد النزول من السيارة والاقتراب أكثر من البوابة خرج لنا رجل من جنسية آسيوية وكان يحاول ترهيبنا للابتعاد عن المكان لكني تحدثت

معه بثقة وأخبرته بأني من طرف شخص يتعامل معهم وأريد شراء فراء منهم ولسبب ما اطمأن وصدقني ودعانا للدخول.

وكما أخبرنا بائع السجاد فقد كان المكان مسلخاً غير قانوني للذبائح وغالباً تلك المواشي مريضة وغير صالحة للاستهلاك الآدمي لكن ذلك لم يكن همي فقد كنت أريد رؤية طريقة التعامل معها وذبحها وكما توقعت كان وحشيّاً جدّاً والأشلاء متناثرة في كل مكان ومما شهدت فإن العاملين هناك ليسوا جميعاً مسلمين والخراف التي تنتظر النحر كانت تقف في بركة كبيرة من الدماء ترتجف رعباً وتُسحب بعنف عبر تلك البركة الحمراء حين يحين دورها.

خرجنا بعد جولة قصيرة متحججين بغلاء الأسعار وقبل ركوب السيارة قال (عواد) : أنا مصدوم مما رأيت بالداخل ..

- أقول لك ولكل مصدوم من أفعال بعض البشر هذه الأيام ويشعر بأن ذلك شيء مستجد طرأ على سلوك البشرية فجأة في هذا الزمن إنه لا جديد في الأمر سوى إدراكه المتأخر

(عواد) : وهل ستشرح لي الآن ماذا استنتجت من زيارتنا الدموية هذه؟

- أخرج قطعة الفراء أولاً وارمِ بها على الأرض

نفذ (عواد) ما طلبته فأخرجت قداحة وأضرمت النار في الفروة وراقبتها تحترق لثوانٍ ثم قلت وأنا أتأمل النار تلتهمها :

«أشرح لك ماذا؟ .. خراف معذبة ومريضة عاشت متألمة ومرعوبة وقتلت بلا رحمة .. كل هذه الطاقة السلبية أين تظنها ستذهب؟ .. في لحمها وشحمها وفرائها وكل قطعة من جسدها .. ويبدو أن خروفنا الذي يحترق أمامنا عانى بطريقة أشد قسوة من غيره .. ولا أستبعد أن شفرة السكين التي ذبح بها لم تكن حادة»

صمت (عواد) ونظر لي كعادته بنظرة أريد تصديقك لكنني لا أريد ..

أجبت على تلك النظرات وأنا أتأمل لهب الفراء المشتعل وقلت :

«لذلك أنت لا يمكن أن تكون تلميذي .. ليس لأنك تشك أو لا تصدق بل لأنه ليس مقدراً لك .. أنت أعمى عن كثير من الأمور منذ الولادة .. ومهما شرحت لك فلن ترى ما أراه ..»

(عواد) : أنا أحاول جاهداً أن أرى لكن لن أنكر أني أحياناً لا أستطيع

سرت متوجهاً للسيارة وأنا أقول : مثلما أنني لا أستطيع رؤية ما تراه أمي فيك لتحبك ..

تبسم (عواد) وركب السيارة وأدار المحرك وعاد بنا للمدينة ..

الطريق لم يكن قصيراً وظلامه فيما يبدو استحث (عواد) على الحديث

وفتح موضوع جانبي قائلاً : ماذا قصدت حينما قلت بأني أعمى منذ الولادة؟

- ألم تتساءل يوماً لمَ يختلف تصديق وتقبل بعض الناس للظواهر الماورائية من شخص لآخر حتى وإن كان ما سمعوه أو شاهدوه هو الشيء ذاته؟

(عواد) : لاختلاف عقولهم ربما ..

- العقل لا علاقة له بالموضوع .. الفرق هو في الاستعداد ونسبة البصيرة التي يملكونها أو بالأحرى اكتسبوها بعلم أو دون علم منهم .. لذا ترى بعض الناس مهما شرحت له وقدمت له الدلائل والحجج الواضحة لا يستطيع استيعاب كلامك وفهمه ليصل لمرحلة التصديق وعلى النقيض تجد البعض الآخر لا يستلزم منك سوى شرح بسيط وربما كلمة واحدة لتجده فاهماً متفهماً لكل ما تقول مستوعباً لكل قطرة من حديثك كالإسفنجة الجافة العطشة للماء

(عواد) : إذا كان الشرح وافياً فلا أرى سبباً لعدم الاقتناع ..

- وضوح خط وحروف الرسالة لا يكفي إذا كان مستقبلها لا يجيد القراءة .. ستكون بالنسبة له كالشفرة المعقدة .. أو سيصفها بالألغاز

(عواد) : هل تقصدني بهذا الكلام؟ .. أنا مقتنع أن الشرح الجيد كفيل بإيصال أي رسالة أو معلومة إذا كانت وافية ومباشرة دون مراوغات لفظية

- سأوضح لك بمثال الأعمى الذي سألتني عنه .. تخيل معي ثلاثة أشخاص بعمر الثلاثين يجلسون معاً على مائدة طعام .. يملكون الخلفية العلمية والدينية والاجتماعية نفسها .. أحدهم مصاب بالعمى منذ الولادة والآخر أصيب به وهو في الخامسة عشرة والأخير مبصر ونظره سليم .. يلتقط المبصر تفاحتين حمراوين من على المائدة ويمد إحداهما لكل من صاحبيه .. يقوم كل واحد منهما بالإمساك بها وشمها وتقليبها بين كفيه آخذين قضمة منها متذوقين حلاوتها .. هما الآن متساويان في المعرفة فيما يخص تلك التفاحة .. لكن حينما يقول المبصر إن التفاحة حمراء .. ماذا سيحدث؟ .. الذي أصيب بالعمى بعد الولادة سيفهم مباشرة مقصد المبصر لأنه رأى اللون الأحمر من قبل وسيستعين بذاكرته لتذكرها .. لكن الأعمى منذ الولادة سيقول : «ما هو اللون الأحمر؟» .. أخبرني الآن يا (عواد) .. كيف نشرح لهذا الشخص الأعمى منذ الولادة اللون الأحمر؟ .. كيف للمبصر هنا أن يوصل المعلومة .. هل هناك شرح مهما كان وافياً أو مفصلاً يمكنه إيصال تلك المعلومة له بحيث يمكنه معرفة ورؤية ما يراه صاحباه؟

صمت (عواد) بوجه متفكر يحدق بالطريق المظلم أمامه لفترة من الزمن ثم قال بنبرة هادئة : لا .. لا يمكن ذلك ..

- وهنا تكمن معضلتي معك ومع الكثير .. أنا أرى أشياء لا أستطيع وصفها لكم لأنكم مصابون بالعمى منذ الولادة .. ولو كنت سأنقل علمي لأحد غيري فيجب أن يكون مبصراً لها مثلي أو على أقل تقدير كان مبصراً وأصيب بالعمى لاحقاً

لم يجادلني (عواد) بعد هذا النقاش وبقي صامتاً طيلة الطريق حتى أنزلني عند باب بيتي عند العاشرة مساءً تقريباً وقبل توديعه اتكأت بمرفقي على طرف نافذته المفتوحة وقلت : «أنت لم تكن ولن تكون مستعدّاً أبداً يا (عواد) ..»

(عواد) : ليس بالضرورة أن يكون أنا .. انقله لغيري .. شخص مبصرٍ أو أصيب بالعمى لاحقاً بعد الولادة كما تقول

- لن أكون كـ (عمار) ..

(عواد) : (عمار) كان يريد نقل علوم السحر لك

- وقد فعل وإلى هذا اليوم لا أستطيع التخلص من هذا الدنس

(عواد) : لكنه نقل لك معها علماً آخر ليس بدنس .. «علم الأولين» .. لَم لا تورثه وحده دون علوم السحر؟

- التداخل والتشابك بينهما كبير ولن يستطيع شخص محدود التفكير والقدرات التفريق بينهما وسينزلق لا محالة في الآخر

(عواد) : هل بحثت؟

- لا ولن أفعل .. لأني وإن وجدت المبصر أو من كان مبصرًا فغالباً لن يحمل صفة أخرى أهم من إبصاره ..

(عواد) : وما هي؟

- الثقة .. كون الشخص مناسباً لا يعني أنه أهل للثقة كي يستخدم هذا العلم لمنفعة الناس وعدم استغلاله لمنافعه الشخصية

(عواد) : وكيف تعرف الشخص الموثوق به من غيره؟

- بالعِشرة والمخالطة .. وأنا لا أملك الوقت أو الصبر لمعاشرة أحد

(عواد) : لقد خالطتني وتحملتني حتى وثقت بي

تبسمت وقلت : ومن قال بأني أثق بك أيها الشيخ المُتقلب؟

(عواد) : أنت تعرف ما أقصد

- انسَ هذا الموضوع الآن لكن لا تنسَ أن تتصل بالبلدية غداً وتبلغ عن ذلك المسلخ المشبوه والمخالف

(عواد) : سأفعل ..

- رافقتك السلامة

استدرت وهممت بالتوجه لباب المنزل لكن (عواد) استوقفني قائلاً :

معلمي .. أنا أسف ..

- «أسف على ماذا» .. قلتها دون أن أوجه نظري ناحيته ..

(عواد) : على أني لست كفئاً لأكون تلميذك ولأنقل علمك .. لم أكن أريد تخييب أملك

- قد لا تكون أفضل تلميذ لكنك بلا شك أفضل صديق .. بشري على الأقل ..

(عواد) باسماً : عدنا للألغاز مجدداً .. تصبح على خير

دخلت المنزل ومررت بنبتة أمي الحزينة ومسحت على ما تبقى من أوراقها وسحبت كرسيًا وجلست بجانبها أتحدث معها ..

«كيف حال الحزينة اليوم؟ .. لا تقلقي لن أدخن بجانبكِ لأني أعلم بأن ذلك يضايقكِ بالرغم من منفعته لكِ ومشاعركِ عندي أهم من متعتي اللحظية .. أنا أعرف لمَ طرحتِ أوراقكِ .. بسبب أننا ربطنا أغصانك .. لكن ذلك كان لمصلحتكِ .. كي تنمي بشكل معتدل ولا تميلي إلى الجدار ..»

بالطبع لم تجبني الشجرة وإلا وقتها كنت سأتيقن من كلام أخي بأني مصاب بالذهان لكن تأملي بها ذكرني بمزرعة أصحابي التي قاطعتها ولم أعد أذهب إليها بسبب صداماتي المتكررة مع زوارها.

أنا أتقبل غالباً أي شيء من أصدقائي مهما كان لكن في الشهور الأخيرة بدأ بعضهم يدعو أشخاصًا جداً ليسوا معتادين علينا وبالتأكيد ليسوا معتادين عليّ وعلى طريقتي بالتفكير والكلام ولسوء حظهم أني لست من النوع المجامل أو المهاود خاصة عندما أسمع الآراء المستفزة لذا آثرت الانسحاب من المكان بهدوء والتخلي عن تلك المعارك المجهدة لي.

وبالرغم من محاولات أصدقائي إقناعي بالعودة إلا أني بدأت أشعر أني لن أنسجم معهم خاصة حينما بدؤوا مؤخراً يستخدمون عبارات مثل: «لن ندعو متدينين للمزرعة» أو: «نعرف أنك لا تحب الموضوعات الدينية» .. خيبة حقيقية عندما يظن - من اعتقدت أنهم أقرب الناس إليك وأكثر مَن مِن المفترض أن يفهموك - أنك كاره للدين فقط لأنك لا تستسيغ المتاجرين به. أعرف أن هذا الموضوع بات كالأسطوانة المشروخة لكنه شيء كنت وما زلت أواجهه كل يوم وزاد عليه نوع جديد من العقليات التي أثارت غثياني مؤخراً بشكل مستفز.

مزرعة الحُرِّيّة

اجتماعاتنا في تلك المزرعة كانت محصورة على عدد معين من الأصدقاء المقربين ومعرفتنا بعضنا ببعض تعود للمرحلة الثانوية وربما قبلها مع بعضهم لذا فعلاقتنا أقل ما يقال عنها متينة وقوية ولا يمكن أن يفسدها اختلاف في وجهات النظر والتي لا بد وأن تطرأ من وقتٍ لآخر لكننا أحياناً نحظى ببعض الضيوف العابرين ولا يتردد أصحابي في فتح موضوعات شائكة أمامهم ولم أتردد أنا بدوري بالمشاركة معهم في إبداء رأيي مهما كان غريباً ومرفوضاً.

بالطبع لم تكن جميع مواجهاتي ونقاشاتي مع زوار المزرعة سلبية فقد التقيت بأشخاص عقولهم ناضجة ومتفتحة ولا أقول ذلك لأنهم اقتنعوا بكلامي أو أن آرائي نالت استحسانَهم ولكنهم كانوا يملكون قدراً كافياً من الثقة بأنفسهم كي يناقشوني بهدوء وعقلانية. لكن للأسف هؤلاء كانوا قلة والسواد الأعظم كان من النوع الأول.

تحدث في مرة أحد هؤلاء الزوار العابرين وهو صديقٌ قديم لـ (يوسف) .. أبو (وله) سابقاً .. عن أضرار التدخين لأن أغلب الموجودين وقتها كانوا يدخنون، بدأ حديثه بشكل جيد عندما ذكر أضراره الصحية والاقتصادية والجميع منصتون له وأعقاب السجائر

تتدلى من أفواههم وأطراف أصابعهم وأنا كنت أحدهم لكن عندما لم يجد في أعيننا التأثر المأمول الذي سعى إليه حوّل الموضوع من منطلق صحي اقتصادي إلى منحىً ديني وبدأ يستعين بآيات قرآنية لتعزيز وجهة نظره وهذا ما استفزني وأرغمني على التدخل بعد ما كنت مجرد مستمع غير آبه.

لم أستفز بسبب إقحام الدين في الموضوع ولكن أثار حفيظتي كيف أن ذلك الشخص تلبسه كي يصل إلى عقول المستمعين بلي أعناق النصوص وتطويعها لتتوافق مع وجهة نظره لكن تدخلي بدد جهوده حتى وإن كانت تلك الجهود بنية حسنة كما سيبرر له البعض.

أثار الرجل قضية حرمة التدخين شرعاً بعد ما لم يجد الأثر المطلوب من استعراضه لأضراره على المال والصحة واستشهد بآية: «(وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ) .. البقرة - ١٩٥» فقاطعته قائلاً : «إذاً فالتدخين حرام لأنه مضر بالصحة؟»

أجاب بكل ثقة: «نعم!»

ألحقت سؤالي بسؤالٍ آخر وقلت : ماذا عن المشروبات الغازية؟

(الرجل) : ماذا عنها؟

- هل هي حرام أيضاً؟

- (الرجل) : طبعاً لا

- على أي أساس حرمت التدخين ولم تحرم المشروبات الغازية؟

(الرجل) : التدخين ضرره ثابت ويسبب الكثير من الأمراض وعلى رأسها السرطان

- العلم الحديث أثبت أن المشروبات الغازية لها الأثر نفسه في التسبب بكثير من الأمراض ومن ضمنها السرطان

(الرجل) : التدخين ليس به منفعة غذائية لكن تلك المشروبات بها نفع بسيط وتعتبر من الأغذية

- غير صحيح .. نسبة المنفعة الغذائية من المشروبات الغازية تعادل الصفر والسكر الأبيض المكرر الموجود بها والذي يعتبر المكون الرئيس لها أثبت العلم أيضاً أنه مثبط للمناعة ومحفز للخلايا السرطانية وغذائها الرئيس كي تنمو وبعض الأبحاث أشارت كذلك إلى أنها أكثر ضررًا من التدخين نفسه

(الرجل) بنبرة غاضبة : ماذا تريد أن تقول؟! .. هل تقول إن التدخين حلال أو إن المشروبات الغازية حرام؟

- أنا لا أملك جرأتك في التحليل أو التحريم لكني أريد أن أفهم مبدأك والقاعدة التي بنيت عليها استنتاجك بتحريم شيء دون الآخر .. أعطني شيئاً واحداً .. واحداً فقط يختلف فيه التدخين المحرم من وجهة نظرك عن المشروبات الغازية التي هي حلال من وجهة نظرك أيضاً

(الرجل) وصوته بدأ بالارتفاع : يبدو أنك زنديق ومدلس وتريد تمييع الدين والتشويش على الجميع!!

- تهم اعتدت عليها .. لنرجع لسؤالي .. هل لديك إجابة مقنعة عليه؟

- (الرجل) : التدخين هدر للمال! .. قال تعالى: (إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ)!

- ولِمَ هو هدر للمال؟

(الرجل) : لأنه بلا منفعة أو فائدة!! .. قالها بصوتٍ عالٍ ومحتقن ..

- وما فائدة المشروبات الغازية؟ .. قلتها بكل برود ..

لم يرد الرجل وبدأ يصرخ ويهاجمني شخصيّاً ويشكك في ديني وأنا أراقبه مبتسماً وبعضُ أصحابي يحاولون تهدئته بقول: «اهدأ يا شيخ» .. لم يتغير شيء .. لم يتغير شيء على الإطلاق.

بالطبع «البعض» قد يفهم من هذا المثال أني أروج للتدخين وللمعاصي إلى آخر ذلك. لا أبداً .. التدخين عادة سيئة ومضرة بالصحة جدّاً ومسبب رئيس للسرطان وحارق للمال مثلما يحرق تبغه الملوث بالمبيدات رئاتنا .. لا خلاف على ذلك البتة .. وأنا لم أدعُ ولن أدعو أحداً لتجربته بل أحذر منه وبشدة ولا أدعو إليه مطلقاً.

الشيء الوحيد الذي أدعو إليه وأروج له وبقوة هو «التفكير» .. شيء حُرم منه الكثير .. أو أنهم اختاروا غيرهم ليفكروا عنهم.

بعض الناس للأسف في هذا الزمن تحولوا إما لأبواق مرددة أو حجارة صامتة مصمتة جاهزة للنحت أو القذف بها تجاه الغير. لا أحد يريد أن يفكر لأنه يخشى نتيجة تفكيره وهذا أمرٌ طبيعي لأننا تربينا على أن النفس أمارة بالسوء فقط ونسينا أو تناسينا أنها أيضاً ولدت على الفطرة السوية وتفسد بسبب مؤثرات خارجية وتكون غالباً أفكار أنفس أخرى غيرها.

في أحد الأيام دار نقاشٌ بيني وبين دكتور جامعي متخصص في علم الاجتماع له مقالات كثيرة في نشر وتعزيز الإيجابية وكان الموضوع يدور حول المشكلات الزوجية وارتفاع نسبة الطلاق، موضوع عام لا يحتمل الحدة في النقاش وبالفعل كان الحوار بيني وبينه سلساً حتى أخبرته بأن العلم النظري بالغ كثيراً في نتائجه المزعومة وخاصة فيما يختص بدعوات الإيجابية والتفاؤل.

عارضني كثيراً في تلك النقطة واستشهد بالجلسات النفسية التي تُعطى لأصحاب الأمراض النفسية المزمنة ومَن مروا بصدمات قوية وكيف أنها ساعدتهم على تجاوز أزماتهم فقلت له : «ذلك هو الوهم الحقيقي بعينه ..»

(الدكتور) : وهم؟! .. التفاؤل والإيجابية وهم؟!

- أخبرني .. كيف تُطل من نافذة الحياة والموت يطرق بابك؟

(الدكتور) : بمَ تهرطق؟

- وكيف تجرؤ كشخصٍ صحيح ومعافىً أن تُقنع مريضًا بالتفاؤل وتقبل فكرة الموت أو حتى تطلبها من أقربائه؟ .. الإيجابية مهمة لكنها عندما يتم المبالغة فيها وتصل لحد المثالية تصبح عبئاً ثقيلاً أثقل من المرض نفسه

لم يعجبه كلامي وأصر على أن بث الإيجابية عن طريق تكثيف الحديث عنها سبب في اكتسابها فقلت له :

- المُرفه لا يحق له الحديث عن الفقر، والآمن المطمئن في منزله ووطنه لا يحق له الحديث عن مآسي الحرب .. البعض عين نفسه متحدثاً عن أمورٍ لم يجربها قط وبدأ يقدم النصائح لتجاوز عقباتٍ هو نفسه لم يمر بها لكنه قرأ عنها أو شاهد برنامجاً وثائقياً أو تقريراً إخبارياً عنها. أشعر بالأسى الشديد على من فقد أمه أو أباه أو أخته أو أخاه ويأتيه شخصٌ لم يمر بالتجربة نفسها ويطلب منه تجاوز حزنه وأن المسألة عابرة وسينسى مع الوقت.

ردّ عليّ بكل ثقة وقال : هذا من باب المواساة ..

- لذلك أقول بأنك تبيع الوهم والمصاب سيشتري سلعتك لأنه بحاجة إليها أو لأنه يعتقد ذلك حتى يكتشف العكس .. غريق يتعلق بقشة إن صح التعبير ..

(الدكتور) : تجديد الإيمان بالله ليس وهماً أو سلعة

هنا علمت أن الرجل قد حوصر عندما أدخل «الدين» في الموضوع ..

فقلت له :

- نعم الإيمان بالله هو أساس أي طمأنينة وراحة نصل إليها لكن الموضوع لو لاحظت كان عمن يبيعون وهم الإيجابية للناس وأنت أحدهم خاصة وأنك قد ألفت عدة كتب في الإيجابية وتطهير النفس والنهوض بها من قيعان الإحباط والسلبية ووجدت أن نقاشي معك سيهدد مصدر رزقك ولقمة عيشك ويهدم أساس وجودك وبضاعتك فقمت بكل ما يقوم به أي شخصٍ لا يملك حجة وبينة أو منطقاً قويّاً وأقحمت الدين في الموضوع كي تكتسب حصانة تلقائية ويصبح النقاش أمام الحاضرين بيني وبين الدين وليس معك .. حيلة قديمة ومكشوفة.

أعلن دكتور علم الاجتماع انهزامه عندما وصفني بعد هذا الكلام وبكل برود بـ «المجنون» .. تخيل .. رجل بتلك المؤهلات العلمية يصل لهذه المرحلة من إقصاء الغير فقط لأني واجهت منطقه بمنطقي.

الناس عموماً يشعرون بالارتياح عندما يُلصقون بك ملصقاً يصفك ويصنفك بالمجنون أو المختل عقليّاً أو على أقل تقدير بشخصٍ غير سوي فهم بذلك يضعون أنفسهم بطريقة غير مباشرة في الخانة المقابلة وهي بالطبع رجاحة العقل والحنكة والرزانة.

تزامن انتهاء ذلك النقاش بدخول أحد الأصدقاء ليدعونا للتفضل على العشاء الذي أعده لمناسبة ما تخصه وضمت تلك الوليمة جميع أصدقائنا في المزرعة بالإضافة لبعض المدعوين «الجدد» من طرف صاحب الدعوة وقد كان من بينهم رجل لنقل عنه إنه «متحمس» بعض الشيء ولا تظهر عليه «خارجيّاً» أي من علامات التدين المعروفة كي لا نقع في تهمة التصنيف الفكري ونكتفي بالتصنيف الشكلي فقط.

لفت نظري ذلك الرجل الذي جلس أمامي خلال العشاء حين نهَرَ وبقوة ابنه المرافق له عندما أخذ شيئاً من المائدة بيده اليسرى ولم يكتفِ بالنهر فقط بل وبخه بطريقة محرجة أمام الجميع. لم تكن هنا المشكلة .. المشكلة كانت أن ابنه لم يتجاوز في عمره السابعة تقريباً ونظرات الطفل المنكسرة أثارت حنقي على ذلك الأب.

منظر مثير للاشمئزاز ومخجل أن ترى شخصاً راشداً يتهجم على طفل صغير بالكلام أو الضرب لأنه فقط مارس طفولته بعفوية وبراءة مهما كانت الأسباب والمبررات.

لم أكن أستطيع التدخل لنصرة طفلٍ على أبيه لكنني بدأت أستخدم كلتا يدي في الأكل أمامهما وأنا أبتسم للطفل. لم أسلم أنا أيضاً من تعليقٍ جانبي بأن الأكل باليسرى حرام. الحقيقة المُرة هي أننا تربينا على معلومة خاطئة تماماً فالأكل باليسار ليس حراماً .. نعم ليس حراماً

لكن الأكل باليمين سنة حولها الناس لواجب ومع مرور الزمن نسينا أو تناسينا الفرق.

هذه المواقف لا مفر منها إذا كنت ستحتك بالناس ..

من باب العدل وكي لا يقال بأني أخص فئة دون أخرى في التدليس يجب أن أشير لنوعٍ آخر من الدجالين «الجدد» وهم من يمتطون «العلم الحديث» ويستخدمونه لتمرير أجندتهم وأفكارهم فهم وكما يستعين البعض بالدين لإحراج الناس وثنيهم عن المجادلة يستخدمون المبدأ نفسه باستخدام العلم.

مثال على ذلك من يعززون أحاديثهم بكلمة: «أثبتت الدراسات» أو: «أثبت العلم الحديث» أو: «تفيد الاحصاءات» ولو بحثت خلف تلك الادعاءات لما وجدت بحثاً أو إحصائية أو شيئاً علميّاً يدعم ادعاءهم.

هذا الأسلوب الخبيث في الطرح يرفع قابلية التصديق عند المستمع البسيط ويجعل من المتحدث منارة علمية مشرقة تنير لهم ظلمات الجهل ولمعرفة المتحدث «المحتال» بأن أغلب من يستمعون إليه أو يقرؤون له لن يبحثوا خلفه للتحقق من صحة ادعائه. خلق لنا ذلك فئة جديدة من الدجالين المعاصرين نافسوا بأسلوبهم المبتكر «المتمشيخين» و«المشعوذين».

التطرف هو التطرف مهما اختلف المنهج والمنطلق فهو ليس مقتصراً على ممتهني الدين والمتاجرين به فالمجرم متطرف والمتهور في قيادة

السيارة متطرف وأهل «العلم» غير الديني لهم نصيب كبير في هذا التطرف والتضليل بالتعصب لـ «آرائهم».

الخط الفاصل بين الرأي والقناعة والتطرف هو تعاملك مع من لا يؤمن برأيك وقناعاتك فإذا كنت لا تأبه بمن يصدقك أو يكذبك وتطرح تلك الآراء من باب العلم بالشيء فأنت في خانة الاتزان أما إذا وجدت نفسك تتحول إلى «بركان ثائر» في كل مرة يتم فيها مناقشة ما تؤمن به فأنت متطرف بكل ما تعنيه الكلمة. وإذا تعدى الأمر إلى إيذاء الغير لفظاً أو عملاً أصبحت إرهابيّاً.

هناك نوع جديد من الإرهاب .. وقبل الحديث عنه يجب أن أقر وأعترف أني في المراحل الأولى من حياتي كنت أظن أن بعض أصحاب الفكر المتدين هم سادة القمع الفكري وربما كان ذلك صحيحاً في مرحلة سابقة لكن مؤخراً وتحديداً في السنوات الأخيرة ظهرت فئة في مجتمعي لم تكن كثيفة اللحى أو قصيرة الثياب ولم يظهر عليها معالم التدين الخارجي بقوة لكنها كانت تحمل الفكر المشوه نفسه والمنطق العقيم نفسه في الجدال وطرح الآراء.

لا أعرف ما هو التصنيف المناسب لهم فهم متلونون على الدوام وممارستهم لذلك «الإرهاب الفكري» متجددة ومتقلبة لكن بالهدف والتوجه أنفسهما وغالباً ما يكون لأهداف شخصية وذاتية للارتقاء اجتماعيّاً وماديّاً بشكل زائف.

أبرز الامثلة التي قابلتها من هذه النوعية من «المدلسين الجدد» كان مدرباً معتمداً في تطوير الذات تم دعوته لإلقاء محاضرة في الكلية التي أعمل بها وحسب ما نُقل لي من أحد زملائي فإن هذا المدرب أيقونة في مجاله وصاحب فكر جميل وآراؤه باهرة فيما يتعلق بمجال «تخصصه».

جلست بين الجموع في تلك المحاضرة أنصت لذلك «المدرب» وهو يتكلم ويحدث الحاضرين وشيئاً فشيئاً تحول كلامه لخزعبلات. أنا لستُ متخصصاً في «علم» تطوير الذات لو جاز التعبير لكنه مجالٌ قرأت فيه على استحياء وما تحدث عنه ذلك الرجل لم يكن سوى خليطٍ من الحق والباطل ولا أعرف هل تعمد ذلك أو كان جهلاً غير مقصود.

كان يضرب أمثلة خاطئة ويثير نقاطاً مغلوطة ويستشهد بمعلومات غير صحيحة وأنا أستمع له متعجباً منه ومن جرأته ومن اندماج الحاضرين الغافلين المصدقين له. لم أكن بصدد مناقشته ولم يكن مجال النقاش مفتوحاً من الأساس خلال المحاضرة لكن كان لا بد أن أحدث شرخاً ما في ذلك السد المنيع من الأكاذيب.

أنهى «المدرب» محاضرته وبدأ يهز رأسه مبتسماً وهو يراقب الجمهور المصفق له بحرارة وهممت بالنهوض والرحيل لكن كلمة منظم اللقاء بأن فقرة الأسئلة والنقاش سوف تبدأ جعلتني أتراجع وأنتظر لعلي أتمكن من تصحيح مفاهيمي التي هشمها هذا المدعي بمغالطاته.

انتقل الميكرفون من سائلٍ لآخر حتى وقع بين يديّ فوقفت وعلى عكس البقية الذين استهلوا أسئلتهم بنفخ ذلك المحاضر أكثر مما كان منفوخاً بالمديح والإطراء سألته مباشرةً وقلت :

«ذكرت خلال حديثك أن مدينة ((لاس فيغاس)) هي عاصمة القمار في العالم عندما استخدمتها كمثال لتعزيز مفهوم التخصص في العمل ..»

رد (المدرب) ضاحكاً مستظرفاً : نعم وهذا كان مجرد مثال وليس دعوة لممارسة القمار!

ضحك الحاضرون من «طرفة» (المدرب) فأتبعتها بتعليقٍ بسيط وقلت :

- لكن عاصمة القمار في العالم هي مدينة ((مكاو)) بالصين وليست ((لاس فيغاس)) كما أسلفت

تبسم (المدرب) وقال : المهم المثال وليس المعلومة ..

- كيف تقول ذلك؟ .. لقد زودتنا بمعلومة خاطئة وأنت رجل تحاضر بشكل دوري أمام آلاف الناس الذين يستمعون إليك فخطؤك ليس كغيرك

تجاهلني (المدرب) المُحرج وقال موجهاً كلامه للحضور : هل هناك سؤالٌ آخر؟

لم أكن أنوي الاستمرار لكن بدا لي أن الحاضرين ما زالوا مقتنعين أن هذا الرجل صاحب علمٍ كبير وأعجوبة زمانه فأكملت حديثي عبر الميكرفون وقلت:

«نعم أنا لدي سؤال إذا لم تخشَ الوقوع في إحراجٍ آخر ..»

التفت (المدرب) المحاضر علي بابتسامة مصطنعة وقال: «لا أبداً تفضل .. وأنا لم أقع في أي إحراج ..»

- جيد .. حسناً إذاً .. جرب الإجابة على هذا السؤال كي نستفيد من علمك الغزير .. حدثتنا كثيراً خلال المحاضرة عن رحلتك الدراسية للخارج وعن الشهادات التي حصلت عليها والمدن والدول التي زرتها والمناصب التي توليتها والمشاريع الخاصة التي أنشأتها وهذا أمرٌ جميل لكن ما هي إنجازاتك؟

(المدرب): ماذا تقصد؟ لقد ذكرتها للتو ..

- كل ما ذكرته وأسميته بـ «إنجاز» كان منفعة شخصية لك .. أسست مراكز تدريب خاصة في عدة مدن تدر عليك الأرباح لكن ما هو الإنجاز «العلمي» أو «العملي» .. هل قدمت شيئاً غير النظريات الشفهية التي ذكرتها والتي تتمحور كلها عن تطوير الذات أو بمعنى آخر كلام منمق مريح لنفسية القارئ فقط دون أن يُسمن أو يُغني من جوع؟ .. هل السؤال واضح؟

وكما جرت العادة تحول الموضوع لشخصنة وتهجم الرجل عليّ لفظياً وقال : «وماذا قدمت أنت؟!»

أجبته مبتسماً وبكل برود : «أنا لم أقف على منصة جامعاً الناس حولي مدعياً شيئاً من الإنجاز كي أقدم القرائن على ذلك لكن أنت أمضيت ساعة كاملة في الحديث عن نفسك وعن إنجازاتك ..»

(المدرب) بتجهم : هل تحاول السخرية مني؟!

- العفو .. أنا لست هنا للتقليل من شأنك لكن صدقاً لا أرى أنك حققت شيئاً يستحق أن يُجمع له هذا الكم من الناس لينصتوا له .. لقد أُلغيت محاضرات الظهيرة في الكلية لأجلك.. ما الفائدة؟ .. عامل البناء الذي شارك في بناء هذه القاعة صاحب إنجازٍ أكثر منك فعمله موجود ومحسوس ويمكن رؤيته واستخدامه والاستفادة منه ومنفعته ملموسة ومستمرة .. الخباز الذي أعد الفطائر المصفوفة هنا كضيافة أنفع منك فإنجازه نراه وسنستفيد منه .. ما منفعتك أنت وعلومك النظرية؟

(المدرب) : هذه ليست أول مرة أهاجم بسبب شهاداتي العلمية فهي مصدر حسد من الكثير وأنت لن تكون آخرهم

حاول أن تدرك أن شهاداتك إضافة شخصية لك وحدك فقط وليس لنا كمجتمع إلا إذا خرجت بشيءٍ مادي ننتفع به وأما الكلام والتنظير فهما مجرد مضيعة للوقت .. وأرجوك لا تقل لي بأن ذلك ساعد الكثير

في تجاوز محنهم وعلاج مشكلاتهم فأنت لا تختلف عن أي مسكن أو مهدئ يؤخذ بشكل مؤقت حتى يصل العلاج الحقيقي .. وإذا كنت سأحسد أحداً فأنا أحسد من يملك صبراً للاستماع لك لأكثر من عشر دقائق

يمكنكم تصور ما حدث بالطبع .. لم أحصل على إجابة وأنهى منظم الحوار الحديث بشكر «المدرب» على تخصيصه جزءاً من وقته الثمين لنا وتم تسليمه درعاً و«شهادة شكر» مع التقاط بعض الصور التذكارية معه.

نقاشات عقيمة نخوضها كل يوم على أمل إحداث فرق لكننا نكتشف أن الهوة أكبر مما نظن .. غرور الإنسان يمنعه من رؤية حقيقة نفسه .. فالتعالي والتكبر هوايات يجب أن يمارسها الناقصون ويحاكيها ويقلدها الفاشلون.

أبسط نقاش في أبسط موضوع ينتهي غالباً بالتسفيه أو الإقصاء. المجنون في هذا الزمن ليس من غاب عقله بل من غاب كُله عن النمط السائد في المجتمع ورفض العوم مع تياره لذا فمصطلح «مجنون» لم يعد مذمة من وجهة نظري بل وسام شرف وشهادة بالتفرد عن القطيع.

مشكلتنا لم تكن يوماً الالتزام أو التفريط ..

مشكلتنا كانت وما زالت «التطرف» في أحد الاتجاهين ..

البقاء في الوسط مفهوم لم نتقن التعامل معه حتى الآن ..

تطرفنا في الكرم وحولناه لتبذير وإسراف ..

تطرفنا في النصح وجعلناه ترهيباً وتخويفاً ..

تطرفنا في الحب فأصبح تملكًا واستحواذًا ..

والقائمة تطول ..

«تحدثت عن نفسي كثيراً أليس كذلك؟»

في الواقع الحديث كان معظم الوقت وفي مجمله عن غيري لكن الحديث عن الغير يعتبره البعض حديثاً غير مباشر عن ذاتك وتلميعاً لها بصيغة: «أنا أفضل» أو: «أنا أعلم» .. لا أبداً لست أفضل أو أعلم من أحد لكنه مجرد وصف موجز لما أخوضه من صراعات شبه يومية عندما أقرر الاختلاط بالناس لذا فالعزلة هي أجمل رفيق لي ومن أجمل العادات التي أمارسها وأُلام عليها.

المَاءُ الرّاكدُ في قاع الجُمْجُمَة

بعد حديثي أو «فضفضتي» الطويلة للنبتة الحزينة أشعلت سيجارة ووجهت حديثي لها باسماً :

«أعتذر .. لكني أحتاج لهذه اللفافة بعد هذا الحديث الطويل معكِ ..»

لم أكن بالطبع أتوقع منها أن تجيب .. لكن هناك من أجابني .. صوت مألوف عليّ أتى من ورائي قائلاً :

«يا إنك نفخت راسي وراسها بحلطمتك ..»

نهضت مفزوعاً من مكاني ملتفتاً خلفي مسقطاً الكرسي والسيجارة من يدي باحثاً بنظري عن المتحدث الذي تسلل لمنزلي .. وفوجئت .. بأنه يقف أمامي .. ضاحكاً بثغره يحدق بي بأعينه الصفراء قائلاً :

«وحشتني يا (خوف) ..»

جف ريقي والدم بعروقي واتسعت عيناي عجباً وصدمة مما شاهدته .. لقد كان (دجن) .. يقف باسماً لي بأسنان ناصعة البياض وأنف مستل كالسيف .. لم أستطع الحديث وبقيت أحدق به في حالة مَن الذهول حتى استطرد هو وقال : «شفيك تبحلق فيني؟»

- لماذا؟

(دجن) : ليش ايش؟

- أنت ميت!

(دجن) بنبرة متهكمة: صحيح .. ميت فيك

- كيف عدت؟ .. ولماذا؟

(دجن) : هذا بدال ما تاخذني بالأحضان وتقول: «فقدتك يا أعز الناس ..»

لم أتمالك نفسي وصرخت به قائلاً: جاوب!

(دجن) : اركد .. اركد .. وقصر صوتك الناس نايمة

أدرت ظهري له وسرت تجاه مدخل المنزل وأنا أردد: أنا أهلوس! .. أنا أهلوس!

دخلت البيت وتوجهت لغرفتي مباشرة وأغلقت الباب خلفي وجلست على طرف فراشي الأرضي محتضناً رأسي بكلتا يدي محدثاً نفسي: ما الذي يحدث لي؟

خلال ذلك لمحت علبة الأقراص التي قدمها لي أخي نهار ذلك اليوم وبجانبها كأس من الماء .. يبدو أن أمي متفقة معه وعلى علم بها وهي من أحضرها إلى هنا .. لكن ذلك لم يشغل بالي بقدر الشرخ البسيط على طرف الكأس .. كان يجدر بي إخبار أمي بأن الكؤوس والصحون حتى وإن كان بها شرخ صغير أو فاقدة لقطعة منها مضرة روحانياً

ويجب رميها. لكنها لن تنصت لي وستتيقن أكثر أني أشكو من علة عقلية.

أخذت العلبة وقلبتها بيدي وقلت : «أنا لست مريضاً .. أنا متعب فقط ..»

أجابني صوت (دجن) القادم من إحدى زوايا غرفتي قائلاً : «واجه حقيقتك .. الحقيقـة اللي تحاول تهرب منها من زمان وهي أنك مريض .. بالعربي مشموخ ..»

التفت نحوه وقلت بهدوء دون جزع من ظهوره مجدداً : هذا يعني أنك مجرد وهم ولست حقيقة ..؟

(دجن) مبتسماً : أيوا .. من كثر ما وحشتك مخك الملحوس رجعني

- أنت تتلاعب بي كعادتك وموجود بالفعل .. أليس كذلك؟

(دجن) سائراً نحوي واقفاً أمامي : للأسف لا يا خويي .. أنا مو موجود إلا بمخك .. اعتبرني زي ضميرك .. ضميرك الميت

- أنا لست مجنوناً! .. وأنت حقيقة! .. وهذه حيلة من حيلك!

(دجن) : طيب لا تصيح وحاول تنام وترتاح

- ليس قبل أن أجمدك وأثبت أنك حقيقة ..

(دجن) باسماً باسطاً كفيه : تفضل .. جمدني ..

- دجن .. دجن ..

(دجن) مقترباً مني أكثر وبنبرة متهكمة : شبيك لبيك الحلا كله بين إيديك!

وقتها لم يكن هناك مجال للشك والتشكيك بالحقيقة فقلت بخليط من الخيبة والحسرة : «معنى ذلك أنك بالفعل من نسج خيالي ..»

(دجن) وهو يجلس بجانبي على طرف الفراش : شفيك؟ .. كنك زعلان وكان ودك أني أكون حقيقة

- لا أبداً لست مستاء ..

تجهم (دجن) فجأة وقال بخليط من العصبية والتهكم : أكيد «لست مستاء» .. والدليل أنك سامحت اللي ذبحتني يوم اعترفت لك بلسانها بكل برود ولا كأن كان بينا عِشرة!

قلت وأنا أنهض من مكاني حاملاً علبة الدواء بيدي متوجهاً لمكتبي الصغير بالغرفة : لقد كنت حزيناً لخبر موتك لكني لم أكن سأقتل أحداً لأجلك أو لأجل غيرك ..

(دجن) مستلقياً على فراشي الأرضي مسنداً رأسه للوسادة : لأنك رخمة ..

قلت وأنا أجلس على المكتب : وماذا تريد مني الآن؟

(دجن) : أنا اللي وش أبي؟ .. أنت اللي مطلعني من قبري

- أنا لا أريدك حولي ولا أريد رؤيتك

(دجن) بنبرة ساخرة : لا، تكفى .. خلني جنبك

- اغرب عن وجهي! .. ألا تفهم؟!

(دجن) بسخط : ومن زين وجهك عشان أقابله؟! .. أنت اللي اصرفني!

- وكيف أصرفك وأنت مجرد خيال .. أي طلسم سيزيلك ويخرجك من رأسي وحياتي؟!

(دجن) : مشيراً بسبابته لعلبة الأقراص بيدي : هالمرة ما تحتاج طلاسم

رفعت العلبة أمام نظري وقلت : تقصد ..

(دجن) : أي أقصد أنك مشموخ ولازم تأخذ علاجك عشان ما تأذي المسلمين

فتحت غطاء العلبة وتأملت محتواها بصمت ..

(دجن) وذراعاه خلف رأسه : حبة وحدة باليوم .. وما راح تشوفني بعدها

- لن أتناول هذا السم مهما حدث ..

(دجن) واضعاً ساقه على الأخرى محركاً قدمه يميناً وشمالاً : خلاص خلك على خبالك طول عمرك وخلني جالس معك .. واطلب لنا أكل .. جاي على بالي رز

تجهمت وأفرغت محتوى العلبة على راحة يدي ..
(دجن) قافزاً من على الفراش ملوحاً بكفه المفتوحة : هيه .. هيه! ..
حبة وحدة بس! .. لا تسوي فيها المتأثر بالتنمر وتنتحر!
رفعت كفي الممتلئة بالأقراص وقلت : ولَمَ لا؟ .. الموت أهون من العيش بلا عقل ..
(دجن) : يا ليل .. رجعنا للهياط .. خذ حبة وحدة بس واحمد بعدها .. وأنا بمشي من الحين بس فكنا من الدراما حقتك

اختفى (دجن) ..

وهذا دفعني للتساؤل ..:

كيف يحدث هذا وأنا لم أتناول القرص بعد ..

هل يمكن أنه بالفعل عاد وهذه إحدى حيله؟ ..

لكني نطقت اسمه ولم يتجمد ..

أم أني بلغت من الذهان والهلوسة مبلغاً جعلني أغير الأحداث حولي فقط لأقنع نفسي بما هو موجود وليس موجوداً ..

أعدت الأقراص للعلبة ولم أتناولها ..

وضعت العلبة على سطح الطاولة ونهضت متوجهاً لدورة المياه في غرفتي وأخذت حماماً ساخناً طويلاً وخرجت بعدها متوجهاً لدولاب ملابسي وخلال ارتدائي لملابسي سمعت طرق باب غرفتي .. كانت أمي .. أتت للاطمئنان عليّ ..

(أمي) من وراء الباب : هل أنت بخير يا حبيبي؟

- بخير يا أمي ..

(أمي) : هل يمكنني الدخول؟

- أنا أبدل ملابسي الآن

(أمي) : ما به صوتك؟

- ما به؟

(أمي) : تبدو متعباً .. صارحني .. هل أنت بخير حقّاً؟

زفرت .. كنت أعرف أنه مهما قلت وفعلت لن أستطيع منح أمي راحة البال التي تستحقها ..

- نعم يا أمي أنا بخير لا تقلقي .. فقط إجهاد بسيط من يومي الطويل مع (عواد)

(أمي) بتردد : مع من كنت تتحدث قبل قليل؟

- مع نفسي ..

(أمي) : هل أخذت دواءك ..؟

- نعم .. أخذته

(أمي) : اصدقني القول ..

أكملت ارتداء ملابسي وفتحت الباب لأجدها تقف بوجه امتلأ خوفاً وقلقاً ولم أقل لها شيئاً واكتفيت بمعانقتها وتقبيل رأسها محاولاً طمأنتها عليّ ..

رحلت أمي .. عدت لغرفتي .. أخذت علبة الدواء من فوق سطح مكتبي وجلست على طرف فراشي الأرضي ..

تكلمت مع الشخص الوحيد المنصت لي .. نفسي .. وقلت : «كنت أتمنى يا أمي بحق أن أريح بالك وأطمئنك عليّ لكني لا أستطيع .. لا أستطيع أن أكون شيئاً فات الأوان أن أكون عليه ..»

صوت يحدثني من المكان نفسه الذي حدثني منه (دجن) سابقاً ويقول :

«ومن قال لك إن الأوان قد فات ..؟»

لم أفزع ولم أجزع هذه المرة .. لا أدري هل هو لأني وصلت لمرحلة متقدمة من التبلد أم لأني تعرفت على صاحب الصوت مباشرة من أول كلمة نطق بها .. نبرة صوته المميزة والتي لم أسمعها إلا مرتين في حياتي .. وهذه كانت الثالثة ..

التفت نحوه وقلت ببرود : وماذا تريد أنت؟

تقدم (الرجل الأنيق) وهو يشد على ربطة عنقه الحمراء باسماً ويقول :

هل هذه طريقة لائقة للترحيب بصديقٍ قديم؟

- أنت لا تظهر إلا في قمة المصائب .. فما هي الكارثة التي أتيت لحلها هذه المرة؟

توجه الرجل الأنيق تجاه مكتبي وسحب الكرسي وجلس عليه واضعاً ساقاً على ساق وقال : «هدئ من روعك يا (خوف) .. لم يحدث شيء .. بعد ..»

- لا تنادِني بهذا الاسم ..

(الرجل الأنيق) : بماذا تحب أن أناديك؟ .. المستشار؟ .. أم المحاضر؟ .. أو ..

- ماذا تريد؟

(الرجل الأنيق) : انهض وأعد لنفسك قدحاً من القهوة السوداء كي تخفف بها توترك ونستطيع الحديث بهدوء

- لا حاجة لي بها الآن

(الرجل الأنيق) : لكن أنا بحاجتك ..

- أنت تحتاجني؟ .. أي ألعوبة تريد أن تمررها علي هذه المرة؟

(الرجل الأنيق) : لا أحتاجك بالمعنى الذي فهمت لكن لدي مهمة أريد إنجازها وأنت أنسب شخص يمكنه القيام بها

- أنا لست خادماً عندك

(الرجل الأنيق) مشيراً لي بسبابته : لن يكون بلا مقابل وأنت تعرف ذلك

- وفر عروضك لغيري

استأنف الرجل الأنيق حديثه وكأنه لم يسمع شيئاً وقال :

«هناك أمور لا نستطيع القيام بها إلا من خلال بشر مهما بلغت قدراتنا وسيطرتنا .. هذه هي السنة المسنونة من سنين ..»

- استعن بغيري .. لا شك بأنك تملك الكثير من الخدم من البشر والذين يتمنون خدمتك وتلبية رغباتك الشيطانية

(الرجل الأنيق) : صحيح .. لكنهم ليسوا مثلك

- أنا لست مختلفاً عن أحد ولا تحاول إغوائي بهذا الكلام

(الرجل الأنيق) : بل مختلف يا (خوف) .. أنت الوحيد من بينهم الذي ينبذ كل شيء نعمل من أجله ونسعى إليه ومع ذلك لا يريد الرحيل .. أنت ترفض التحالف معنا والدخول لعالمنا وفي الوقت نفسه تقف عند عتبة الباب وترفض المغادرة ..

- هذا إن كان لكم وجود من الأساس ..

(الرجل الأنيق) : هل ما زلت تشك بوجودنا؟ .. هل ما زلت تريد دليلاً وإثباتاً؟

- اكتشفت مؤخراً أن المرء يمكنه نفي أو أثبات أي شيء بالأدلة ذاتها .. البراهين لم تعد مصدراً موثوقاً لليقين .. أغلب الحقائق التي نؤمن بها ليست مبنية على أدلة قاطعة بل الإيمان المطلق بها وبوجودها وهذا لأننا ببساطة لا نعرف شيئاً على الإطلاق

(الرجل الأنيق) : فما الضير إذاً بمجاراتي والإنصات لما أريد قوله لك؟

- الضرر هو أني سأغرق أكثر في هاوية صنعتها لنفسي ..

(الرجل الأنيق) : هل تطمح للخروج منها؟

- أنا وأنت نعرف أن ذلك مستحيل .. كل ما يمكنني القيام به للتكفير عن ذنبي هو محاولة حماية غيري من الوقوع في الحفرة نفسها

(الرجل الأنيق) : ألهذا بدأت تكتب مذكراتك مؤخراً؟

- هل أنت خائف من محتواها؟

(الرجل الأنيق) باسماً : الخوف ليس شعوراً مألوفاً عليّ .. ثم إن ما مررت به مجرد خيال أليس كذلك؟ .. لا يوجد أجمل من خيال عشناه إلا واقع لم نعشه بعد ..

- ماذا تقصد؟

(الرجل الأنيق) : رحلتك لم تنتهِ .. وسنبقى حولك نراقبك .. لن نؤذيك .. لأننا واثقون من أنك ستؤذي نفسك بنفسك

- أنا أجدد العهد الذي قطعته مع نفسي كل يوم وهو أني لن أتفوه بطلسمٍ آخر من الطلاسم التي قلبت عالمي رأساً على عقب وأن أرمي تلك الحياة خلفي للأبد وأحاول استعادة ما تبقى من حياتي «الطبيعية» قدر المستطاع

(الرجل الأنيق) بنبرة متهكمة بعض الشيء :

«حياة طبيعية؟ .. كي تحظى بحياة طبيعية يجب أن تعيش وسط أناس طبيعيين .. انظر وابحث حولك .. هل تراهم؟ .. مشكلتك كانت وما زالت أنك أنت الطبيعي بينهم وليس العكس ..»

- لكني مريض .. وأعرف أن (عمار) هو من تسبب في مرضي حينما خلط واقعي المؤلم بعلمه المسموم .. وقد حان الوقت أن أفصل بينهما

(الرجل الأنيق) : هذه ليست أول مرة تخوض فيها هذا الصراع مع نفسك وتكتشف لاحقاً أنك على خطأ

- لا .. أنا من يقنع نفسي بأني على خطأ .. هناك أمور كثيرة يختلقها عقلي كي يخفف عني مصيبتي ويبرر الجنون الذي يحيط بي ويحاول الاستحواذ عليّ

(الرجل الأنيق) : هل هذا هو التبرير الذي وصلت إليه؟

- نعم .. الخيال مهرب .. محاولة لتفسير واقع مر .. وأنت أحد تلك الخيالات .. وسأثبت لك ذلك

مددت يدي وحملت علبة الدواء المستقرة على سطح الطاولة خلف الرجل الأنيق وفتحت الغطاء وهززتها مخرجاً حبة واحدة على راحة يدي اليسرى دافعاً بها تجاه فمي المفتوح مبتلعاً القرص في الحال.

(الرجل الأنيق) باسماً : اشرب بعض الماء ..

توجهت لفراشي وشربت كأس الماء بأكمله وحينها استدرت للخلف لم أجده .. اختفى .. وكأنه لم يكن ..

السّاكِب والمَسْكُوب

العقل وعاء .. يستقبل الخبيث والطيب .. ونحن من نختار ما نسكبه في عقول غيرنا حسب نوايانا .. (عمار) اختار أن يقدم لي أخبث ما في وعائه لكن شاءت الأقدار أن يسكب معه بعضَ العلوم الحميدة اختلطت مع ذلك الفصد النجس .. ومحاولة التخلص من محتوى أي وعاء بالقوة قد تقود لكسره .. ووعائي شُرخ حينما حاولت وبدأت أفقد شيئاً من عقلي .. لا شك في ذلك.

لذا قررت البدء بنقل بعضِ علمي الحميد هذا لوعاءٍ آخر .. فعقلي قد يتهشم وأفقده في أي لحظة ويضيع معه ذلك العلم النادر وغير المدون لكن كان لزاماً عليّ أولاً أن أجد الوعاء المناسب.

الموضوع لم يكن سهلاً وأنا لم أبذل جهداً كافياً للبحث والتقصي لأني كنت مؤمناً بأني سأجد الشخص المناسب حين يقدر لي ذلك ومع هذا وبعد معرفة (عواد) بتوجهي الجديد اقترح عليّ أن يساعدني في البحث .. وليته لم يفعل.

كان من وقت لآخر يحضر لي شباناً غريبين وبالرغم من أني نبهت عليه ألا يوضح لهم شيئاً عن طبيعة ما هم مقبلون عليه ويكتفي بإخبارهم

أنهم يجرون مقابلة لوظيفة مساعد لي في أعمالي الخاصة إلا أن خياراته التي جلبها كانت أبعد ما يكون من وعاء مناسب .. أقل ما يقال عنهم أكياس مستخدمة.

أنا لا أنتقص منهم لكن الحقيقة كانوا مجموعة غريبة .. أغلبهم متصنع عابث أو فارغ يبحث عن التسلية .. لم ألمس الجدية من أيٍّ منهم هذا وهم يعتقدون أنهم يقدمون على وظيفة ويخرجون أفضل ما عندهم.

أذكر تحديداً إحدى تلك المقابلات والتي أجريتها في مجلس منزلي مع شاب في أول العشرين من عمره يدعى (حمزة) تخرج من الجامعة في تخصص الكيمياء بالرغم من أن ظاهره أوحى لي بتخصص آخر .. على أي حال .. أحببت أن أفهم طريقة تفكيره بعد حوار قصير معه فسألته سؤالاً بسيطاً .. في مجال تخصصه بالطبع وقلت : «هل تعرف مادة الكحول؟»

(حمزة) : نعم بالطبع

- هل تراها مادة نجسة أم طاهرة؟

استغرب الشاب من سؤالي في بادئ الأمر لكنه أجاب بثقة قائلاً : نجسة بالطبع

- هل هذه إجابة علمية أم دينية؟

(حمزة) : لا يوجد فرق

- كيف لا يوجد فرق؟

(حمزة) : العلم والدين لا يتعارضان

هنا أدركت أن الشاب الجميل لن يكون وعاء مناسباً لكني أحببت أن أستمر بالنقاش معه من باب إرسال رسالة له ولـ (عواد) الحاضر لتلك المقابلة فقلت :

صحح لي هذه المعلومة بحكم تخصصك إن كنت مخطئاً .. ألم يعجز العلماء عبر التاريخ عن إيجاد مطهر أقوى من الكحول .. أليس الكحول أقوى مطهر ولا يوجد له مثيل في التعقيم؟ .. فكيف يكون نجساً؟

هنا أصيب الشاب بما يعرف بصدمة القناعات مما جعله يتلعثم ويتوتر ويبدأ الغرق في بحر أفكاره ومبادئه فأكملت حديثي لإنقاذه كي لا يصاب بنكسة حادة وقلت :

«النجاسة في الخمر وليست في الكحول الذي يضاف إليه .. خلط الخمر بالكحول ألصق به صفة النجاسة لكنه في أصله طاهر وأصبح الناس يصفون الخمر بالكحول في بعض الأحيان ويستخدمون مصطلحات مثل «تعاطي الكحول» بدل «تعاطي الخمر» .. وهذا خلط منبعه الجهل ..»

(حمزة) : لكن الكحول مسكر بحد ذاته

تعاطي الكحول وحده مميت وليس مسكراً .. أنا كنت أتحدث عن طهارة ونجاسة عين الشيء وأنت انتقلت لمسكر وغير مسكر .. هل ترى كيف أن عقولنا تحيد عن أصول الموضوعات لموضوعات جانبية مشتتة لفكرة النقاش الأساسية .. لن أدخل في تفاصيل صناعة الخمور لكنني أردت بضرب هذا المثال توضيح معضلة الفهم السطحي أو كما أسميه «فهم القشور» .. الإيمان بشيء يستدعي ويستلزم فهماً أعمق من ذلك

(حمزة) : هل معنى ذلك أني لن أحصل على الوظيفة؟

تبسمت له وقلت : الخسارة لنا لكن العمل المطروح يستلزم شخصاً واعياً بذهنه وليس ثملاً بأفكاره ..

لم يعجب الشاب بكلامي بالرغم من أني لم أسئ له شخصيّاً وتحدثت في العموم ونهض بوجه متجهم تاركاً المجلس وتبعه (عواد) لإيصاله للباب. في تلك اللحظة تشكل خيال (دجن) بجانبي وشاركني النظر لباب المجلس وقال :

«يا خي دامك ما تبيه من أول صرفه وخلاص .. ما يحتاج كلام السكارى اللي قلته ..»

- لمَ عدت؟

(دجن) ملتفتاً إلي باسماً : جاي فزعة ..

- لست بحاجتك .. ارحل

(دجن) : خذ دواك وامشِ ..

- لقد رميت العلبة ..

(دجن) : كل هذا لأني وحشتك؟

- لن أتناول هذه السموم .. حتى لو كان الثمن تحمل بقائك المزعج معي

(دجن) بنبرة متهكمة وساخرة : مدري من متحمل الثاني

قلت وأنا أراقب (عواد) يعود : هل من الممكن أن تتركني الآن؟ .. عد لاحقاً كما تشاء لكن ذهني ليس مستعدًّا لك في الوقت الحالي

(دجن) وخياله يضمحل : طيب لا تشدها يا خبير الكحول ..

جلس (عواد) بجانبي وقال : ماذا فعلت؟ .. لقد كان الشاب متحمساً للوظيفة ومؤهلاً جدّاً لها

- وظيفة ماذا؟ .. هل نسيت الهدف من هذه المقابلات؟ .. ثم من أين أتيت به؟ .. إنه لا يفقه شيئاً حتى في تخصصه

(عواد) : الشاب خلوق ومهذب ومن عائلة محترمة

- أنا أحاول إيجاد تلميذ لتعلم علم روحاني وليس عريساً لابنتي

(عواد) : أنا أرى أنك استعجلت

- وأنا أرى أننا نضيع الوقت والجهد مع عرسانك .. سنتوقف .. لا تجلب لي أحدًا بعد اليوم

(عواد) : أفضل .. الأمر لم يكن سهلاً من الأساس والخيارات محدودة

بالحديث عن الخيارات .. لمَ كل الذين جلبتهم لي في السابق ذكور؟

(عواد) : ماذا تقصد؟

أقصد ما قلته ..

(عواد) : هل كنت تريد امرأة؟

أريد شخصاً مناسباً سواء رجلاً أو امرأة

(عواد) بشيء من التهكم : وهل ستكون مدرستك هذه مختلطة؟

ولَمَ لا؟

(عواد) : أعوذ بالله .. وأين سأقابل الفتيات لأجلبهن لك؟

أغلق الموضوع يا (عواد) فكلامك يسبب لي الصداع أحياناً

مضت الأيام ولم يُفتح هذا الباب مجدداً ولم أخرج من المنزل إلا عندما اتصل بي (عواد) هاتفيّاً ليخبرني بأنه يريد مني مرافقته للذهاب معه للسوق لأنه يريد شراء بعض الحاجيات لمنزله.

- تعرف يا (عواد) أني لا أحب الخروج إلا للضرورة

(عواد) : أعرف لكن زوجتي أعطتني قائمة طويلة تتطلب مني الذهاب لعدة محلات وسأشعر بالملل

- وأنا سأكون مصدر تسليتك؟

(عواد) ضاحكاً: لا لم أقصد .. أنا أحب الحديث معك

- ما الحكاية؟ .. هل تحتاج للمال؟

(عواد) : لا أبداً .. ما بك؟ .. ألا يمكننا الخروج بشكل طبيعي كصاحبين؟ .. لا يشترط أن يكون خروجنا معاً مرتبطاً بعمل أو حالة

في الحقيقة لم تكن هذه أول مرة يتصرف فيها (عواد) بتلك الطريقة فهذا يحدث عندما يغيب عني لعدة أيام ولا أكون بحاجة له. أعتقد فقط أنه يشعر برغبة للتواصل معي بشكل أكبر.

- حسناً يا (عواد) سأكون بانتظارك ..

بعد أقل من ساعة وصل (عواد) عند باب منزلي فخرجت وركبت معه وقضينا بقية اليوم في التسوق ..

نهاية اليوم وتحديداً حينما أويت لفراشي قبل منتصف الليل بقليل سمعت (دجن) يحدثني من إحدى زوايا الغرفة قائلاً: «ليه تبي تنقل علمك ..؟»

أجبته وأنا مضطجع على جانبي مسندٌ رأسي للوسادة محدقٌ بباب الغرفة ومديرٌ ظهري له: هل لديك رأي آخر؟

(دجن) : أنا أشوف أنك تخليه في راسك وتدفنه معك .. لا تصير زي (عمار) .. لا تتحول للشخص اللي ضيع حياتك

تبسمت وقلت : ما هذه الحنية؟

(دجن) : أنا أتكلم جد .. ما راح تقدر تفصل الخبيث من الطيب .. واللي بتعطيه جزء من علمك مرده ياخذ جزء من لعنتك

نهضت مسنداً ظهري للجدار خلف فراشي محدقاً أمامي متفكراً بصمت ..

(دجن) مستأنفاً حديثه : ثم تعال قلي .. وين بتعلمهم؟ .. في مجلس أبوك والا بغرفتك؟ .. اسمع .. ركز على شغلك وحياتك وخل سالفة نقل العلم ذي عنك .. أنت كلما زانت الجلسة وهدت حياتك رحت ودورت لك شيء يقلبها فوق تحت

- تهدأ؟ .. نعم والدليل أني أتحدث معك الآن

(دجن) : لا جد .. متى ناوي تصير زي الأوادم؟ .. لازم يعني تجيك مصيبة تهجدك؟

- السير وحيداً باختياري نحو الهاوية خير لي من المشي مغيباً مع القطيع ..

(دجن) : يا ذا القطيع اللي أشغلتنا فيه .. لا تمشي معه بس انثبر مكانك!

- ولِمَ لا تسير وترحل أنت؟

(دجن) : تبيني أمشي؟

- نعم إذا تكرمت

(دجن) : بعد شوي اصبر ..

صمت متفكراً بينما بقي (دجن) يحوم في غرفتي يعبث ويفتش في حاجياتي فقلت : ماذا تفعل؟

(دجن) وظهره مدار لي : لا تخاف ماني سارق شي

وجهت نظري للسقف وقلت محدثاً نفسي ودجن في الوقت ذاته : أفكر في الانتقال ..

(دجن) ملتفتاً إليّ : تنقل وين؟

- منزل جديد .. أستقل ..

(دجن) : أمك ما راح تخليك .. هي وأنت يمها وتحت عينها تحاتيك .. تبيها تخليك تعزل؟ .. انسَ!

- أمر أمي سهل .. المهم أن أجد مكانًا مناسبًا .. أعتقد أني سأبني وأصمم المنزل بطريقتي

(دجن) : أنا من سمعتك تقول لـ (عواد) أبي بنات وأنا شاك بوضعك ..

- دجن ..

(دجن) : لبيه

- أنا متعب .. ارحل .. أريد أن أنام ..

تبسم (دجن) وقال : أنا مو موجود أصلاً عشان أمشي؟ .. غمض عيونك بس وما راح تشوفني أو تسمعني

اضطجعت على جانبي الأيسر وأنزلت أجفاني المرهقة وبعد دقائق انزلقت في نوم عميق ..

صباح اليوم التالي فتحت عينيّ لأجد (دجن) مستلقياً بجانبي على شقه الأيمن متوسدًا كفيه يحدق بي باسماً ويقول : حلمت فيني؟

قلت وأنا على وضعي بهدوء : يبدو أني سأذهب للصيدلية اليوم ..

(دجن) : علاجك ما ينصرف إلا بوصفة يا مفهي

نهضت مسنداً ظهري للوسادة متأملاً الجدار أمامي : ارحل .. ارحل يا (دجن) وكف عن إزعاجي ..

(دجن) وخياله يضمحل : زين .. زين .. أشوفك بعدين ..

التقطت هاتفي ونظرت للساعة .. كانت السادسة صباحاً .. نمت كثيراً على غير العادة ..

خلال تمعني بشاشة الجوال أضاء رقم (عواد) بوجهي ففتحت الخط وقربت الهاتف من أذني قائلاً : ليس من عادتك أن تتصل في هذا الوقت الباكر ..

(عواد) : أنا بالأسفل

- ما الذي أتى بك في هذه الساعة؟ .. جميع من في المنزل نائمون

(عواد) : لكن أنت مستيقظ .. هيا افتح لي الباب أنا بانتظارك

نهضت بتثاقل وأخذت وقتي بالاغتسال نزلت بعدها للطابق السفلي متوجهاً لباب المنزل ..

(عواد) وهو يدخل حاملاً بعض الأكياس : أخيراً! .. كل هذا كي تفتح لي الباب!

- كنت أستشير نفسي بألّا أفتحه من الأساس

(عواد) متوجهاً للمجلس رافعاً الكيسين للأعلى : كنت ستخسر لو لم تفعل

أغلقت الباب وسرت نحو النبتة ووجدت أن أوراقها بدأت تزهر من جديد فمسحت بيدي على أحد أغصانها قائلاً :

«الذبول لا يعني الموت .. جميعنا يمكننا البدء من جديد ..»

(عواد) منادياً عليّ من الداخل بصوت مرتفع : هيا! .. الأكل سيبرد!

دخلت المجلس ورأيت (عواد) قد افترش الأرض وبسط عليها غطاءً بلاستيكيّاً وضع فوقه مجموعة من الأطباق والصحون الورقية امتلأت بأصناف من الطعام أغلبها من البيض المطهي بطرق متعددة يتوسطها هضبة من أرغفة الخبز فقلت متعجباً : ما هذا؟

(عواد) : ماذا تظن؟ .. إفطار

- ولِمَ كله بيض؟

(عواد) : هل لديك مشكلة مع البيض؟ .. تعال وسم باسم الله ودع عنك الحديث

- ليس لدي مشكلة مع بيضك لكن لدي مشكلة مع الأكل في هذا الوقت

(عواد) : وقت ماذا؟ .. نحن في الصباح الباكر معنى ذلك أنه وقت الفطور

- من قال ذلك؟

(عواد) : هذا هو المتعارف عليه

- بل هذه هي المشكلة

(عواد) : مشكلة ماذا؟ .. لا تبدأ أرجوك وتعال كل ولا تسد نفسي بفلسفتك

تبسمت وجلست أمام (عواد) وبدأت بتناول الطعام كاسراً عادتي اليومية بعدم الأكل بعد الاستيقاظ مباشرة ولم أخبره بوجهة نظري عما يسمى بالوجبات الثلاث وأن الإفطار ليس وجبة مهمة كما يظن الكثير بل قد تكون ضارة في بعض الأحيان .. إحساسنا الدائم بأننا يجب

أن نأكل في كل وقت هو عادة سيئة زرعت فينا وروجت لها شركات الأغذية لنكون أدوات استهلاكية لمنتجاتهم فقط .. امتناع الإنسان عن الطعام لأطول فترة خاصة بعد الاستيقاظ له فوائد صحية جمة ويمنح الجسم فرصة لترميم وإصلاح نفسه وتنظيفه من السموم المتراكمة لكن ما أن يبدأ بالأكل تتوقف هذه العملية وهذا سبب تدني الحالة الصحية للبشر في العصر الحديث بشكل عام وانتشار أمراض مثل ارتفاع ضغط الدم والسكري بشكل وبائي طال حتى الصغار.

.. ربما (عواد) محق أنا أتفلسف كثيراً ..

خلال تناولنا لتلك الوجبة الثقيلة والدسمة من أصناف البيض قال (عواد) وهو يمضغ لقمة كبيرة في فمه : لحيتك أطول مما أذكر بالأمس.. تبسمت وقلت : بالعادة أنا من يقول لك هذا الكلام وليس العكس.. يهيأ لك .. لحيتي كما هي

(عواد) : لا، أنا واثق ..

- ربما نَمَت .. ما المشكلة؟

(عواد) : لا يوجد شعر ينمو بتلك السرعة .. وأشعر كذلك بأن شكلك مختلف قليلاً

أجبته ممازحاً : ربما خسرت بعض الوزن

(عواد) : لا ليس هذا .. هناك شيء مختلف فيك ولا أستطيع وضع يدي عليه

- ماذا تريد أن تقول؟ .. أو بالأصح ماذا تريد مني أنا أن أقول؟

(عواد) : لا أعرف لكنْ هناك شيء مريب بك اليوم .. أنت لست الشخص نفسه الذي تنسوق معي بالأمس

- أنت لا يعجبك شيء يا (عواد) .. لو رفضت الخروج معك كنت ستستاء وحينما خرجت بصحبتك تقول بأني متغير .. هل هذا ما تتحمله زوجتك كل يوم؟ .. كان الله في عونها

(عواد) غامساً قطعة خبز في أحد الأطباق : حسناً .. حسناً .. انسَ الأمر

تبسمت وأكملت طعامي معه وسبب ابتسامي هو أن (عواد) لم يكن واهماً أو مخطئاً فهو بالفعل لم يقابلني بالأمس بل قابل ما يعرف بـ «المُندس» وهم نوع من الجن يستخدمون للسخرة .. يستعان بهم ليتشكلوا ويحلوا مكانك في غيابك أو حضور اجتماعات أنت لا ترغب في حضورها ومؤخراً هذا بدأ يحدث معي كثيراً ولم أعد أستطيع الوجود في كل مكان وانشغالاتي بدأت بالازدياد ووقتي شح وقل ومعظم تلك المهام روتيني ممل وبعد أن سئمت الخروج المتكرر بدأت أدرب مجموعة من البدائل المندسين ليحلوا مكاني في تلك المناسبات.

بالعادة تشكلهم يكون متقنًا شكلاً وسلوكاً لكن من وقت لآخر يحدث بعض الخلل والتفاوت في إجادة المحاكاة ولا ينتبه لذلك الا المقربون من الشخص الأصلي والذين يقابلونه بشكل يومي ومنتظم أما العابرون فلا يلحظون ذلك بسهولة.

ما دفعني لهذا هو أنه وبعد ما قررت عدم اللجوء للشياطين وطلاسمهم أبداً حصرت تعاملي مع الجن المسلم فقط وهذا لا يندرج تحت مسمى ممارسة الشعوذة لذا قطعت بعض العهود مع عددٍ من شيوخ قبائلهم للتسخير والاستعانة والحماية بمقابل، خاصة وأن اسمي معروف لديهم ولم تكن موافقتهم صعبة المنال.

ما قمت به تلك الفترة كان ضرورة مؤقتة حتى أستطيع التدرج في الخروج من عالمهم .. هذا لو استطعت.

قد يتساءل البعض عن كيف أني أشك بوجود (دجن) والرجل الأنيق وأنا أستعين بالجن وأتعامل معهم .. شكي هنا ليس بحقيقة وجود الشياطين ككينونات من عدمه بل حقيقة تعاملي معهم. ما أنا واثق ومتيقن منه هو تعاملي مع الجن لكن الشياطين هي التي ينتابني شك من وقت لآخر بأني أراهم وأتحدث معهم.

بمعنىً آخر .. الحقيقة وما أظنه خيالاً أو وهماً بدأا يختلطان عليّ..

على أي حال عهدي مع الجن هو فقط محصور على تسخير الخدم لي وفي

المقابل قدمت لهم ما يريدون .. ولن أفصح عن نوعية الطلبات التي يطلبها شيوخ قبائلهم لكنها في الغالب سهلة المنال والتوفير.

بعد ما انتهينا من الإفطار الثقيل رفع (عواد) السفرة وهم برمي ما تبقى من الخبز في القمامة لكني منعته واستوقفته قائلاً : لا ترمِ شيئاً ..

(عواد) : لماذا؟

أخذت الخبز وتركته بالخارج تحت الشمس وعدت وجلست بجانب (عواد) الذي سألني : ماذا تفعل؟

- رمي النعم جحود جالب للفقر .. الفقر الذي تشتكي منه دوماً

(عواد) : هل تعيّرني؟

- لا .. لكني حينما أحثك على الإنفاق تقول بأنك لا تملك شيئاً .. هذا الخبز الذي تريد رميه يمكنك تجفيفه وطحنه وإطعامه للطيور .. والحال نفسها مع الأرز وغيره .. هذا هو الإنفاق الذي أعنيه عندما أقول لك أنفق .. الصدقة لا تكون بالمال فقط

(عواد) : أنا الآن متيقن من أنك لست على طبيعتك .. بالأمس كل أحاديثك طبيعية واليوم عدت ..

قاطعته قائلاً : لطبيعتي ..

لم يتوقف (عواد) عن الحديث في هذه المسألة وكان مصرّاً على نقاش الموضوع والتحقيق معي عن سبب التباين بين سلوكي بالأمس

واليوم .. يبدو أن «المُندس» هذه المرة لم يتقن عمله ولم يحاكِ سلوكي بشكل جيد فأنا لا أستخدم جنياً واحداً بل أكثر من مسخر وقد يكون هذا الخادم أقل كفاءة ممن سبقوه. ولكي أشتت ذهن (عواد) وأجعله يحيد وينسى هذا النقاش اتبعت أسلوب الصدمة بالحقائق والتشكيك بالنفس فقلت : «كنت أظنك تكره الفواكه ..»

(عواد) : وما زلت .. لكن ما علاقة ذلك بحديثنا الآن؟

- لمَ إذاً لم تطلب من صاحب المطعم ألا يضع لك فاكهة في البيض؟

(عواد) : فاكهة؟ .. لم يكن به سوى قطع من الطماطم

- أعرف ..

(عواد) : وما دخل الطماطم بالفاكهة؟ .. الطماطم خضار .. وأنت من لا يحبها ولست أنا لذا طلبت منه ألا يضعها في طبقك فقط

- الطماطم فاكهة وليست خضاراً .. هل رأيت أنك تستعجل في الحكم على الأمور؟

سرح (عواد) أمامه متفكراً في الزوبعة الفكرية التي خلقتها له ثم قال : حقّاً؟

- نعم .. الطماطم تصنف من الفواكه .. لذلك يا (عواد) أغلب ما تراه وتظنه حقيقة هو مبني على المعطيات التي تؤمن بها أنت فقط وليس الحقيقة المطلقة .. أنت اتخذت قراراً مسبقاً بأنك لا تحب

الفواكه مع أنك تحب الطماطم جهلاً منك أن الطماطم تصنف كفاكهة وهذا ما جعل تصريحك الأصلي مغلوطاً وخاطئاً بالرغم من أنه قناعة ذاتيه خاصة بك .. هل فهمت؟

(عواد) وقد اكتمل ضياعه الذهني : حسناً .. هل هناك شاي؟

تبسمت وأنا أنهض : نعم .. سأحضر لك إبريقاً كاملاً كي تهضم ما تناولته للتو

بقيت مع (عواد) نتجاذب أطراف الحديث في موضوعات متفرقة تمحور جُلها عن حياته الزوجية والوظيفية وتذمره تارة وامتنانه لها تارة أخرى. فقد رزق في ذلك الوقت بأربعة أطفال، أكبرهم فتاة التحقت بالمرحلة الإعدادية مؤخراً وأصغرهم صبي رضيع في شهوره الأولى. وبالرغم من أنه كان يعمل في وظيفة حكومية إلا أنني لم أتوقف عن صرف مكافأة شهرية له بجانب راتبه لأني كنت أعرف أن ما يتلقاه لم يكن يكفيه ليعيش حياة كريمة وكنت أخبره بأن ذلك المبلغ هو مقابل معاونته لي في علاج الحالات التي كنت من الأساس غير متحمس لمباشرتها لكني استمررت كي لا يشعر بأني أتصدق عليه.

خلال حديثنا شاركت (عواد) الفكرة التي راودتني مؤخراً وقلت : «أعتقد أنه قد حان الوقت كي أجد منزلاً مستقلاً ..»

(عواد) : هل قررت الزواج أخيراً؟ .. يبدو أن حديثي عن الحياة الزوجية حمسك أن تهجر العزوبية

- تقصد تذمرك المستمر؟ .. لا .. ليس هذا سبب رغبتي بالانتقال

(عواد) : ماذا إذاً؟

- أعتقد أن مصدر قلق أهلي عليّ وبالذات أمي سببه وجودي معهم في المنزل نفسه .. لعل ابتعادي عنهم يدخل بعض الطمأنينة في قلوبهم حينما لا يرون مني ما يزعجهم .. ثم لنكن واقعيين .. لقد تجاوزت الثلاثين من العمر وحان الوقت أن أستقل بنفسي

(عواد) : هذا هو العذر الذي ستقدمه لأهلك لكني أريد الحقيقة

تبسمت وقلت : ستعرف لاحقاً ..

(عواد) : البيوت المعروضة للبيع أو الإيجار كثيرة .. جديدة ومستخدمة

- لا .. أريد بناءه بطريقتي ولا أظن أنني ساجد منزلاً جاهزاً بالتصميم نفسه الذي في ذهني ويهمني أن يُنجز بسرعة

(عواد) : سلمه لمؤسسة تعمير خاصة .. وإذا كنت تملك المال فلن يستغرق الأمر طويلاً

- المال ليس مشكلة ..

(عواد) : حسناً سأبدأ البحث من اليوم عن شركة يمكنها تحقيق طلبك

لم يمضِ شهر حتى تمكن (عواد) من إيجاد الشركة المناسبة ورتب لي مع بعض مهندسيها عدة اجتماعات شرحت فيها لهم التصميم والتصور في ذهني فيما يخص عدد وأحجام الغرف ورغبتي كذلك في وجود قبو عميق مهيأ بالكامل بجميع وسائل العيش كما لو كان جناحاً مستقلاً. تكلفة المنزل ارتفعت شيئاً فشيئاً مع كل إضافة أقدمها وأطلبها لكني لا أنكر أن احترافيتهم ودقتهم في تنفيذ كل طلباتي مهما كانت غريبة وغير مألوفة لهم نالتا إعجابي.

خلال أقل من أربعة أشهر ظهرت معالم البيت الذي كان في منطقة قريبة من حي أهلي وكنت أزوره من وقت لآخر لتفقد تطور وسير العمل فيه بعكس (عواد) الذي جعل من زيارة الموقع مهمة يومية ينهيها بتقرير يقدمه لي كل مساء.

(عواد) بعد جلوسه في المجلس معي مساء أحد الأيام : كل شيء يسير على ما يرام .. لكننا لم نجد نوعية الرخام الأسود الذي طلبته بعد

- من المهم أن تكون غرفتي مثلما طلبت

(عواد) : أعرف .. أعرف .. سوداء كالتابوت .. حتى أني قمت بطلب جهاز تكييف باللون الأسود بالرغم من ندرته وصعوبة الحصول عليه

- والجدران؟

(عواد) : ستُصْبغ قريباً بالكامل باللون الأسود والسقف كذلك لكننا ننتظر وصول براميل الطلاء

- جيد .. وأريدها كذلك أن تغلف بعوازل للصوت

(عواد) : هل تنوي إقامة حفلات صاخبة فيها؟

قلت متهكماً : وتكون أنت المنسق لتلك الحفلات؟ .. بالطبع لا .. لا أريد أي متلصص أن يسترق السمع خلسة

(عواد) لا داعي إذاً للطلاء الأسود فبعض العوازل سوداء

- اطلِ الغرفة ثم ركب العوازل

(عواد) : ولِمَ التبذير؟

- هل ستناقشني حقّاً؟

(عواد) : حسناً .. سأعمل على إنجاز ذلك

- وأنا سأذهب معك غداً لتفقد ما تم إنجازه حتى الآن

(عواد) : ماذا عن الغرف التي في الطابق الأرضي؟ .. هل نصبغها باللون ذاته؟

- لا يهم .. اختر أنت الألوان حسب ذوقك وحينما ينتقل إليها أصحابها يمكنهم تغييرها لو رغبوا

(عواد) باستغراب : أصحابها؟ . .هل تنوي تأجيرها؟

- ستكون مخصصة للتلاميذ ..

(عواد) باستغراب : تلاميذ؟ .. ظننتك تخليت عن فكرة نقل علمك؟

- أجلتها فقط .. وجزء من أسباب انتقالي هو أني لم أكن لأستطيع تعليم أحد وأنا لا أزال أقيم مع أهلي

(عواد) : هل يعني ذلك أنك تريد مني بدء البحث عن تلاميذ مجدداً؟

- لا .. لست مستعجلاً لهذا الحد .. سأتركه للأقدار

(عواد) ناهضاً وهو يهم بالرحيل : حسناً كما تشاء .. هل تريد مني شيئاً آخر؟

- فقط لا تنسَ أن تعرج بي غداً قبل ذهابك للموقع

(عواد) : حاضر

خرج (عواد) وبعد رحيله بدقائق توجهت خروجاً من المجلس وحينما فتحت الباب رأيت أمي تقف خلفه وعيناها محمرتان ولامعتان بالدموع فعلمت بأنها سمعت بعض ما دار بيني وبين (عواد).

(أمي) بغصة : متى كنت تنوي إخباري؟

- أخبرك بماذا يا أمي؟

(أمي) : لا تتغابَ .. لن أسمح لك بالانتقال وتركي

تبسمت واحتضنتها لتهدئة روعها قائلاً : ولِمَ لا؟

(أمي) وهي تفك عناقي وبنبرة مستاءة : أنت تقيم معنا وبالكاد أراك فماذا سيحدث لو انتقلت لمنزل آخر؟! .. ستختفي من حياتي تماماً!

أمسكت بمعصمها وسرت معها لوسط المجلس وأجلستها مقبلاً رأسها قائلاً : وأنا لن أخرج دون رضاكِ .. أخبريني ما الذي سيجعل خروجي أهون عليك

(أمي) : لا شيء سيهون عليّ هذا الأمر .. وهو لن يحدث!

- أخي خرج من المنزل ولم تجدي صعوبة في فراقه

(أمي) : أخوك له عذره فقد تزوج ويزورني بانتظام مع زوجته أما أنت فأنا أعرفك وأعرف أطباعك .. ستختفي بالأسابيع والأشهر عليّ دون أن تتصل أو تهتم

تبسمت وقلت : وإن وعدتك بألّا أغيب؟

(أمي) متأففة بعبوس وأعين دامعة : لا يكفي! .. ولست مقتنعة بصدقك!

جلست بجانبها واضعاً ذراعي حولها مقبلاً وجنتها : وما الذي سيقنعك؟

(أمي) : إن كنت تريد الخروج من هنا فلن تخرج إلا ومعك شريكة

- شريكة؟

(أمي) : نعم .. أن تتزوج .. مثل أخيك الأصغر .. فقط في هذه الحالة سأطمئن عليك وسأسمح لك بالخروج من منزلنا!

ضحكت وشعرت بشعور الفتاة التي يخشى عليها أهلها من الانحراف لو باتت وحدها خارج المنزل ومع ذلك تفهمت شعور أمي وقدمت لها الإجابة التي طال انتظارها لها وقلت : «حسناً يا أمي .. موافق ..»

(أمي) وهي مصدومة وغير مصدقة لما سمعت للتو : «هل أنت صادق في كلامك أم تجاري حديثي فقط ؟!»

قلت باسماً : نعم موافق لكن بشرط .. أن أختارها أنا

(أمي) : ولِمَ لا تكون من اختياري؟ .. لدي قائمة طويلة يمكنني ..

قاطعتها قائلاً : أمي .. من ستقيم معي يجب أن تكون متفهمة لطريقة وأسلوب حياتي وهذه الإنسانة لن أجدها في قائمتكِ مهما كانت طويلة ومتنوعة .. دعيني أخترْ من أرى أنها ملائمة لي وبعدها قومي أنتِ بتقييمها كما تشائين .. ما رأيكِ؟

(أمي) : هل تعدني بأنك لن تُقدم على الزواج دون علمي أو موافقتي؟

- لن أجرؤ .. لكن أمهليني بعض الوقت لأجدها

(أمي) : أمهلك عامًا واحدًا فقط .. وعاهدني على أنك إذا لم تتزوج بعد انقضائه بأنك ستعود للعيش معنا

عانقتها باسماً وقلت : سأبذل كل جهدي لتحقيق رغبتكِ ..

اللّبِنَة الأُولَى

في اليوم التالي حضر (عواد) في الصباح الباكر على موعده وتوجهت معه للمنزل شبه المكتمل وبعد ترجلنا من السيارة ودخولنا الطابق الأرضي جلت بنظري لثوانٍ متفحصاً مداخل الغرف والمرافق الأخرى بما فيها مدخل القبو وقلت : «كل شيء يبدو متقناً وكما أريد ..»

(عواد) : ماذا عن الطابق العلوي؟

- سيكون لي بالكامل

(عواد) : ألا ترى أن تصميم الطابق الأرضي أهدر المساحة

- ماذا تقصد؟

(عواد) : حسب طلبك لقد صممنا خمس غرف بدورات مياه مستقلة ومطبخ ومجلس كبير للضيوف أخذ معظم المساحة

- هذا ليس مجلساً للضيوف

(عواد) : ألن تستقبل ضيوفاً؟

- هناك مساحة كافية بالخارج .. ابنِ ملحقاً لهذا الغرض .. لا أريد استقبال أحد بالداخل إلا للحاجة أو الضرورة

(عواد) : حاضر كما تشاء .. بالمناسبة لقد تلقيت اتصالاً وأنا في الطريق إليك

- اتصالَ ماذا؟

(عواد) : لقد وصلت شحنة الرخام الأسود التي طلبتها وسوف نبدأ بتركيبها غداً

- جيد ..

(عواد) : كذلك الدهان الأسود لكننا لن نقوم بطلاء الغرف إلا لاحقاً

- هل تعرف أي الغرف التي أريدها مصمتة دون نوافذ؟

(عواد) : نعم .. غرفة نومك الرئيسة بالطابق العلوي والسرداب

- قبو وليس سرداباً ..

(عواد) : أيّاً كان .. في الحقيقة لا أفهم حاجتك له

- سيكون ذلك مكان عزلتي السنوية

(عواد) : العزلة التي ما زلت لا أفهمها ولا الغرض منها

وجهت نظري لـ (عواد) وقلت : وما الذي لا تفهمه فيها؟

(عواد) : انقطاعك وعُزْلاتك كثيرة على مدى العام لكن هذه العزلة بالذات لا أرتاح لها

تبسمت وقلت : لأنها في رمضان؟

(عواد) : نعم .. لِمَ تختار الشهر الفضيل بالذات لتختفي؟

- ألا يوجد من هم يعتكفون في المساجد خلال الفترة نفسها؟

(عواد) : في المساجد وليس السراديب

- لكل منا طريقته ..

(عواد) : إذًا لا تلمني لو أسأت الظن بك من وقتٍ لآخر بسبب بعض سلوكياتك التي لا أفهم المقصد أو الهدف منها

- نستطيع تقنين وتحسين ما نفعل أو ما نقول لكن من المستحيل أن نتحكم في فهم من يرانا أو يسمعنا .. وأنا لا ألومك على شيء عدا تعطيلي الآن بهذا النقاش

(عواد) : حسناً .. حسناً .. أنا خارج

- وأنا سأصعد للطابق العلوي لتفقده ..

(عواد) وهو يهم بالخروج لباحة المنزل : سأتحدث مع العمال قليلاً وسوف أتصل كذلك بالمهندس كي يصمم لك ذلك الملحق الذي طلبت

بعد خروجه هممت بالسير نحو السلم الإسمنتي غير المنتهي وسط المنزل وقبل أن تحط قدمي على أول سلمة سمعت (دجن) يحدثني من الخلف قائلاً : «وش ذا البيت المخيس؟»

قلت وأنا أصعد السلالم بخطوات بطيئة ونظري للأعلى : وما الذي لا يعجبك فيه؟

(دجن) من ورائي بعد ما تبعني : ضيق ومخنوق وكله دواعيس

تبسمت وأنا أضع قدمي على آخر سلمة : هل نسيت بيت (عمار)؟

(دجن) : بيت (عمار) أهون من ها الحوسة

قلت وأنا أجول بعيني من حولي متفحصاً ما تم إنجازه : في المرة القادمة سآخذ رأيك يا صاحب الذوق الرفيع

(دجن) : لازم .. لأن واضح أنك كنت تهبد وبس وأنت تصمم

تجاهلته وأكملت المعاينة ..

(دجن) : طيب وين غرفتي؟

وجهت نظري له وقلت : غرفتك؟

(دجن) : أي .. مو أنا بسكن معك؟

- (دجن) .. أنا لا أملك الوقت أو المزاج لتهريجك ومزاحك الآن

(دجن) : ومن قال لك إني أمزح؟ .. ترى حتى إحنا نحتاج أماكن نام فيها .. تفكرنا عيال شوارع ما نسكن إلا بالخلا؟ .. ما تسمع عن البيوت المسكونة؟

- أعرف أن بعض الكينونات تفضل البقاء داخل البيوت المشيدة لكن ..

(دجن) بشيء من السخط : لكن إيش؟! .. والا تبيني أنام بالمطبخ؟! .. لا شريك أنام بالحمام .. مو هذا مكاننّا؟!

- ما بك؟ .. لم أنت ثائر هكذا؟

(دجن) : مدري أحسك مو زي أول .. تغيرت

قلت متهكماً : تغيرت؟ .. كيف؟

(دجن) آخذًا بضع خطواتٍ للأمام ملوحاً بكفيه للأعلى تارة ومشيرًا بهما لمدخل جناحي تارة أخرى قائلاً : باني بيت طويل عريض مليان غرف وسراديب .. وتقول لـ (عواد) ليه ما تجيب بنات .. و

مقاطعاً : مهلاً! مهلاً! .. عن ماذا تتحدث أيها الاحمق؟!

(دجن) : لا تستعبط عليّ .. محد فاهمك مثلي!

كظمت غيظي واستجمعت عقلي مدركاً أني أتحدث مع وهم من نسج خيالي وقلت : ماذا تريد الآن؟

(دجن) بنبرة مشبعة بالزهو والانتصار : أبي غرفة ..

أشرت بسبابتي للطابق السفلي وقلت : هنالك خمس غرف بالأسفل.. اختر أي واحدة تشاء بشرط ألا تزعجني عندما أكون مع أحد فلست وحدك من سيقيم هنا

(دجن) : ناوي تسوي حفلات بعد

زفرت ولم أجب عليه ..

(دجن) : ترى عادي أقدر أتشكل وأصير معكم

- .. (دجن) اصمت أرجوك ..

(دجن) : طيب خلاص يا حساس أنا بروح أشوف غرفتي وقل لخويك ما يصبغها أسود مثلك .. ماني ناقص كتمة زيادة

نزل (دجن) من السلالم ليصعد بعده مباشرة (عواد) وعلى وجهه نظرة تساؤل وهو يقول : مع من كنت تتحدث؟

- كنت على الهاتف .. هل انتهينا؟ .. أريد الرحيل

(عواد) : يومي لم يبدأ بعد .. يجب أن أنتظر شحنة الرخام والدهان

- أعدني للمنزل ثم عد إلى هنا

(عواد) : حسناً هيا بنا ..

بعد مضي أشهر قليلة اكتمل المنزل وأصبح جاهزاً للسكنى بعد أن تم تأثيثه بالكامل ولم يتبقَّ سوى نقل بعض متعلقاتي الشخصية من غرفتي بمنزل أهلي الذي قضيت فيه معظم عمري وحرصاً مني على مشاعر أمي وأبي تدرجت بالانتقال وأصبحت أبات يوماً في المنزل الجديد وآخرَ مع أهلي وشيئاً فشيئاً بدأت أزيد المدة حتى لا يشعروا بابتعادي عنهم فجأة. وخلال تلك الفترة كنت كذلك أنقل بعض حاجياتي

بالتدرج نفسه وفي أحد الأيام وتحديداً وأنا أنقل بعض كتبي لفت نظر (عواد) الذي كان يساعدني في حملها صندوقٌ كبيرٌ سحبته من إحدى زوايا غرفتي وقال : ما هذا الصندوق؟

لم أجبه وفتحته أمامه كاشفاً عن خمسة كتب متهالكة قام هو بالتقاط أحدها وتقليبه بيده مكرراً سؤاله : ألم ننتهِ من نقل مكتبتك الأسبوع الفائت؟

- بلى

(عواد) : ما هذه الكتب إذاً؟

أجبته بكل برود : كتب سحر ..

انتفض (عواد) رامياً بالكتاب على الأرض قائلاً بخليط من التوتر والسخط : أعوذ بالله! .. أعوذ بالله! ..كيف تحتفظ بهذا الرجس وتنام معها في الغرفة نفسها؟!

تبسمت وقلت : أنام معها؟

(عواد) وعيناه على محتوى الصندوق من الكتب المهترئة : لَم لم ترمِها أو تتخلص منها؟

- بالرغم من كل الشرور والفساد بداخلها إلا أن هناك بعض السطور المفيدة التي يمكن إخراجها من ذلك المستنقع اللزج

(عواد) : عندما يكون الضرر أكثر من المنفعة يفقد الشيء ضرورته وحاجته ومن الأولى تركه وتجنبه

- في كل الأحوال لا يمكنني ذلك حتى وإن رغبت فالتخلص منها لا يتم إلا بموتي وهي بحوزتي أو بتوريثها لأحمقَ مثلي يرضى بأخذها طواعية

(عواد) : ولِمَ يجب أن تورثها لأحد؟

- لأنه سيصاب باللعنة نفسها التي أصبت بها يوم أخذت الكتاب من قريبي العجوز وتدمرت حياتي بعدها

(عواد) : ماذا عن حرقها؟

- هذا لن يفيد أيضاً لأن ذلك سيفتح باباً أشد فتكاً من علومها الفاسدة المدونة على صفحاتها .. كل كتاب ربط به حرس من الجن والشياطين الموكلين بحمايته من العبث ولو أحرقته كما تقول فسوف أجد نفسي في معركة معهم وهؤلاء يقف خلفهم قبائل وأي عبث بالكتب التي أوكلوا بحمايتها ستدفعهم للاقتصاص من الفاعل وأهله وذريتهم لأجيال قادمة وأنا لا أملك الجرأة للمخاطرة

(عواد) : والدفن؟

- الدفن لا يفيد مع هذه الكتب فأنا بالنسبة لحراسها القائم البشري عليها ولن يسمحوا لي بالتخلي عنها

(عواد) : وكيف وقعت هذه الكتب النجسة بين يديك؟

- أهداها لي (عمار) قبل رحيلي عن منزله أول مرة بالرغم من أني قرأتها سابقاً في مكتبته لكنه وكما قال: «إذا كنت لن تستخدمها فاعتبرها ذكرى مني..» وأنا بكل غباء قبلتها مجاملة له لأني أردت الرحيل بسرعة بعد السنوات الثلاث التي قضيتها محبوساً عنده ولم أفكر بأي تبعات قد تلحقني بسبب قبولها

(عواد) : وهل تنوي نقل هذه اللعنة كما تسميها لتلاميذك؟ .. ألهذا تريد مني أن أجلب لك ضحايا تلصق بهم لعنتك؟

- (عواد) .. قم بتأجيل هذا التحقيق إلى أن ننتهي من النقل

(عواد) : أنا لن أمس هذه النجاسة

قلت وأنا أرمي عليه حقيبة : انقل هذه إذاً..

(عواد) محتضناً الحقيبة التي ارتطمت بصدره : أخبرني قبلها على ماذا تحتوي!

أجبته وأنا أحمل الكتب وأضعها في كيس بلاستيكي كبير : ملابسي الداخلية .. هل لديك مشكلة في نقلها أيضاً؟

(عواد) حاملاً الحقيبة بوجه متجهم وهو يهم بالخروج : لا .. فهذه النجاسة أهون من تلك

اكتملت عملية النقل ولم يتبقَّ في غرفتي القديمة سوى فراشي الأرضي وأثاثي وبعض كتبي التي آثرت إبقاءها في حال قررت قضاء ليلة أو أكثر في منزل أهلي ولم أفرغها إلا من حاجياتي وملابسي ومجموعتي الخاصة من الكتب. مع مرور الأيام ومبيتي أكثر في منزلي الجديد وقضاء فترات أطول فيه انتابني شعور بالراحة والاستقرار فعزلتي السابقة لم تكن مكتملة وتزداد اكتمالاً حينما يرحل (عواد) آخر النهار وأبقى وحيدًا في ذلك المنزل الواسع. كانت أوقاتاً ظن الكثير أنها مملة وشاقة لكنها بالنسبة لي أجمل من أي وقت مضى قضيته في حياتي.

بالطبع لم يتركني خيال (دجن) أستمتع بتلك العزلة دائماً وكان يظهر لي من وقت لآخر ويختلق معي موضوعات جانبية أو يفتعل نقاشات وجدالات فارغة ولم أكن أستاء كثيراً فلربما هذه كانت طريقة عقلي للتعامل مع عزلتي وإحساسي الميت غالباً.

لم ينقطع (عواد) عن عادة المرور بي كل صباح محملاً بالأكياس لتناول الإفطار معه فهو يعلم مسبقاً أني لا أنام كثيراً وحينما أرغب بالراحة أقوم بتشبيط هالتي المفعلة بأحد خواتمي وأدخل فيما يشبه الغيبوبة التي قد تمتد لساعات طويلة لكني لا أقوم بذلك إلا مرة في الشهر أو مرتين كحد أقصى أو إذا بذلت مجهوداً غير اعتيادي استنزفني لسبب ما.

تلقيت اتصالاً مبكراً من (عواد) صباح أحد الأيام لكنه هذه المرة طلب مني النزول للذهاب لمكان ما لتناول الإفطار. قلت وأنا ممسك بهاتفي بيد وباليد الأخرى أقلب صفحات كتاب في حجري : «عادة الإفطار اليومي هذه بدأت تزعجني يا (عواد) ..»

(عواد) : صدقني هذا المكان سيعجبك ..

- لمَ لا تحضر الطعام هنا كالعادة بدل أن تجعلني أخرج في هذا الوقت الباكر؟ .. أنا حتى لم أكمل قهوتي الصباحية

(عواد) : لا .. تناول الطعام في المكان نفسه له رونق مختلف

زفرت متأففاً وقلت : حسناً .. سأفسد صباحي لنرى هذا الرونق الذي تتحدث عنه

كنت حقيقة يومها لا أريد الخروج وفكرت بإرسال «مُندس» ليرافقه لكن لعلمي المسبق بأن الجن المحاكي يجد صعوبة في التظاهر بالأكل والشرب قررت ألا أفعل كي لا أدخل في نقاش مطول آخر مع (عواد). ركبت السيارة وأغلقت الباب قائلاً :

«لمَ لا تأخذ زوجتك معك لمثل هذه المشاوير؟»

(عواد) وهو يقود السيارة مبتعداً عن المنزل : لأنها تسهر وتنام لوقتٍ متأخر وأنا عكسها تماماً

- وما ذنبي أنا؟

(عواد) باسماً : صدقني ستشكرني حينما تتذوق شطائر هذا المطعم

- بيض أيضاً؟

(عواد) : وأنواع أخرى .. لكن البيض هو أفضل ما يتقن منها

- علاقتك بالبيض تستحق البحث والدراسة

لاحظت أن (عواد) يقود بسرعة على غير عادته فقلت متسائلاً : ما بك؟ .. هدئ قليلاً .. البيض لن يفقس ويطير

(عواد) دون أن يخفف من سرعته : لا أريد أن نتأخر فالمطعم يزدحم في وقت قصير وقد لا نجد طاولة شاغرة

- يزدحم؟

(عواد) : نعم .. المكان يكتظ بالناس من الساعات الباكرة صباحاً وهذا ما يجعل تجربة الأكل فيه أكثر متعة

هنا بدأت أتحسس أصابع يدي سارحاً أمامي بقلق ..

لاحظ (عواد) ذلك وقال : ما بك؟

- نسيت أن ألبس خاتمي

(عواد) ضاحكاً : نحن ذاهبون لتناول الإفطار وليس لحضور مناسبة

لم يفهم (عواد) مقصدي وسبب قلقي فمنذ أن فعل (عمار) هالتي وأنا لا أستطيع الوجود في أماكن التجمعات المزدحمة لأني قد أصادف هالة

نجمية تدخلني في حالة مزرية ومع بحثي في هذا الأمر وجدت أن بعض الأحجار والمعادن حينما تدمج معاً تعطي مزايا روحانية متعددة من ضمنها توفير نوع من الحاجز المانع والمشتت لتأثير تلك الطاقة الوهاجة وتخفف من أثرها عليّ بشكل كبير وتجعلني مسيطراً على نفسي أكثر.

لذا وعلى مر السنين جمعت وصغت مجموعة من الخواتم بمعادن وأحجار مختلفة لعدة أغراض من ضمنها نبذ تأثير طاقة الهالات النجمية وخروجي دون أحد تلك الخواتم كان مخاطرة.

الوِعاء المَشْروخ

وصلنا للمنطقة التي يقع فيها المطعم وكان من الواضح ومن قبل أن نصل إليه أنه سيكون مزدحمًا لأن الشارع الذي دخلناه كان كالسوق وانتشرت به المحلات بكافة أنواعها على جانبيه فقلت لـ (عواد) : «انسَ فكرة أن أنزل معك ..»

(عواد) وهو يركن السيارة عند طرف الشارع : لماذا؟ .. المطعم قريب ولن نمشي مسافة طويلة؟

- مستحيل أن أخاطر

(عواد) ممازحاً : تخاطر بماذا؟ .. لا تقلق لن تصاب بالتسمم

فتحت النافذة وقلت : أحضر الطعام معك ولنعد به للبيت

(عواد) : لكني سأتأخر عليك .. فالطلبات الخارجية تأخذ وقتًا أطول لتجهز

- اترك محرك السيارة يعمل فقط وخذ كل الوقت الذي تريد ..

(عواد) وهو يهم بالنزول : حسناً كما تشاء لكنك ستفوت عليك متعة الأجواء المزدحمة ..

قلت وأنا أشير لمحل يبيع البوظة : إن كنت تريد حقّاً الاستمتاع فاجلب لنا بعضَ البوظة من ذلك المحل

(عواد) ناظراً للمحل وبنبرة متعالية : لم أعد طفلاً كي أتناول المثلجات

تبسمت وقلت : اختلاف وتغير اهتماماتك وتفضيلاتك اليوم لا يستلزم بالضرورة تنكرك وانقلابك على ما كنت تُحبه وتستمتع به بالأمس ..

(عواد) : على أي حال ماذا تريد أن أحضر لك من مطعمنا؟

- أي شيء عدا البيض .. وأحضر لي ماء

(عواد) : ألا تريد مشروباً غازيّاً؟

- ماء فقط يا (عواد) ..

نزل (عواد) وسار مبتعداً نحو المطعم المنشود وخلال مراقبتي له تحدث (دجن) من المقعد الخلفي قائلاً : أخبرك تحب البيض .. ليه قلت له ما تبي

أجبته دون أن ألتفت إليه متأملاً المتاجر حولي : تجربة الأشياء الجديدة لها منافع مدفونة

(دجن) : ومخاطر مجهولة ..

- نعم .. أتفق

(دجن) متهكماً : على طاري الأكل .. ما ولهت على هريسة (عمار)؟

أجبته ونظري يجول بين المحلات المزدحمة : لا هي ولا أنت ..

(دجن) : ليه أنا موجود هنا أجل ..؟

قلت وأنا ألمح صيدلية ضمن المحلات التي تأملتها : لأنك من صنع عقلي .. ربما حتى من البداية ..

(دجن) ضاحكاً : أي صح!

- الجن والسحرة الذين قابلتهم واحتككت بهم وتعاملت معهم حقيقة لا جدال في ذلك .. لكن الشياطين ..

(دجن) : حبيبي .. أنا موجود .. أقصد كنت موجود وجزء من حياتك .. مثل ما كانت (جند) و(جسار) وكل الشياطين اللي شفتهم وقابلتهم لا تحاول تقنع نفسك بأننا كنا وهم

- ماذا عن «الرجل الأنيق»؟

(دجن) : أنيق؟ .. من هذا؟ .. ما أعرفه

- متيقن؟

(دجن) : أي متيقن .. ما أعرف إلا ناس مبهدلة مثلك

كنت أتحدث مع (دجن) بلساني لكن ذهني انشغل بشخص لفت نظري بين الحشود .. شاب في أواخر العشرين من عمره يلبس لباس رجل أمن خاص وقف ينظم الازدحام أمام أحد المحلات الذي تجمع الناس حوله بالعشرات. شدتني ملامح وجهه المشبعة بالضيق .. هالته القوية .. تبسمه للناس مجاملة وعبوسه مع نفسه .. وما لفت نظري

حقّاً هو أنه فجأة ترك ما كان يقوم به ووجه اهتمامه لقطة مسحت بجسدها على ساقه قام برفعها والطبطبة عليها والسير بها لمحل بقالة تاركاً عمله والناس خلفه ليشتري لها بعض الطعام.

نزلت من السيارة بعد ما أغلقت المحرك والأبواب وتوجهت للشاب الذي وقف يراقب القطة تتناول محتوى علبة تونة أفرغها لها على قارعة الطريق وحينما أصبحت أمامه قلت : ألن تعود لعملك؟

رفع الشاب نظره نحوي وتأملني لثوانٍ ثم قال : من المفترض أن أقول أن لا دخل لك بما أفعل أو لا أفعل لكن...

- لكن ماذا؟

(الشاب) : هناك شيء غريب في نظرتك لي .. من أنت؟

- أنا فقط أريد معرفة لمَ ساعدت هذه القطة

(الشاب) : لأنها تحتاج المساعدة

- هناك الكثير من القطط في الشارع لمَ اخترتها هي بالذات؟

(الشاب) : لأنها لجأت لي ولا أستطيع تجاهلها

- إذاً فأنت لا ترد من يطلب مساعدتك حتى لو كان ذلك سيلحق بك الضرر ..

(الشاب) : عن أي ضرر تتحدث؟

في تلك اللحظة قوطع حوارنا حينما اقترب منا رجل مهرولاً بوجه عابس وصرخ في الشاب قائلاً : «كيف تترك مكانك؟! ؟؟ من سمح لك بأخذ استراحة؟! .. ألا ترى الزحام؟!»

(الشاب) : الزحام موجود كل يوم فما الجديد؟

تجهم الرجل والذي اتضح أنه مدير الشاب أو صاحب المحل وقال بعبوس : الجديد هو أنك مفصول!

نزل الشاب متقرفصاً ومسح على رأس القطة قائلاً بهدوء وبلا اكتراث : شكراً ..

(المدير) : تشكرني على ماذا يا أحمق؟! .. ألا تسمع؟! .. أنت مفصول؟!

نهض الشاب وحدق بحدة في مديره السابق وقال : وأنت تريد مني التوسل أو أن أتحسر وأحزن؟ .. هذا لن يحدث .. عد لمحلك قبل أن أعطيك شيئاً يستحق التحسر عليه

تغيرت ملامح المدير وقال قبل أن يعود أدراجه : أنت مختل عقليّاً ولا مكان لك بين الناس الطبيعيين!

وجهت نظري وحديثي للشاب الذي نزل متقرفصاً مرة أخرى ماسحاً على ظهر القطة وقلت : لَمَ لا تزال تعمل هنا وأنت تشعر بكل هذا الضيق؟

تحدث الشاب مع نفسه ونظره على القطة : كل هذا لأني أطعمت قطة؟

- لمَ أنت متعجب؟

(الشاب) وهو لا يزال سارحاً بالقطة : متعجب من عقله الذي لا يستطيع رؤية أن تصرفي طبيعي جدّاً

- لا تتوقع مِن مشوه الفكر أن يتقبل فكرة سوية ولا مِمَّن نشأ وتربى على التناقض أن يستسيغ الحياة الطبيعية .. كثرة المسوخ تجعلهم يظنون أنهم طبيعيون ومن يختلف عنهم يستحق النبذ والإبعاد

اكتفى الشاب بالصمت وبدا الحزن على وجهه فتداركت الأمر وقلت : «ما رأيك بأن تصبح تلميذاً عندي ..؟»

(الشاب) ناظراً لي بوجه مشوش : تلميذك؟

- لنعد لموضوعنا ..

(الشاب) متظاهراً بعدم سماع آخر سؤال وجهته له قائلاً : أي موضوع؟

تبسمت وقلت : موضوع القطة .. لمَ ساعدتها؟

(الشاب) بوجه متعجب من سؤالي خلال نهوضه مجدداً : ولمَ أنت مهتم بها؟

- أنا مهتم بك أنت .. أجبني فقط كرماً لا أمراً

(الشاب) : لا أعرف .. أحاول القيام بما أستطيع لمساعدة أي أحد سواء قطة أو غيرها ..

- وماذا تستفيد؟ .. ما هو المردود الذي يعود عليك من تقديم المساعدة؟

(الشاب) : في الحقيقة لم أفكر بالأمر كخدمة بمقابل .. لكنْ هناك شعور ينتابني عندما أقدم العون والمساعدة .. شعور بالارتياح .. أحياناً أرى أن من يسمحون لي بمساعدتهم هم من يساعدونني وليس العكس .. كون حياتي لا تسير حسب ما أريد وأتمنى فهذا لا يعني ألّا أساهم في صنع حياة أفضل لغيري .. هل تفهم ما أقصد؟

- أفهم تماماً ما تعنيه ..

(الشاب) : لكن لِمَ تسأل؟

- مجرد تساؤل .. للتحقق

(الشاب) : من ماذا؟

- مما أنا متيقن منه يا (ماجد) ..

(ماجد) بعجب شديد خالطه بعض التوتر : كيف عرفت اسمي؟ .. هل كنت تراقبني؟

- لا أبداً .. لقد عرفت اسمك للتو فقط

(ماجد) : كيف؟

- منذ متى وهو محرر؟ .. ومن حرره؟

(ماجد) : تقصد القط .. لا أعرف .. هو موجود منذ أيام مع مجموعة أخرى من القطط الشاردة .. هل أنت صاحبه؟

مددت يدي بكف مفتوحة وقلت : أعطني هاتفك

(ماجد) : لماذا؟

- لا تقلق لن أسرقه

(ماجد) مخرجاً هاتفه المحمول من جيبه مادّاً إياه لي : لم أقصد .. لكن ..

أدخلت رمز الأمان في هاتفه واتصلت على هاتفي الذي تركته بالمنزل ثم أعدته له وقلت : هذا رقمي الخاص ..

(ماجد) آخذاً هاتفه بانبهار : وتعرف رمز أمان هاتفي كذلك ..؟ .. من أنت؟

- أنا من يقدم لك فرصة لتغيير حياتك .. ليس بالضرورة للأحسن .. لكنها ستتغير بلا شك .

(ماجد) : ولِمَ أريد تغييرها؟

- لأن هذه ليست حياتك .. وأنت تستحق فرصة أفضل ..

(ماجد) : ظروفي قاسية وكلما حاولت تغييرها تعقدت حياتي أكثر ..

- التغلب على الظروف القاسية لا يكون بمحاولة تغييرها أو التحكم بها فهذا أمر لن تقدر عليه غالباً وسيستنزف منك الكثير

لكن ما يمكنك فعله هو تغيير طريقة تعاملك معها وبذلك ستتمكن من تجاوزها بأقل خسائر ممكنة.

(ماجد) : وكيف أقوم بذلك؟

- فكر بعرضي .. اعتبره عرض عمل وأنا مجرد شخص يريد توظيفك .. اتصل بي حينما تريد سماعه

(ماجد) : وإذا لم أجد أن عرضك هذا مغرٍ أو يستحق حتى سماعه؟

- في النهاية هذا شأنك وقرارك لكن تذكر أن مسببات ضياع الفرص الثمينة على الإنسان كثيرة لكني لم أجد شيئاً أشد وأكثر تأثيراً من الغطرسة

تركت الشاب المشوش مما سمع وشاهد وسرت عائداً لأجد (عواد) يقف ينتظرني بجانب السيارة وكيس الطعام مستقر فوق سقفها ومن الواضح أنه مستاء.

(عواد) بعبوس : عوداً حميداً!

فتحت السيارة عن بعد بالمفتاح وقلت باسماً : هل تأخرت عليك؟

(عواد) آخذاً المفتاح من يدي : لا أبداً كنت مستمتعاً بالوقوف تحت حر الشمس

ركبت السيارة قائلاً : لا تبالغ .. ما زلنا في أول الصباح

(عواد) حاملاً الكيس متوجهاً لمقعد السائق : ألم تقل بأنك لا تريد

النزول في الزحام؟! .. لمَ كنت تقف بالقرب من ذلك المحل المكتظ بالناس؟

قلت وأنا أغلق الباب مسنداً ظهري للمقعد سارحاً أمامي بوجه مبتهج : أعتقد أني وجدته ..

(عواد) مغلقاً الباب هو الآخر : وجدت من؟

- تلميذي الأول ..

(عواد) : كنت أظن أني أنا تلميذك الأول

- سيكون الأول مكرراً إذاً

(عواد) : ولمَ لا يكون الثاني؟ .. لا تعقد الأمور .. ثم على أي أساس اخترته؟

- أنا لم أخترْه بعد لكنْ هناك شيء غريب ومميز به في الوقت ذاته

(عواد) : مثل ماذا؟

- قرينه محرر وهو لا يعلم بذلك .. وقرينه مؤمن كذلك وهذا ما زاد الأمر غرابة فهو لا يبدو متديناً ليتأثر به

(عواد) : وهل هذا ممكن؟ .. أقصد أن يتحرر القرين دون علم صاحبه

- نظريّاً مستحيل .. لكن ..

(عواد) : لكن ماذا؟

- هناك حالات نادرة جدّاً لا أعتقد أن أيّاً منها تنطبق عليه

(عواد) : وهل اخترته فقط لأن قرينه محرر؟

- لا .. حديثي القصير معه شدني لطريقة تفكيره وأريد أن أتحدث معه أكثر

(عواد) : لَم لم تدعُه لمرافقتنا إذاً؟

- يجب أن يتخذ هو القرار عن قناعة وبعدها سنرى .. عد بنا للمنزل قبل أن يبرد بيضك

(عواد) بتجهم وهو يدير المحرك : لقد نفد البيض وأحضرت شطائر أخرى

ضحكت وقلت : ألهذا أنت مستاء؟

(دجن) من المقعد الخلفي : البيض عشق وش عرفك أنت؟

عدنا للمنزل ومضت بضعة أسابيع على لقائي الأول بـ (ماجد) ولم يتصل أو يتواصل معي مطلقاً فتبادر لذهني أنه لم يجد في عرضي له ما يغريه ولعله عاد واعتذر من مديره واستعاد وظيفته بالرغم من أني لم أرَ في شخصيته من خلال حديثي القصير معه أنه من ذلك النوع المتنازل.

خالف (ماجد) ظني بعد مضي ما يقارب الأشهر الثلاثة وتواصل معي هاتفيّاً في وقت متأخر من الليل .. أجبت على اتصاله وقلت : «وقت غريب للاتصال ..»

ارتبك (ماجد) واستوعب أنه بالفعل لم يحسن اختيار وقت الاتصال وقال بنبرة متوترة : أعتذر .. لم أدرك أن الوقت غير مناسب لأني بالعادة ..

قاطعته قائلاً : لا تنام كثيراً وتجد صعوبة في الدخول للنوم

(ماجد) : نعم صحيح .. طبيبي النفسي أخبرني بأني أعاني من فرط في التفكير وهذا هو السبب .. الدواء الذي يصفه لي يساعدني أحياناً

- تقصد المخدر ..

(ماجد) : هو مهدئ كما ..

قاطعته مجدداً وقلت : كما أخبرك الطبيب ..

(ماجد) : نعم

صمت وتركت المجال له ليتكلم لكنني لم أسمع منه سوى بعض الأنفاس تبعها بقول : على أي حال أكرر اعتذاري لإزعاجك .. سوف أتصل بك غداً في الصباح إذا كان ذلك يناسبك

- الوقت الآن هو أنسب وقت .. سأرسل لك موقع منزلي وسأكون بانتظارك

(ماجد) : لا لا .. لا أريد أن أكون فظاً فلا بد أنه وقت نومك

- أنا مثلك .. لا أنام كثيراً .. سوف أعد قهوة ريثما تصل .. ستجد باب المنزل مفتوحاً .. ادخل وتوجه للملحق على يمينك .. سأكون بانتظارك هناك

أغلقت الخط وقمت بإعداد قدحين من القهوة والجلوس في الملحق بعد ما أشعلت ناراً في المدفأة فقد دخلنا فصل الشتاء وبقيت أحتسي قهوتي بهدوء حتى سمعت الباب الرئيس يُغلق فعلمت بوصوله. طرق (ماجد) باب الملحق بالرغم من أنه لم يكن مغلقاً فقلت له : تفضل ..

دخل الشاب المتوتر وجلس أمامي على كرسي هزاز كنت قد اقتنيته مع أثاث المنزل الجديد وأشرت له بتناول قهوته ففعل وعيناه تحومان حول الملحق ذي الجدران الحجرية وقال : مكان جميل ..

باغته بسؤال وقلت : هل تؤمن بالجن؟

ارتبك (ماجد) من السؤال ووضع قدح القهوة على الطاولة أمامه ولم يجب واكتفى بالتحديق بي فقلت : ما بك؟ .. ألم تعجبك القهوة؟

أجاب (ماجد) علي وكأني لم أسأله عن شيء وقال : أنا مهتم بالعمل الذي عرضته عليّ لكن لا بد أن أعرف نوعيته قبل أن أوافق

- كم كنت تتقاضى في عملك السابق؟

(ماجد) : ما كان يكفيني

- ما رأيك فيمن يقول إن المال ليس مصدراً للسعادة؟

(ماجد) : المال قد لا يكون المصدر الوحيد لها لكن هذا لا يعني أنه لا يقيك من التعاسة ..

- إجابة جيدة .. هل أنت متزوج أو تعيل عائلة؟

(ماجد) : لا وإلا لما قلت لك إن راتبي السابق كان يكفيني

- وما هو تعريفك للكفاية؟

(ماجد) : أن أوفر مأكلي ومشربي وسكني و ..

قاطعته قائلاً : سأضاعفه لك

(ماجد) : لكن مقابل ماذا؟

- مقابل أن تعمل عندي

(ماجد) : أقصد في ماذا تحديداً؟

- هل يهم؟

(ماجد) : بالتأكيد يهم .. هل هو عمل «مشروع»؟

تبسمت وقلت : يعتمد على تعريفك لكلمة «مشروع»

(ماجد) : تعريفي هو التعريف المعروف .. ألا يخالف القانون على أقل تقدير

- ماذا لو خالف معتقداتك الخاصة؟

(ماجد) : هي قانون كذلك

- أنا أتبع قوانيني الخاصة لأن العالم الذي أعمل فيه مختلف .. عالم يسير على نهج ومنهج مغايرين تماماً لما أنت نألفه

(ماجد) : لن أعطيك موافقة قبل أن أفهم

(ماجد) : لا وإلا لما قلت لك إن راتبي السابق كان يكفيني

- وما هو تعريفك للكفاية؟

(ماجد) : أن أوفر مأكلي ومشربي وسكني و ..

قاطعته قائلاً : سأضاعفه لك

(ماجد) : لكن مقابل ماذا؟

- مقابل أن تعمل عندي

(ماجد) : أقصد في ماذا تحديداً؟

- هل يهم؟

(ماجد) : بالتأكيد يهم .. هل هو عمل «مشروع»؟

تبسمت وقلت : يعتمد على تعريفك لكلمة «مشروع»

(ماجد) : تعريفي هو التعريف المعروف .. ألا يخالف القانون على أقل تقدير

- ماذا لو خالف معتقداتك الخاصة؟

(ماجد) : هي قانون كذلك

- أنا أتبع قوانيني الخاصة لأن العالم الذي أعمل فيه مختلف .. عالم يسير على نهج ومنهج مغايرين تماماً لما أنت نألفه

(ماجد) : لن أعطيك موافقة قبل أن أفهم

- ما رأيك أن ترى بنفسك وبعدها تقرر؟

(ماجد) : أرى ماذا؟

- هل تعاملت بالسحر من قبل؟

(ماجد) : سحر؟ .. هل أنت ساحر؟

- حاول أن تجيب فقط ولا تسأل كي لا نطيل الحديث ..

(ماجد) : لا لم أتعامل مع سحرة من قبل

- ولا مشعوذين؟

(ماجد) : وما الفرق؟

- هل عملت مع معالجين روحانيين؟

(ماجد) : ما هذه الأسئلة الغريبة .. أفصح عما تريد دون لف أو دوران .. ثم لِمَ تحدق بي هكذا وتتفحصني بأعينك؟

- قرينك مؤمن وهذا شيء نادر .. هل أنت متدين؟

(ماجد) : لا

- غريب .. في العادة الأقران يتأثرون بأصحابهم .. عدم محاولته الهرب بعد تحرره وبقاؤه معك أمر مثير للاهتمام ... أريد التحدث معه

(ماجد) : مع من؟

- مع (دجام) .. قرينك

(ماجد) : قرين ماذا؟ .. عن ماذا تتحدث؟ .. ثم لَم تستأذنني وكأني أملك خياراً؟

- لأنه قد لا يتجاوب معي دون موافقتك .. هو ليس كافراً لأسخره أو أقايضه

(ماجد) : لا أفهم شيئاً مما تقول لكني سأجاريك وأسمح لك بالحديث معه

حينها أغمضت عينيّ وصمت لعدة دقائق ثم قلت : فهمت ..

(ماجد) بتهكم : هل تحدثتما؟

- هو تحدث ..

(ماجد) : في ماذا؟

- بعض ما أريد معرفته لكنه لم يفصح عن سبب تحرره وهذا أمر متوقع

(ماجد) : وماذا عرفت؟

- أنك تملك مؤهلات علمية أكبر بكثير من العمل الذي كنت تزاوله

(ماجد) : الحاجة أحياناً تحرمنا حق الاختيار

- وماذا كنت ستختار لو ملكت ذلك الحق؟

(ماجد) : أن أعمل في مجال تخصصي على الأقل

- حتى وإن كنت تعيساً في عملك؟

(ماجد) : الرجال يعملون كي ينجزوا وليس كي يستمتعوا

- إجابة جيدة ..

(ماجد) بنبرة خالطها التشكيك والتهكم في أن مصدر معلوماتي هو قرينه : وماذا أخبرك عني أيضاً؟

- أنك تعاني من مرض صدري مزمن ؟

(ماجد) وشكه يتحول لتوتر : من أخبرك بذلك؟

- قرينك .. حاول أن تستوعب ما يحدث كي لا تتيه .. كم أمضيت من عمرك تبحث عن علاج؟

(ماجد) : سنوات طويلة

- وهل استفدت؟

(ماجد) : لا .. أخبروني أنها حالة مزمنة ويجب عليّ التأقلم معها

- كل داء وله دواء .. قبل رحيلك اليوم سوف أزودك بالعلاج وستتعافى تماماً بإذن الله

(ماجد) : بهذه البساطة؟ .. الأطباء أخبروني أن لا علاج جذرياً لحالتي هذه

- لا علاج عندهم وليس عندي ..

(ماجد) : وما المقابل؟

- أن تقوم بالمثل لغيرك ممن يحتاجون المساعدة

(ماجد) : أنا لست طبيباً ولا أملك العلم الذي يخولني لذلك

- سأمنحك هذا العلم وعليك حمله وتحمل تبعاته

(ماجد) : وإن لم أستطع؟

- هالتك مؤهلة لذلك وهذا أحد أسباب اختياري لك

(ماجد) : هالتي؟

- هالتك غريبة .. مشتتة وقوية في الوقت ذاته .. وقرينك محرر وأنت تقول بأنك لم تتعامل مع سحر أو روحانيين من قبل .. هل كنت تزور شيوخاً ليقرؤوا عليك؟

(ماجد) : لا .. نعم ..

- حدد .. نعم أم لا

(ماجد) : عندما كنت صغيراً كانت أمي تأخذني لأحد الشيوخ بانتظام ليقرأ عليّ بسبب المشكلة الصدرية المستعصية التي أخبرتك عنها

- تقصد التي أخبرني عنها قرينك .. وماذا حدث؟

(ماجد) : بعد أشهر من التردد عليه توقفنا فجأة

- لمَ؟

(ماجد) : «قبضت عليه الشرطة» ..

وضعت كفي على فمي مخفياً ضحكة باغتتني لكني لم أستطع وفلتت بعض القهقهات مني اضطرتني لوضع قدح قهوتي على الطاولة كي لا ينسكب علي ..

(ماجد) بعجب : ما المضحك؟

أجبته ملوحاً بكفي قائلاً : لا أبدًا .. تذكرت شيئاً من الماضي فقط .. أكمل ..

(ماجد) : لا يوجد شيء لأكمله .. هذه فقط المرة الوحيدة التي راجعت فيها شيوخاً

- هل تعاني من علل أخرى؟

(ماجد) : لا

- لمَ تراجع طبيباً نفسيّاً إذاً؟

صمت الشاب لثوانٍ وبدا عليه الارتباك فقلت : تعاني من أرق مزمن وصداع متكرر بدون سبب أو علة جسدية واضحة .. تصاب

بالإرهاق حد الإغماء في التجمعات البشرية وتعاني من عطش شديد أوهمك لفترة أنك مصاب بمرض مثل السكر لكن وكالعادة تحاليلك الطبية تنفي ذلك .. تعاني من الكوابيس .. ترى أشياء لا تعرف إن كانت حقيقة أو خيالاً .. تظن أنك تملك القدرة على التنبؤ بالمستقبل لأنك ترى وتسمع في ذهنك أموراً لم تحدث بعد لكنها تحدث لاحقاً وبالتفاصيل ذاتها بما فيها إحساسك من وقت لآخر بمن سيرحلون عن الدنيا .. تكشف الكاذب بسهولة وعقلك يحدثك دوماً عن نوايا الأشخاص وظنونهم فيك لذلك لا تثق بأحد بسهولة أو بالأحرى لا تثق مطلقاً .. تـ

قاطعني (ماجد) بعد ما كان ينصت لي بوجه مصدوم وقال بنبرة جزعة ومرتفعة : توقف! .. أرجوك توقف!

- ما بك؟

(ماجد) ماسحاً عرق جبينه بكفه رغم برودة الجو : لا أريد سماع المزيد

- لماذا؟ .. هل أنا مخطئ؟

(ماجد) : من أنت؟! .. من أنت؟!

- أنا مجرد شخص يريد تقديم عمل لك ..

بدأ (ماجد) يتنفس بثقل وكأن نوبة هلع داهمته وأخذت عينه اليسرى ترمش بسرعة فقلت : قرينك المحرر يجب تثبيطه كي تتخلص من كل هذه الأعراض .. أنت فاقد السيطرة عليه وتتركه يلهو كما يشاء

(ماجد) وهو مشوش : أنا لا أفهم شيئاً مما تقول وأشعر أني أحلم

أخرجت علبة سجائري من جيبي ومددت له واحدة وقلت : خذ ..

(ماجد) : هل تريد قتلي؟ .. هل نسيت علتي الصدرية؟

- لا لم أنسَها وهي ستنتهي بعد ما أعطيك العلاج .. هذه السيجارة لعلاج شيء آخر

(ماجد) : لا، شكراً .. أنا أكره التدخين ورائحة السجائر

أشعلت السيجارة وأخذت نفساً منها وقلت : يؤسفني أن أخبرك بأن هذا سيتغير

(ماجد) : لن يتغير لأني لا أريد

- هل تظن أني أدخن رغبة أو رفاهية؟

وضع (ماجد) كفيه على رأسه وأغمض عينيه بوجه عابس ..

- صداعك هذا سببه قرينك فهو يعلم بأني أحاول مساعدتك للسيطرة عليه وتقويض هيمنته عليك

(ماجد) وهو في حالة تألم : هل يمكن أن تحضر لي أي مسكن فأنا لم أحضر دوائي معي

مددت سيجارتي المشعلة له وقلت : نفساً واحداً فقط وإذا لم تتحسن فسأحضر لك ما تريد

مد (ماجد) يده الراجفة ألماً وأخذ السيجارة واستنشق نفساً منها أتبعه بسعال قوي لكن عبوس وجهه زال وبدا عليه التحسن قليلاً وقال : لقد خف الألم ..

- وبماذا تشعر أيضاً؟

(ماجد) بتعجب : بقليل من النعاس .. لم أشعر بالنعاس منذ سنوات

أخذت السيجارة من يده وقلت : مفعول الدخان على أمثالنا لا يختلف عن تأثيره على النحل المنزعج .. للأسف تأثيره على أصحاب الهالات القوية والمفعلة إيجابي روحانيّاً لكنه مؤذٍ جسديّاً وهذه هي المقايضة

(ماجد) : مقايضة ماذا؟

- المقايضة بين راحتك النفسية والجسدية .. أنا لن أطلب منك أن تدخن لكني أوضح لك الخيار الذي يمكنك أخذه لو احتجت أن تسيطر على بعض الآثار الجانبية لهالتك القوية وقرينك المحرر والذي ما زلت لا أعرف كيف تحرر دون علمك

مد (ماجد) يده وأخذ السيجارة من بين أصابعي وبعد أن قلبها أمام نظره لثوانٍ أخذ نفساً آخر منها ثم قال وهو ينفخ سحابة من الدخان بوجه مستاء : بالرغم من أني لا أفهم شيئاً مما تقول عن الهالة والقرين إلا أني لا أظن أني سأستسيغ طعمها ..

- لست مجبراً على تقبلها لكنك تحتاج قبولها ..

(ماجد) : مطفئاً السيجارة في المنفضة : لا .. هذا الخيار لا يصلح لي

- جرب إذاً التخفيف من السكر والنوم على الأرض هذا سيساعدك .. ليس بالسرعة والقوة أنفسهما كاستنشاق الدخان لكنه سيفيد قليلاً

في تلك اللحظة لا أعرف ما الذي حدث لكن نبرة الشاب تغيرت معي وتحولت من الشتات والتعجب لنبرة واثقة وثابتة وقال : أريد التحكم به ..

- تتحكم في مَن؟

(ماجد) : قريني ..

- كنت أظنك لا تعرف عن ماذا أتحدث

(ماجد) : كل ما أعرفه أني لم أشعر بالراحة التي أشعر بها الآن منذ سنوات طويلة .. لا أطباء أو أدوية عالجت أو خففت عني وفي النهاية أجد كل هذا الفارق من مجرد استنشاق دخان سيجارة .. أنا لا أعرف من أنت ومن تكون لكني أشعر بأن حياتي ستتغير على يدك وأريد أن يحدث ذلك مهما كانت العواقب

- وعدتك بأن حياتك ستتغير إذا كنت جاهزاً لما أنت مقبل عليه

(ماجد) : أي شيء أهون مما أنا فيه

- كنت أظنك مكتفياً ومقتنعاً بحياتك

(ماجد) : وتبدد كل ذلك بنفس ..

- نفس السيجارة؟

(ماجد) : لا .. نفس أمل نفخته أنت في جوفي .. أمل بأن أعيش حياة خالية من الألم وسأكون ممتنّاً لك لو أكرمتني بالمزيد ومنحتني القدرة على السيطرة على قريني وأوجاعي

- ستتمكن من القيام بما هو أكثر من ذلك .. ستكون قادرًا على التواصل والحديث معه وهذا قد يكون مربكاً في البداية .. لكن ..

(ماجد) مقاطعاً : هل سيؤذيني؟

- قرينك مؤمن لذا لا أعتقد .. هناك خيار ربطه لو أحببته لكن ذلك يستلزم طلاسم وأنا لن أقوم بذلك لأني هجرتها للأبد

صمت (ماجد) لأنه دخل مجدداً في دوامة من الشتات بسبب تسارع المعلومات وكثافتها لذا قررت إنهاء يومه الأول بقول : يكفي هذا اليوم .. عد لمنزلك ولا تفكر كثيراً فيما دار بيننا

(ماجد) : هل سأندم يوماً ما على قراري هذا؟

- حتى وإن حدث .. لا يحق لك التذمر من أمرٍ لم تجبر عليه وتملك حرية الاختيار فيه .. ما زلت على البر ويمكنك التراجع

(ماجد) : لا .. أنا مقتنع بقراري .. فقليل من نستطيع الحديث معهم دون تحفظ وقلة منهم مَن يفهمون ما نقول كما نعني .. هذا ما شعرت به خلال حديثي القصير معك .. وأرغب بالمزيد ..

تبسمت وقلت : وأنا كذلك وجدت شعوراً مختلفاً خلال حديثنا .. فالتعامل مع الأذكياء أمر مريح جدّاً ..

(ماجد) : هل أعود غداً؟

- لا .. علاج صدرك سيستغرق ثلاثة أيام .. سأصف لك خليطاً تناوله بانتظام كل صباح على الريق ولا تأكل أو تشرب شيئاً بعده لخمس ساعات وفي اليوم الرابع عد لي تمام السابعة صباحاً وسأكون بانتظارك

(ماجد) : هل ستخبرني وقتها بنوعية ومواعيد عملي؟

- عملك سيكون غير منقطع بل على مدار الساعة .. سوف تنتقل للعيش معي هنا .. هل لديك مانع ؟

(ماجد) : لا أبداً فأنا أقيم مع صديق لأني لم أعد قادراً على تحمل نفقات دفع إيجار سكن مستقل

- موعدنا إذاً بعد ثلاثة أيام .. وأحضر كل حوائجك معك لتبدأ يومك الأول الحقيقي

(ماجد) : كمساعد لك؟

- كتلميذي ..

تَذَكّر قبل أن تدخل أَنّك لن تخرج

حضر (ماجد) في الموعد المتفق عليه وكنت أنا و(عواد) في انتظاره بعد ما شرحت له كل ما دار بيني وبينه ولفت نظري بعد دخوله باحة المنزل أنه يجر حقيبة حوت ملابسه فيما يبدو وأنه مرهق بعض الشيء وحينما وقعت عيناه علينا وضع حقيبته على الأرض بجانبه وأخذ يتنفس بثقل.

- لماذا تأخرت ..؟

(ماجد) : لم يكن الأمر بيدي .. واجهت بعض العقبات

(عواد) : لَم تبدو متعباً؟

(ماجد) : المسافة لم تكن قصيرة

- هل أتيت مشياً على أقدامك؟

(ماجد) : نعم .. لم أجد من يقلني ولم أحب أن أتأخر في يومي الأول

- لكنك تأخرت ..

(ماجد) ناظراً لساعة يده : سبع دقائق بعد السابعة لا تعتبر تأخيراً

- سبع دقائق كافية لحدوث الكثير

(ماجد) : هل سيؤثر ذلك على قبولي كتلميذ عندك؟

- كيف حال صدرك؟

(ماجد) : لم أمشِ مسافة كهذه من قبل في حياتي أو بالأحرى لم أكن أستطيع دون أن أشعر بضيق أنفاسي .. أنا ممتن لك

(عواد) : كان يمكنك أن تتصل بي لأقوم بإيصالك بدل قطع كل هذه المسافة

(ماجد) : أنا لا أعرفك كي أتصل بك

- هذا (عواد) .. زميلك

(ماجد) : تشرفنا يا شيخ ..

(عواد) : أنا لست شيخًا

(ماجد) : المعذرة لكني رأيت لحيتك ولبسك وخمنت أن ..

قاطعته وقلت بنبرة متهكمة : (عواد) حالة خاصة .. يعاني مما يعرف بأزمة الهوية فلا تستغرب لو رأيته غداً وقد حلق ذقنه بالكامل ولبس بدلة وبنطالاً

(عواد) بتجهم : هل يمكن أن نبدأ بما هو أهم وتغيير الموضوع عني وعن ملابسي؟

(ماجد) باسماً : على أي حال تشرفنا يا (عواد)

- اذهب معه وسوف يرشدك لغرفتك وبعد ساعة سوف نجتمع

استقر (ماجد) في غرفته واستحم وبدل ملابسه وخلال ساعة اجتمعنا نحن الثلاثة كما هو متفق عليه في المجلس الوحيد في الطابق الأرضي

والذي أصبحنا نطلق عليه «مجلس الدروس» ودار بيننا حوار طويل شرحت فيه لـ (ماجد) ما سوف يتلقى من علوم خلال فترة إقامته وشددت على أن تلك العلوم ستكون محصورة في «علم الأولين» وأن هدفي الأول والأخير هو أن أجعل منه معالجاً روحانياً يخدم الناس بتلك العلوم لا أكثر ولا أقل وسألقنه بعض العلوم الأخرى من باب العلم فقط وليس الممارسة وأي متاهة يجد نفسه ينحدر فيها يجب عليه أن يتجنبها ولا ينزلق فيها.

بدأت معه منذ اليوم الأول .. كنا نمضي ساعات طويلة في الحديث في كل مجال يمكن تغطيته وهو بدوره كان يسأل ويستفسر كثيراً وبالرغم من الكم الهائل من المعلومات التي تلقاها إلا أن (ماجد) ملك ذهناً صافياً ومتفتحاً استوعبها كالإسفنجة ولم يكن يملك الكثير من الأفكار المضادة التي عطلت تقدمه مثلما حدث مع (عواد) والذي كان في بادئ الأمر يشعر بالغيرة من اهتمامي بـ (ماجد) لكن مع الوقت تقبل فكرة أنه لن يستطيع أن يكون مثله وشيئاً فشيئاً نمت بينهما صداقة فرضتها العشرة وسجية (ماجد) وسهولة التعامل معه وتفهمه لأي اختلاف.

اجتماعاتي مع تلميذي الجديد لم تكن لها مواعيد محددة خاصة وأننا نقيم في المنزل نفسه وكلانا لا يخرج كثيراً فـ (عواد) هو من كان مسؤولاً عن توفير احتياجاتنا وبالرغم من أن (ماجد) كان يتلقى راتباً شهريّاً أودعه في حسابه الذي أنشأته له إلا أنه لم يصرف منه شيئاً طيلة فترة إقامته معنا

فقد كان مكتفياً بالقليل ونهمه لتلقي العلم أنساه أي ملهيات أخرى.

خلال الأشهر الأولى حرصت أن أشرح له كل ما يتعلق بالأقران المحررة وكيف يمكنه السيطرة على قرينه والتواصل معه وكانت مرحلة صعبة عليه خاصة حينما تمكن من الحديث معه بمساعدتي وشرحت له كذلك علوم الأحجار والخواتم وكيف يمكنه استخدامها للتحكم بهالته وتأثيرها عليه وعلى غيره.

دروس الهالة والأقران كانت من أهم وأصعب الدروس التي تلقاها (ماجد) لكنه لم يخذلني وكان عند حسن ظني به واستوعبها بسرعة وخلال وقتٍ قصير أصبح متفاهماً مع قرينه ومهيمنًا عليه وكان ذلك دون استخدام أي طلسم فكل العلوم التي كنت أنقلها له حصرتها في علوم الأولين فقط لأني كنت أريد خلق نسخة أفضل مني يمكنها نفع الناس دون إلحاق الضرر بنفسه.

المعضلة الوحيدة التي واجهتها مع نفسي هي أني لم أكن أريد نقل علمي لشخص واحد فقط لأني بذلك أخاطر بضياعه فـ (ماجد) وبالرغم من أنه وعاء مناسب جدّاً لذلك إلا أنه في النهاية عرضة للموت أو الانحراف ومصير علمي سيكون مرهوناً ومربوطاً بمصيره لذا بدأنا نبحث عن تلاميذ آخرين وبالفعل قمنا باستقطاب عدد منهم بمختلف الأعمار والأجناس و(ماجد) كان بمثابة المعاون لي في تعليمهم لكن وللأسف معظمهم لم يكونوا مؤهلين عقليّاً أو جسديّاً لتحمل الرحلة

الطويلة وكان عدد الانسحابات كبيراً بالرغم من أننا انتقيناهم بعناية عالية لكن ظروفهم الاجتماعية كانت عائقاً حقيقيّاً منعهم من تكريس وقتهم وأنفسهم لهذا النوع من التعليم.

في النهاية وبعد غربلة طويلة بقي معنا شابان وفتاة كانوا يملكون مقومات جيدة للمواصلة بالرغم من بعض القصور في قدراتهم لكن خامتهم العقلية لم تكن سيئة لذا أوكلت مهمة تهيئتهم لـ (ماجد) ليصل بهم لمستواه نفسه قبل أن ينتقلوا جميعاً لمرحلة متقدمة أكثر معي.

مضت عدة أشهر أخرى وتمكن (ماجد) بمعاونة (عواد) من إيصال التلاميذ الثلاثة لمستوىً يجعلهم جاهزين للمرحلة المتقدمة ووقتها بالفعل انتقل الشابان للإقامة معنا استعداداً لذلك واكتفت الفتاة بالحضور أوقات الدروس فقط لكن ما حدث هو أن الشهر الفضيل أقبل علينا وهنا كانت أول مرة يسمع فيها (ماجد) بعزلتي الرمضانية حينما أخبرته بأنه يمكنه أخذ إجازة مع بقية التلاميذ لو أحبوا لكنه رفض وآثر البقاء في المنزل والاهتمام به خلال عزلتي فسمحت له خاصة وأن (عواد) يغيب هو الآخر في الفترة نفسها للاعتكاف لكنني وجدته يتحدث معي بطريقة مختلفة قبل توديعي عند مدخل القبو وقال: «هل حقّاً ستغيب لشهر؟»

- نعم وما المشكلة؟

(ماجد): لا أبداً لا يوجد مشكلة لكن..

- قل ما يدور في صدرك ولا تكتم

(ماجد) : لقد أكرمتني بتعليمي كمّاً كبيراً من العلوم ووسعت مداركي لأرى ما كنت أظنه وهماً ولم أعد أجد غرابة ومشقة في تفسير معظم ما يجده الناس مجهولاً ومخيفاً والعزلة -والصيام- بشتى أنواعها كانت من ضمنها لكن .. هذه العزلة بالذات .. وفي هذا التوقيت .. لا أفهم الغرض منها

تبسمت وقلت : (عواد) سينعزل أيضاً طيلة الشهر

(ماجد) : هو سيعتكف في مسجد لكن أنت ..

- اسمع يا (ماجد) .. مهما تلقيت مني فلن أتمكن من نقل كل ما عندي لك فعلمي ملوث .. فيه الغث والسمين .. وما أحاول نقله لك هو الطيب منه فقط .. أنا لست منزهاً بلا أخطاء .. ارتكبت الكثير منها وما زال هناك أغلال تقيدني .. لدي عهود وديون متراكمة وسأبقى أسددها مدى حياتي .. هذه العزلة ضرورة لا مفر منها إلى أن أسدد ما علي

(ماجد) : لأول مرة منذ انتقالي لا أفهم ما تقول ..

قلت وأنا أفتح باب القبو : لعل ذلك أفضل .. أراك صباح العيد

(ماجد) : معلمي ..

- نعم يا (ماجد) ..

(ماجد) : لا تخبرني عن سبب اختفائك في رمضان لكن أعطني شيئاً لأفكر به حتى تعود .. شيئاً له علاقة بما تنوي القيام به الآن

صمت لثوانٍ وأنا أحدق بأعينه المتعطشة لعلم كنت أنوي ألا أعرضه له لكني قررت أن أختبر ثقتي به وقلت : هل لاحظت من قبل اختفاء الكثير من قطط الشوارع في رمضان؟

(ماجد) بخليط من التساؤل والعجب : آه .. لا

- فكر بهذا الأمر خلال غيابي .. وكل عام وأنت بخير

نزلت للقبو تاركاً (ماجد) مع أفكاره وظنونه ..

مضى الشهر .. خرجت من القبو ومن عزلتي .. وجدت (ماجد) يقف عند الباب صباح العيد بانتظاري .. استقبلني بعناق أتبعه بقول : كيف كانت عزلتك؟

أجبته وأنا أفرك ذقني بسبابتي وإبهامي : أحتاج أن أحلق ذقني كي لا أكون كـ (عواد)

تبسم (ماجد) وقال : (عواد) اتصل بي وقال إنه قادم في الطريق وأحضر معه إفطار العيد

- لا تتحمس كثيراً سيكون بيضاً كالمعتاد

ضحك (ماجد) ورافقني للسلم المؤدي للطابق العلوي مرورًا ببهو

المنزل وخلال سيرنا قلت: سأذهب لغرفتي لأغتسل وأحلق ذقني ريثما يصل (عواد) إذا لم تكن تريد شيئاً

تغيرت ملامح (ماجد) وكان واضحاً أنه متردد في الحديث عن موضوع ما وقال: سأكون في انتظارك ..

- ما بك؟

(ماجد) محاولاً إخفاء استيائه: لا شيء .. لا تشغل بالك الآن

- تعرف أني لن أضع قدمي على السلمة الأولى قبل أن أسمع منك لذلك لا تضيع وقتي ووقتك .. ما الذي حدث في غيابي؟

(ماجد): فقط أمر واحد يا معلمي ..

- ما هو؟

(ماجد): جميع التلاميذ رحلوا ..

تبسمت وقلت: ولِمَ أنت مستاء هكذا؟

(ماجد): لم أكن أريد أن أخذلك

- وما علاقتك أنت برحيلهم؟ .. هذا كان قرارهم

(ماجد): لم أكن أريد أن يذهب مجهودنا هدراً هكذا

- ما حدث في مصلحتنا .. من الأفضل أن يحدث الآن قبل أن يتلقوا علماً حقيقيّاً وينهلوا ما يمكن أن يشكل خطرًا علينا

وعليهم .. رحيلهم مبكراً نعمة وليس نقمة وأنا لا أعول على أحد وتذكر أن النار تطرد خَبَثَ الحديد

(ماجد) : فهمت .. لكن لن أنكر أن أسباب رحيلهم هي ما أثارت سخطي .. أسباب غريبة مثل السأم والانشغال

- تقصد أسباباً تافهة

(ماجد) : نعم

- جيد .. وفروا علينا الوقت

(ماجد) : لكني عالجت الأمر ولم أرضَ أن تعود دون أن يكون هناك بديل

- ماذا تقصد؟

(ماجد) : لقد وجدت شخصاً مناسباً وأمضيت الشهر بأكمله أعلمها كل ما يمكنني كي تكون جاهزة لنبدأ المرحلة الثانية

- تعلمها؟ .. فتاة؟

(ماجد) : نعم .. أعرفها من عملي السابق وقد تواصلت معها خلال خلوتك واكتشفت أنها تركت العمل فعرضت عليها أن تكون معنا

- أنت مدرك أننا لسنا شركة للتوظيف

(ماجد) : نعم نعم أفهم ذلك لكن صدقني هي ذكية وفطنة وتحب ..

قاطعته قائلاً : تحب ماذا ..؟

(ماجد) : تحب العمل ومجتهدة جدّاً ولن تخذلك

- لا يهمني خذلانها فهي ستخذل نفسها لو فشلت لكن يهمني أمانتها

(ماجد) : من هذه الناحية أنا أضمنها

- لم أرَكَ متحمساً لشخص بهذا الشكل من قبل

(ماجد) : لأنها تستحق وسترى بنفسك ما أعني حينما تقابلها

- ومتى سيكون ذلك؟

(ماجد) : وقتما تشاء

- رتب معها موعدًا الليلة

(ماجد) : الليلة؟ .. لكن اليوم عيد وقد ..

- نعم الليلة .. أم أن هذه مشكلة لها وظروفها لا تسمح؟

(ماجد) : لا لا أبدًا ستكون موجودة

- سوف أنزل الساعة التاسعة مساءً وأتوقع وجودكما في «مجلس الدروس»

(ماجد) : حاضر يا معلمي .. هل ستنضم إلينا على الإفطار؟

- لا .. بلغ سلامي لـ (عواد) وأخبره بأني سأتصل به غداً

صعدت لغرفتي وبدأت بتبديل ملابسي حينها ظهر (دجن) وقال : ما تشوف أن اللي قاعد تسويه غلط ؟

أجبته دون أن ألتفت إليه وقلت : وأنت بألف خير يا (دجن) ..

(دجن) : جاوبني ..

- ومنذ متى أخطائي تهمك؟

(دجن) : أنا أتكلم جد .. أنت قاعد تتحول لـ (عمار) بدون ما تحس

- لا تقارني بذلك المشعوذ

(دجن) : وليه لا؟ .. ترى أنا الوحيد اللي يعرف أسرارك وماضيك اللي مثل لون غرفتك .. تفكر سالفة العزلة ذي بتمشي عليّ مثل المسكين (ماجد)؟

- ما رأيك فيه بالمناسبة؟

(دجن) : (ماجد)؟ .. عاجبني وأحسه أركد منك بس قرينه غثيث .. ليه حررته؟

- هو كان محررًا حين التقيت بـ (ماجد)

(دجن) : ومن حرره؟

- يدعي أنه لا يعرف

(دجن) : كيف ما يعرف؟ .. العملية هذي ما تتم بالصدفة .. ما هي ..

قاطعته قائلاً : أعرف .. وفي الوقت نفسه أصدقه .. بعض السحرة المتخفين كشيوخ يحررون أقران الأطفال من باب العبث حين يرون أن هالاتهم قوية أملاً منهم أنهم سينخرطون في الشعوذة مثلهم يوماً ما حينما يبحثون عن حل لتبعات هذا التحرير لكن يبدو أن (ماجد) تقبل حاله أو بالأحرى لم يفهم ما يحدث معه وظن أنه مرض نفسي

(دجن) بتهكم : وتسمونا إحنا شياطين ..

على ذكر الشياطين .. لَم لم تظهر لي خلال عزلتي؟ .. ألم تُسلم؟

صمت (دجن) ولم يرد واكتفى بالنظر لي بوجه مرتبك ..

سرت لدورة المياه وبدأت أحلق ذقني متجاهلاً (دجن) الذي تبعني ووقف خلفي صامتاً يراقبني وأنا أملأ كفي ببعض الماء لأغتسل. استدرت نحوه وقلت وأنا أمسح وجهي المبلل بمنشفة : الشيطان الذي يسلم ماذا يطلق عليه؟

(دجن) : ما أدري ..

- أعتقد «جن» ..

(دجن) : يمكن .. ما يفرق .. ليه تسأل؟

- لأن الجن لا يربط بطلاسم الشياطين

(دجن) : شقصدك؟

- لا أقصد شيئاً ..

(دجن) : لا تضيع السالفة ووقف ..

- أتوقف عن ماذا؟

(دجن) : سالفة نقل العلم ذي .. خله يموت معك

- ولمَ أنت مهتم هكذا؟

(دجن) : ما يكفي اللي صار لك؟ .. تبي تبلش غيرك بمصيبتك مثل ما سوى قريبك الشايب

قلت متهكماً : لم أرَك عطوفاً هكذا من قبل يا شيطان

(دجن) بغضب : أنا مو شيطان!

- هل تعرف لمَ لا أحسم صحة وجودك من عدمها بالرغم من أني أستطيع ذلك بكل سهولة؟

(دجن) : ليه يا سيد (خوف)؟

- لأن تحققي من عدم وجودك مصيبة لكن تيقني من وجودك مصيبة أكبر

صمت (دجن) ورأيت في ملامحه معالم الضيق فخرجت من دورة المياه وقلت له خلال وقوفه متسمراً : أريد أن أنام ..

(دجن) : تصرفني؟ .. أنت ما تنام

استلقيت على فراشي الأرضي ومددت يدي تحت وسادتي وأخرجت خاتمين لبستهما في خنصريّ وقلت : «أنا لم أعد ذلك الرجل الذي تعرفه .. أنا مختلف اليوم ..»

(دجن) : صحيح .. كنت أول تقول: «الذيابة ما تنام» .. وكنت فعلاً ذيب

استلقيت على فراشي مغمضاً عينيّ قائلاً : واليوم ماذا ترى؟

(دجن) : سَلَق ..

لم أجب عليه .. واكتفى هو بقول: «كالعادة . .لا إحساس ولا ضمير ..»

واكتفيت أنا بتجاهله باسماً وغططت في نومٍ عميق ..

رُضَابُ العَقرَبة

بعد استيقاظي من نومي العميق خلعت خاتميّ وأعدتهما لمكانهما واستحممت وبدلت ملابسي وأعددت لنفسي قهوة سوداء وسحبت كتاباً من الرف المستقر فوق فراشي الأرضي وبقيت أقرأ حتى قاربت الساعة التاسعة مساءً فأغلقت الكتاب وأعدته لمكانه ونزلت للطابق الأرضي وتوجهت مباشرة لـ «مجلس الدروس» لأجد (ماجد) يجلس وبجانبه فتاة لم تتجاوز التاسعة عشرة من عمرها تلبس الكثير من الحلي واستغربت في بادئ الأمر من صغر سنها والتفاوت العمري بينهما لكني لم أناقش ذلك معهما وجلست في المكان المخصص لي في صدر المجلس أراقبهما بصمت.

نظرات الفتاة كانت حادة وثاقبة ولم يبدُ عليها التوتر أو الخجل فقد كانت واثقة من نفسها لدرجة فاقت الحاجة. استغللت فترة الصمت تلك في تفحص هالتها والتي كانت فوق المتوسطة لكن مدمرة بالكامل وهذا أول عائق سيقف أمامها لتصبح أحد تلاميذي لكن ومع ذلك لم أتسرع بالحكم عليها فالهالة المدمرة يمكن ترميمها لكن ما أثار فضولي وقتها هو سبب وصولها لتلك الحالة. بعد برهة من الهدوء تحدث (ماجد) وقال: «هذه (هاجر) يا معلمي .. التي حدثتك عنها ..»

- انزعي حليك ..

نزعت الفتاة أقراطها وخواتمها وسلسالاً تدلى من عنقها ..

بعد ما أمعنت فيها لثوانٍ قلت : حسناً .. سنقبلها ..

استغرب (ماجد) من موافقتي السريعة وقال بوجه متفاجئ : ألا تريد توجيه بعض الأسئلة لها قبلها؟

- ألا ترى أنت أنها مناسبة؟

(ماجد) : بلى لكن ..

- إذاً سوف نثق باختيارك ونبدأ المرحلة المتقدمة منذ اليوم

(هاجر) : أنا لدي بعض الأسئلة ..

(ماجد) بنبرة مكبوتة خالطها بعض السخط : المعلم هو فقط من يسأل ونحن من نجيب!

(هاجر) : ولَم لا يحق لي السؤال؟ .. كيف ستتعلم إذاً؟

(ماجد) : كل شيء وله وقته! .. وأنتِ لستِ مهيأة الآن لطرح الأسئلة!

(هاجر) : لَمَ أنا هنا إن لم أكن مؤهلة .. ثم من أعطاك الحق بالحديث عني؟ .. أستطيع الاعتناء بنفسي والكلام موجه للمعلم وليس لك

تجلت وقتها على وجه (ماجد) ملامح الصدمة من كلام وتصرف (هاجر) معه وكأنه يرى شخصاً جديداً لا يعرفه يتحدث معه وهنا

أيقنت أن تلك الفتاة لم تكن هينة بل تملك ذكاءً كبيراً مكنها من إيهامه بما يريد أن يرى ويسمع حتى تصل لمبتغاها واللقاء بي فمن الواضح أن (ماجد) خلال فترة تدريبه معي كان على تواصل معها ويحدثها بكل ما يحدث بيننا منذ اليوم الأول وهي وجدت في نفسها رغبة ملحة بأن تكون مثله واستخدمته كي تصل لمآربها.

لم أكن مستاء من طريقتها بل على العكس تماماً وجدت أنها متمكنة في التلاعب والتحايل وسوف تحاولَ ممارسة تلك الألاعيب عليّ لثقتها بأنها تستطيع خداعي مثلما خدعته ولأني مؤمن بأن الإنسان قد يتلون لغرض ما، لكنه لا يتغير أبداً قررت منحها الفرصة للمحاولة وقلت :

«دعها تسأل ما تشاء ..»

(هاجر) بعد ما رمقت (ماجد) بنظرة انتصار : شكراً يا معلمي ..

تجهم (ماجد) وبادلها بنظرة استياء وتوعد ..

(هاجر) : لدي مجموعة من الاستفسارات والطلبات

- أنا منصت ..

(هاجر) : في البداية أريد الانتقال إلى هنا .. أريد غرفة مثل (ماجد)

- هل ظروفك الاجتماعية تسمح لكِ بذلك؟

(ماجد) : ألم تقولي بأنك لا تستطيعين الانتقال؟

- اترك هذا النقاش بيننا يا (ماجد) ..

(ماجد) : حاضر

(هاجر) : ليس لدي أي عائق أو مانع يمنعني من الانتقال والعيش هنا

- وماذا أيضاً؟

(هاجر) : ما فهمته من (ماجد) هو أننا سنتعلم السحر

- فهمك خاطئ .. لا شيء مما تعلمه أو ستتعلمانه له علاقة بالسحر

(هاجر) : أنت تسميه «علم الأولين» لكنني أراه لا يختلف عن السحر

- رأيكِ لا يهم

(هاجر) : وكيف تثق بمن لا يهمك رأيهم؟

- في أي مرحلة دراسية أنتِ الآن؟

(هاجر) : التحقت بالجامعة هذا العام

- في أي تخصص؟

(هاجر) : التاريخ

- اختياراً أم إجباراً؟

(هاجر) : باختياري بالطبع .. أنا أعشق التاريخ .. لكن ما علاقة ذلك بسؤالي عن الثقة؟

- سأطرح عليكِ سؤالاً .. وحاولي أن تستوعبيه قبل أن تجيبي عليه

(هاجر) : أنا لست غبية .. أنا ذكية .. وجدّاً.

- أنتِ ذكية .. لكنكِ تجعلين ذلك عائقاً أمام تطورك . . المبالغة في تقدير الذات هي أهم عامل في تدني مستوى الإنجاز .. لذا أنصتي ولا تجادلي

(هاجر) : حسناً أنا منصتة

- إلى أي مدىً تثقين بمن دونوا ونقلوا التاريخ إلينا بشتى أنواعه؟

(هاجر) : أثق بهم على العموم لكن لا شك أن بعضهم لم يكن أميناً في نقله

- إذًا فهي ليست ثقة مطلقة

(هاجر) : بالتأكيد لا .. الثقة الكاملة والمطلقة التي لا تستوجب الشك لا يمكن منحها لأشخاص لم تقابلهم من قبل ولم تحتك بهم لتعرف أطباعهم ودرجة نزاهتهم ..

- ماذا لو تم تزكيتهم لك من قبل أناس عاشروهم؟

(هاجر) : لا أظن أن ذلك كافٍ .. فعدد من نقلوا التاريخ بالتتابع كثر ولا يمكن الوثوق بهم جميعاً ناهيك أن التاريخ غالباً لا يكتبه إلا المنتصرون

- لذلك مزبلة التاريخ امتلأت ..

(هاجر) : ماذا تقصد؟

- ألا تجدين أن كلامك هذا ينسف مصداقية تخصصك؟

(هاجر) : لا .. هناك ثقات نقلوا لنا التاريخ الصحيح

- ومن أين حصلوا على هذه التزكية؟ .. خط النقل طويل ومتعدد النواقل .. هل جميعهم ثقات؟ .. فساد شخص واحد منهم فقط كفيل بتغيير الحقيقة وتلويثها

(هاجر) : ماذا تريد أن تقول؟

- إن الثقة لا تُمنح بالتزكية بل بالمعاشرة .. أنا أثق بـ (ماجد) لأني عاشرته لكني لن أثق بك فقط لأنه قام بتزكيتكِ

(هاجر) : معنى ذلك أنك لا تثق برأي (ماجد) فيَّ

- وهل ستعتمدين على رأيه كي تثبتي نفسكِ؟

تجهمت (هاجر) وقالت : بالطبع لا! . .أنا لا أحتاجه!

- إذاً لا تحدثيني عن تزكيته وعن الثقة الآن واتركي تصرفاتكِ مع مرور الأيام تتحدث عنكِ مثلما تتحدث عنكِ الآن .

صمتت (هاجر) منزلة رأسها ولم ترد ..

قراءتي لتلك الفتاة لم تكن خاطئة وتوقعت منها هذا النوع من الجدال بالرغم من أننا لم نُخضعها لأي اختبار أو تدقيق حقيقي إلا أنها آثرت إثارة موضوعات قد تهدد بقاءها معنا. عيناها كانتا تصرخان تمرداً

وهي تحاول إظهار الانصياع والتفهم ومع ذلك أعجبتني شجاعتها وإقدامها لكن ذلك قد لا يكون مفيداً لها أو لنا في المسار والطريق اللذين ننوي المضي فيهما ومع ذلك فسحت لها المجال للتحدث لأن الترميم الذي أنوي القيام به لها لن يقتصر على حالتها فقط بل سيشمل جميع نواحي شخصيتها لأني رأيت فيها نقيضاً حميداً لـ (ماجد) وهذا ما أحتاجه كي أضمن أنها لن تكون تابعة له لكن كان من الضروري أن تتبعني أنا وألا تتمرد عليّ لاحقاً.

- هل لديكِ استفسارات أخرى؟

(هاجر) : لدي لكني لا أريد أن أزعجك فمن الواضح أنك لا تتقبل النقاش والحوار

- لا تحولي قصور فهمك عليّ .. ثم إن ما تقومين به ليس نقاشاً أو حواراً

(هاجر) : ماذا تسميه إذاً؟

- جدالاً .. وهناك فرق كبير بينهما .. أنت مستمعة متحفزة للرد ولستِ منصتة ترغب في التعلم .. ولن تتعلمي شيئاً مني لو استمررتِ على هذا النهج .. المنصت يُنصت ليفهم وليس ليرد .. المنصت المناقش يريد أن يصل للحقيقة في النهاية أما

المستمع المجادل فيريد أن يكون على حق في النهاية .. هل فهمتِ الفرق؟

(هاجر) : فهمت ..

- فهمتِ أم أنكِ تدعين الفهم ..؟

(هاجر) : صدقني فهمت .. وكيف أغير من طريقتي في النقاش؟

- المناقش الجيد هو من يملك سيطرة تامة على عواطفه خلال حواره مع الآخر ويتحدث بعقله فقط لذا تجدين نبرته هادئة وواثقة مهما تعالت الأصوات من حوله ويميل للصمت عندما يكون الطرف الآخر غوغائيّاً منجرفاً خلف عواطفه .. أنتِ لستِ غبية كما اتفقنا لكن ينقصكِ التواضع ومعرفة مقامكِ كي تسمحي لمن هم أعلم منكِ بتلقينكِ ما تجهلين

(هاجر) : أنا متفتحة وأتقبل كل الآراء والأجناس هذا ما يقوله عني كل من عاشرني

- طبول المطبلين لا تُطْرِبُ إلا الطُّرْش ومزامير الشامتين لا يتَرَاقَص عليها إلا الأَفاعِي .. ولم يكن هذا ما عنيته

(هاجر) : لم أفهم ..

(ماجد) : المعلم يقصد ألا نحكم على الشيء من المرة الأولى

- ولا هذا ما قصدته .. دائماً ما يقال لنا: فكر قبل أن تجيب لكنْ

قليل من يطبق هذه القاعدة حتى وإن حاول فهي ليست عادة تمارس بل مهارة تكتسب ..

(هاجر) : وكيف نكتسبها؟

- بالحوار بشكل منتظم مع شخص يملكها.. وأن تضعي كبرياءكِ جانباً ولا تجادلي بل تناقشين كما أخبرتكِ سالفاً.. هذا هو السبيل الوحيد لتغيير طريقة تفكيركِ ونظرتكِ للأمور ..

(هاجر) : أنا مقتنعة بأني أملك عقلاً واعياً

- كونكِ تملكين عقلاً واعياً فهذا لا يعني أنك تجيدين استخدامه.. وحتى لو أجدتِ استخدامه في الماضي فليس من الضروري أنه لا يزال يعمل كما عهدتِه .. فحتى العقول تصدأ من قلة الاستخدام .. التواضع هو أساس التعلم

(هاجر) : وهل من التواضع قبول رأي لست مقتنعة به؟

- أنتِ الآن تجادلين ..

(هاجر) : هذا من حقي

- الحق الوحيد الذي تملكينه في حضوري هو الخروج من الباب وعدم العودة مجدداً عدا ذلك فأنا مركز الكون هنا .. لن تتعلمي شيئاً من شخص تجادلينه فأنا لا حاجة لي بكِ أو بآرائكِ .. الأرض لا تختار البذور التي تُغرس فيها .. المزارع هو صاحب

الاختيار والقرار الأخير .. وكل ما عليها هي أن تحتوي تلك البذور بصمت حتى تنمو خلال سقي ذلك المزارع لها حتى تصبح بستاناً مليئاً بالثمار .. هل لديكِ اعتراض أو .. مجادلة؟

(هاجر) : لا يا معلمي ..

- وأنت يا (ماجد)؟

يهز (ماجد) رأسه بالنفي ..

- بالحديث عن الزراعة .. هل يستطيع أيٌّ منكما إخباري ما هي أكبر صحراء في العالم؟

تفاجأ الاثنان بالسؤال الخارج عن نطاق حديثنا لكن (هاجر) أجابت بقولها : الربع الخالي .. لا لا .. الصحراء الكبرى شمال إفريقيا

(ماجد) : ((أنتاركتيكا))..

(هاجر) : ما هذه الإجابة الغبية؟ .. هذه ليست صحراء فهي مليئة بالثلوج

- إجابة ماجد صحيحة ..

(هاجر) : كيف؟ .. القطب المتجمد الجنوبي خالٍ من الرمال ودرجة الحرارة فيه منخفضة

- هذا ما عنيته بالتفكير الخاطئ .. لقد ربطتِ كلمة «صحراء»

بالرمال وحرارة الأجواء لذلك كانت نظرتك قاصرة .. تعريف الصحراء هي الأرض الجرداء الخالية من معظم معالم الحياة والمسطحات الخضراء .. فقط لا أكثر ولا أقل .. لذلك فأكبر صحراء في العالم هي القطب المتجمد الجنوبي كما قال (ماجد) ..

(هاجر) : طريقة غريبة في التفكير

- هذه هي الطريقة الصحيحة غير المؤدلجة والتي من خلالها ستتمكنين من تعلم أمور وعلوم جديدة ويجب على كلٍّ منكما أن يفكر بها .. لا تكتفِ بما يقال ويملى عليك .. وسع مداركك .. لا تقبل أي شيء فقط لأن الكل يتفقون على صحته

صمت الاثنان ولم يجادلا ..

- ما رأيكما بظاهرة التصحر؟ .. هل تشكل خطرًا على العالم؟

(هاجر) : نعم وهي بسبب الاحتباس الحراري الحالي وتسبب نقص الأكسجين

- هل قمتِ بقياس مستويات الأكسجين في العالم؟

(هاجر) : لا لكن هذا ما يقا..

قاطعتها وقلت : ما يقال .. ما يروج ..

(هاجر) : لكنها حقيقة .. التصحر يتسبب في نقص النباتات والأشجار وهي المصدر الوحيد للأكسجين المتجدد في العالم وتناقصها سيقود البشرية للهلاك لو لم نتدخل ونوقف عبث الإنسان بها

- الإنسان؟ .. هل تعتقدين أن العالم يسير ويتأثر بنا لتلك الدرجة؟

(هاجر) : نعم

- ما رأيك أنت يا (ماجد)؟

(ماجد) : كلامها غير صحيح .. كنت مؤمناً بالنظرية نفسها حتى فكرت بطريقة مختلفة حينما تناقشنا بالموضوع سابقاً

(هاجر) : طريقة ماذا؟ .. هذا الموضوع بالذات لا خلاف عليه

- نصف أكسجين العالم يأتي من البحار .. والنباتات هناك تتنفس أيضاً وتنتج كميات كبيرة منه وهي بمأمن من عبث «الإنسان» حتى الآن لذلك كل ما يروج عن نقص الأكسجين هو حملة هستيرية منظمة لا أكثر

(هاجر) : وما الغرض منها؟

- أن ننشغل

(هاجر) : ننشغل عن ماذا؟

- عمّا هو أهم ..

صمت الاثنان مجدداً فأتبعت كلامي :

«كل ما أريده منكما هو التفكير .. وليس قبول كل ما يملى عليكما .. هذه هي الطريقة الوحيدة كي تخرجا من القطيع وتقوداه ..»

(ماجد) : أشعر أن ذلك سيكون صعباً

(هاجر) : أتفق مع (ماجد)

- المسألة سهلة .. فقط لا تنظرا للأمور من زاوية واحدة .. افسحا المجال لعقولكما للتفكر بزوايا أخرى ..

(هاجر) : هل لي بسؤال آخر؟ .. لكنه شخصي بعض الشيء

- اسألي ..

(هاجر) : هل تقبل النقد في عملك أو النُّصح في أساليبك؟

- أغلب النقد غيرة وأكثر النصح تطفل .. فمن لديه عمل مُثمر لا يملك وقتاً لنقد أعمال غيره ..

(هاجر) : ألا تؤمن بأهمية النصيحة؟ . .ألا تظن أنها مصدر جيد لتطوير النفس وتحسينها ونحن بحاجة إليها؟

- منذ زمن طويل لم أرَ ناصحاً ينصح نفسه .. نحتاج هذا أكثر .. فليس من الضرورة أن يكون لك في كل موضوع رأي وفي كل موضع قدم .. لو اكتفى الناس بنصح أنفسهم لتغير عالمنا للأفضل

(ماجد) : صحيح .. معظم من نصحوني خلال حياتي تحدثوا معي بفوقية وتعالٍ غريبين .. يتصنعون الوعي ويتظاهرون بالعمق وهم في الواقع عكس ذلك

- التظاهر بالعمق سطحية والترفع عن عامة الناس انحطاط ..

(هاجر) : أذكر مديرة مدرستي بالثانوية كانت تعامل الطالبات بالأسلوب المتعالي نفسه حينما تنصحهن وتتكلف كثيراً خلال حديثها وتعاملها معنا ومع غيرنا

- غالباً الإنسان ذو التفكير السطحي يميل للتعقيد والتكلف في معظم ممارساته الحياتية ظنّاً منه أنهما سيظهرانه بمظهر العميق المتفرد غير مدرك أنهما يجعلانه يبدو كالبغل المتأنق

(هاجر) : أتفق في نقطة «البغل» هذه خاصة وأنها تمكنت من إقناع الكثير من زميلاتي بقصورهن ودفعتهنّ للوم أنفسهنّ على فشلهنّ

- هنّ كذلك مخطئات .. فجلد الذات للأسف أصبح «منهجاً» عند البعض كي يريح نفسه وضميره من العمل والتغير للأحسن فمبدأ: «أنا سيئ مهما فعلت» أسهل بكثير من: «يمكن أن أكون أفضل ..»

(هاجر) : وإلى متى سننتظر حتى تتحقق أحلامنا ..؟

- الأبواب لا تفتح بالانتظار .. الكثير ينتظر أحلامه لتتحقق والقليل من ينهض ليبحث عنها والنادر هو من يصنعها بنفسه ..

(ماجد) : وإن كنا مقتنعين بحالنا ولا نريد تغييره؟

- القناعة لا تعني تعطيل الطموح والرضا لا يناقض السعي .. لا بد للإنسان أن يبدأ من نقطة ما ..

(هاجر) : ومتى سنبدأ نحن؟

- لقد بدأنا بالفعل .. نقاشنا هذا هو أول درس لكما معاً وسيتبعه المزيد في الأيام القادمة .. سوف أبدأ بنقل علوم ثقيلة على مسامعكما وأعمق من إدراككما والهدف من ذلك هو أن تصبحا معالجين .. معالجين فقط .. لا أكثر ولا أقل .. مفهوم؟

هز الاثنان رؤوسهما بالموافقة ..

تركتهما بعد ما وجهت (ماجد) بمساعدة (هاجر) في الانتقال لغرفتها وتوجهت أنا بدوري للطابق العلوي ودخلت غرفتي لأجد (دجن) كعادته ينتظرني وعلى وجهه ارتسمت ابتسامة صفراء أتبعها بقول : «أنتِ ذكية أجل ..؟»

أجبته ببرود وأنا أبدل ملابسي : عن ماذا تتحدث؟

(دجن) متحدثاً بطريقة ساخرة ومتهكمة : التلميذة الجديدة .. الحب الجديد

- ليتك لم تكن من صنع خيالي كي أربطك ..

(دجن) : لا تستهبل .. واضح أنك خقيت عشان كذا وافقت عليها والا هي ما تنفع لشيء

- أنت مخطئ .. الفتاة تملك ذكاء يفوق عمرها وهالتها جيدة بالرغم من تدمرها بشكل كبير

(دجن) : وحلوة ..

- هذا لا علاقة له بقبولها

(دجن) : شكلك ما شفت نفسك يوم جلست قدامها .. أول شيء قلته: «موافق .. موافق» .. حتى من قبل ما تنطق البنت .. طيب اثقل شوي

جلست على طرف فراشي الأرضي وقلت : كما قلت لك أنت مخطئ ..

(دجن) : قل قسم

- (دجن) هذا ليس وقتك .. احتفظ بأوهامك لنفسك

(دجن) : محد راعي أوهام غيرك .. أنا بكبري وهم من عقلك .. لكن اللي متأكد منه أنك بتجيب العيد كالعادة .. ترى مو أول مرة أشوف هالوجه

- أي وجه؟

(دجن) : وجه العاشق المفتون .. هذي نفس الخشة اللي شفتها لما جاتك (جند) أول مرة عند بيت (عمار) .. نسيت والا حاب أذكرك كيف لعبت فيك وخلتك ملطشة بعد ما طيحتك بغرامها؟

- أنا لم أحب (جند) قط ..

(دجن) : أي واضح .. والدليل أنك سامحتها بعد ما اعترفت لك بلسانها أنها قتلتني ..

- ماذا كنت تريد مني أن أفعل؟ .. أقتلها؟

(دجن) : احبسها! .. انفِها! .. أو على الأقل كفين على السريع ما كانوا يضرونك أو بيكلفونك شيء! .. لكن أم قرون كانت مسيطرة عليك لدرجة أنك حتى ما عاتبتها بكلمة ..!

- بالنسبة لمجرد «وهم» فأنت تحمل الكثير من الضغينة ..

(دجن) بتجهم ونبرة غاضبة : تنحرق أنت وياها ما هميتوني!!

- هي احترقت بالفعل .. وبقيت أنا ..

(دجن) : لا تستعجل جهنم تنتظرك!

تجاهلته وبدأت أبحث في جيبي ..

(دجن) بعبوس : وش تدور؟!

- دوائي كي تغرب عن وجهي ..

(دجن) : لا ما يحتاج بروح بنفسي!

اختفى (دجن) وبقيت أفكر بكلامه بهدوء ..

هذا ما حَدَث معنا

ترويض (هاجر) استغرق مني بعض الوقت .. وأنا أستخدم هذا المصطلح ليس انتقاصاً منها بل لأنها بالفعل في أيامها الأولى معنا كانت كالفرس الجامحة في آرائها وأسلوبها في الحديث معنا ومعي بالذات. وكأنها لم تتعود على تلقي الأوامر والتوجيهات وفي الوقت نفسه كانت راغبة بشدة في أن تبقى معي كتلميذة وتتعلم مني وهذا ما جعلها متقلبة المزاج لوقتٍ طويل قبل أن يستقيم سلوكها وتعتاد على التصرف بانضباط أكثر. كذلك ما زاد من اندفاعها بالحديث من وقت لآخر هو شعورها بأنها في منافسة مع (ماجد) للتقرب مني وهذا بالطبع لم يكن الحال أو الجو الذي كنت أريد خلقه ولم يكن هذا الأمر مهماً لأحد غيرها وأنا لن أنكر أن طول بالي عليها كان لأني رأيت فيها صفات إيجابية كثيره تخولها أن تكون معالجة ممتازة وإلا لكنت قد أنهيت وجودها منذ اليوم الأول.

بعد مضي عدة أسابيع على التحاق (هاجر) تلقيت اتصالاً من أمي تذكرني فيه بأن المهلة التي اتفقنا عليها قد انتهت منذ عدة أشهر وقد حان الوقت أن أتزوج وإلا يجب عليّ أن أعود وأقيم معهم كما كان الاتفاق. كنت قد نسيت الأمر برمته وصدمت حينما قامت بتذكيري

وفي لحظة ارتباك قلت:

«أنا تقدمت لخطبة فتاة بالفعل يا أمي ..»

بالطبع كانت ردة فعل أمي متضاربة بين الفرح واللوم والعتاب والبكاء .. اختلطت مشاعرها ولم تعرف كيف تعبر عنها لكن ما كانت متيقنة منه أنها كانت تريد مقابلة تلك الفتاة التي استطاعت أخيراً تقييدي وأسري وأنها لا بد أن توافق عليها وإلا فهي من سوف تقوم بالاختيار نيابة عني.

قطعت لها وعداً بأنها سوف تزورها قريباً وتلتقي بها وأخبرتها كذلك بأني لن أكون حاضراً كي تتمكن من «فحصها» كما تشاء وبالرغم من عدم اقتناعها بالسبب إلا أن شوقها للقاء تلك الفتاة التي أسرت قلبي طغى عليها وعلى جدالها معي ووافقت في نهاية المطاف.

أغلقت الاتصال وأنا في حيرة .. هل أرسل لها «مندسّاً»؟ .. الجن يمكنه التشكل كإناث لكنه ذلك قد لا يكون مقنعاً لأمي ولا يتمكن من إيهامها بأنني بحق وقعت في الحب. بعد تفكير مطول وجدت نفسي بحاجة إلي شخص حقيقي .. شخص ماكر يملك مهارة الإقناع ويملك لساناً ملتوياً مثل طرقه ولم يكن حولي وقتها أحد يملك مثل تلك الصفات سوى (هاجر) فقررت أن أستعين بها. استدعيتها وجلست معها في «مجلس الدروس» وشرحت لها الموضوع بالكامل.

(هاجر) بابتسامة خبيثة : وهل من مهام التلاميذ الزواج من معلميهم؟

- من قال إنه زواج؟ .. هذه مجرد خطبة صورية وأريدك فقط أن تقنعي أمي أنك فتاة مثالية ومناسبة لي

(هاجر) : ألهذه الدرجة تخاف من أمك؟

كنت مضطرّاً وقتها لتحمل وقاحتها وهي بدورها لم تفوت الفرصة لاستغلال حاجتي لها ومارست معي كل أنواع الجدال وإثبات عجزي في هذا الموقف لكني كظمت غيظي وقضمت وابتلعت كبريائي وقلت :

- أنا أحبها لذلك أراعي مشاعرها .. وهذا أمر من الواضح أنكِ لا تفقهين فيه شيئاً

(هاجر) : هل أحببت من قبل؟ .. هل تؤمن بوجوده من الأساس؟

- هل لديكِ سؤال مفيد؟

(هاجر) : نعم لدي .. لمَ كثير من حالات الحب تفشل؟

- لأنها تخلو من أهم عنصر لاستمرارها

(هاجر) : التضحية؟

- الاحترام .. الاحترام هو أساس الحب وأهم عنصر لاستمرار أي علاقة من أي نوع .. فمن لا يحترم شخصاً لن يراعي مشاعره أو يحبه بحق مهما حاول

(هاجر) بتودد غير مسبوق : ولِمَ لا تراعي مشاعري أنا؟

- لأنكِ لا تعنين لي شيئًا وخسارتكِ لن تؤثر سلباً على حياتي

(هاجر) بعبوس : لِمَ أنت وقح معي هكذا؟!

- حديثي معكِ محايد الشعور .. لا سلبي أو إيجابي .. إحساسك هذا نابع منكِ أنتِ لأنكِ تتحدثين وتسمعين بعواطفكِ

(هاجر) : وما الضير في التحدث بعواطفنا؟

- صاحب المنطق لن ينتصر أبداً في أي حوار مع المشحون عاطفياً لأنه سيحوله دائماً لجدال .. مثلما تفعلين الآن

(هاجر) : إذًا فكل همك هو الانتصار عليّ؟

- افهمي أنكِ مجرد وعاء .. وعاء سأملؤه بالعلم فقط ولا شيء آخر .. وإن كان هناك وقح بيننا فهو أنتِ والشيء الوحيد الذي يمنعني من الرمي بكِ خارجاً هو أني أرى مقوماتكِ وقدراتكِ لتحمل هذا العبء متجاهلاً تقلباتكِ المزاجية الحمقاء .. وتذكري أن من تهزه الأقاويل ستدمره الأفعال .. فلا تكوني هشة وتحلي ببعض الجلد فنحن لسنا في نزهة

(هاجر) بخليط من التهكم والتحدي : فهمت .. تريدني أن أكون مثل (ماجد) .. مجرد عبدٍ مطيع

- لا أرى قيوداً تقيدكِ أو أغلالاً تربطكِ .. باب الخروج أمامكِ

(هاجر) : هل ستتخلى عني؟
اغمضت عينيّ وفركت جبيني بكفي .. لا لصداع أصابني بل لغثيانٍ هيمن على جوفي من ذلك الحمق الذي يتدفق من تلك الفتاة .. بالرغم من يقيني من ذكائها وفطنتها إلا أن عقلها من وقت لآخر يصبح كالماء في بساطته والعهن في هشاشته لذا كنت أوثر الصمت وعدم الرد لأني لو رددت على كل تعليق يصدر منها سأنجرف معها في حمقها وسأنطق بأمور أعرف مسبقاً أني سأندم عليها لاحقاً.

عندما رأت (هاجر) بلوغي أقصى درجات صبري وتحملي معها وأني كنت على وشك إنهاء ما بيننا توقفت فجأة وتراجعت عن نقاشها العقيم وتعليقاتها السخيفة ووافقت على الذهاب لأمي بكل بساطة وهدوء.

هنا كنت في الحقيقة متعجباً .. لمَ كل هذا الجدال من البداية؟ .. لو كان مبدأً لما كُسر ولو كان قناعة لما تراجعت عنها بسهولة .. حينها بدأت أشعر بأنها تستمتع بإثارة غضبي وتستلذ بمناكفتي وإخراجي من سكينتي وهذا مؤشر كان يجب أن أنتبه إليه وقتها لكني لم أفعل ولا أدري لماذا.

في النهاية .. تمكنت (هاجر) من إنجاز مهمتها .. بل تفوقت وفاقت توقعاتي وأدت ما كان مطلوباً منها بكل براعة وكسبت قلب أمي واستحوذت على عقلها لدرجة أن كل اتصال وردني منها بعد ذلك

كانت تستهله بالسؤال عنها قبل أن تسأل عني وعن أحوالي ومع أول زيارة لي بعد ذلك اللقاء كانت عبارة أمي الأولى هي: «أين (هاجر)؟ .. لَمَ لم تحضرها معك؟»

لم أنقل لـ (هاجر) عظيم إنجازها فهي لم تكن بحاجة لمزيد من الزهو بالنفس لكني شكرتها بلا شك وأثنيت عليها وهي بدورها لم تبالغ في الغطرسة وكانت ممتنة لثقتي بها.

مضت الأيام وتحولت لأسابيع وشهور قضيتها في تلقين وتعليم (ماجد) و(هاجر) الكثير من العلوم والأسرار الروحانية. دروس وجلسات حوارية مكثفة في كل مجال يمكن أن يخطر أو لا يخطر على بالهما. غطينا الأعشاب والأدوية .. الأحجار والمعادن .. الهالة والأقران .. الجن والشياطين وقبائلها .. الأمراض والعلل .. الأحلام والكوابيس .. الأبراج والطوالع .. الظواهر والغيبيات .. الكتب والمخطوطات .. العلم وما وراءه .. وأكثر.

رممت هالاتهما باستخدام ماء البحر والصيام عن الكلام وبعض الأطعمة واتباع حمية خاصة لذلك بالإضافة لتغيير عادات نومهما ولبسهما واستمررنا على ذلك لعدة أسابيع حتى استعاداها بالكامل ثم قمت بتفعيلها لهما بعد ما شرحت لهما السلبيات والإيجابيات من ذلك وكيف ستتغير حياتهما بعد التفعيل وزودتهما بخواتم ليتحكما في تأثيرها عليهما خاصة عندما يختلطان بالناس.

كنت أعدهما للمرحلة التالية وهي تطبيق ما تعلماه لكنني كنت حريصاً ألا أنتقل إليها قبل أن أتيقن من أنهما تشربا ما فيه الكفاية كي لا يخطئا في تشخيص أو علاج وبالرغم من أن (ماجد) سبق (هاجر) بما يقارب العام إلا أنها لحقت به وكادت أن تتفوق عليه بسبب نهمها وتعلمها السريع خاصة وأن أسلوبها العام تغير للأحسن وأصبحت منصاعة ومطيعة أكثر ومتقبلة لأي شيء مهما كان غريباً ومخالفاً لما تعتقد أو تؤمن به.

خلال تلك الفترة كان دور (عواد) محدوداً ولم يختلف كثيراً عمّا كان يقوم به في السابق من توفير ما نحتاج والقيام بالمهام الروتينية من قضاء حوائجنا وتسهيل أمور حياتنا المعيشية خاصة وأننا نحن الثلاثة كنا منكبين فيما يشبه المعسكر المغلق ولم يهون عليهما تلك العزلة الدراسية سوى المتعة التي وجداها في كل علم جديد يكتسبانه.

حلت عزلتي الرمضانية الأولى مع (هاجر) والثانية مع (ماجد) وقبل دخولي فيها أوصيتهما بقراءة مجموعة من الكتب زودتهما بها من مجموعتي الخاصة التي احتفظت بها في القبو. كتب نادرة جدّاً تغوص في أعماق العلم الروحاني وعلم الطاقة المعالج وأخبرتهما بأني سأقوم باختبارهما في محتواها بعد خروجي ولو اجتازا ذلك الاختبار فسننتقل للمرحلة الثالثة .. مرحلة التطبيق العملي.

مضى الشهر الفضيل وخرجت من عزلتي ولم أجد أحدًا بانتظاري عند مدخل القبو سوى (عواد) فسألته : أين البقية؟

تبسم (عواد) وقال : في «مجلس الدروس» مثل كل يوم .. يقرأان ويدرسان وكأنهما يستعدان لمناقشة مشروع تخرجهما .. أعتقد أنهما لم يشعرا بأن رمضان انقضى

- جيد .. أنا سأتوجه لغرفتي وأبلغهما بأن اختبارهما سيكون الليلة .. وكن أنت حاضراً معهما كذلك

اجتمعنا في الموعد بحضور (عواد) الذي أحضر معه عشاءه وأخذ يتناوله وهو يراقبنا بصمت .. شطائر بيض كالعادة .. بدأت أرمي الأسئلة بين (ماجد) و(هاجر) دون توقف وكانا يجيبان بكل إتقان وبراعة ولا أنكر أنهما فاقا توقعاتي وبهراني قليلاً فلم يكن حفظهما للمعلومات خالياً من الفهم بل شعرت أنهما بالفعل تشربا العلم وربطاه بكل ما تعلماه سابقاً مني وشكلا منهجاً خاصّاً بهما في أذهانهما. وهذا ما كنت أريده.

أعجبني كذلك أن كلًّا منهما لم يكن نسخة مكررة من الآخر فـ(ماجد) كان له أسلوب مختلف في الإجابة عن (هاجر) وهي كذلك لم تتبع نمطه نفسه في تقديم الحلول. كانا وجهين للعملة نفسها .. مختلفين شكلاً متطابقين مضموناً.

حينما تيقنت من جاهزيتهما قررت أن أوجه لهما سؤالاً لم يحظَ أي منهما بالعلم الذي يمكنه من الإجابة عليه لأرى كيف سيتعاملان معه وبعد ما سألته تسمر الاثنان وشعرا بالعجز والخيبة خاصة بعد ما قدما بعض التخمينات الخاطئة فقالت (هاجر):

كنت أظن أننا وصلنا لمرحلة متقدمة من الفهم ..

- لا تجعل سقف توقعاتك عالياً كي لا يكون أثر سقوطه عليك مدمراً .. عجزكما عن الإجابة ليس مؤشراً على ضعف تحصيلكما لكن كان يمكن أن تقدما إجابات أفضل

(هاجر) : لكن هذا الموضوع لم نتطرق له من قبل يا معلمي ..

- أعرف ..

(ماجد) : لَم تسألنا عنه إذاً؟

- لأني لا أريدكما أن تكونا أوعية للحفظ فقط .. أريد أن تنميا قدرتكما على حل الأزمات الطارئة

(هاجر) : وكيف نقوم بذلك؟

- بالارتجال المتقن .. بتوظيف ما تعلمان للحصول على ما لا تعلمان

(ماجد) : لم أفهم

(هاجر) : أنا فهمت .. ولدي إجابة للسؤال

- أنا منصت ..

قدمت (هاجر) إجابة صحيحة .. لكنها لم تكن مريحة .. فالإجابة كانت صائبة بشكل دقيق ولا يمكن الوصول إليها من مجرد التخمين أو الاستنباط خاصة وأني ملم بالعلوم التي حصلا عليها وما قدمته لي كان مجالاً من المفترض أنه غريب ومجهول عليها فقلت : «من أين حصلتِ على هذه الإجابة؟»

(هاجر) : استنتجتها

- بناءً على ماذا؟ .. وكيف علمتِ بكل تلك المعلومات الإضافية؟

(هاجر) : هل ستصدقني لو أخبرتك بأني لا أعرف؟ .. شعرت فقط بأن ذلك هو الجواب والاستنتاج المنطقي

صمت ولم أعلق فجوابها قطعاً لم يكن استنتاجاً .. تلك الفتاة من النوادر .. فئة من البشر يسيرون على خط رفيع بين بعدنا والبعد الآخر .. هناك من همس لها بالإجابة .. وهي لا تعي ذلك

(هاجر) : هل اقترفت خطأ يا معلمي؟

- لا .. لقد أبليتِ بلاءً حسناً .. كلاكما .. وحان الوقت

(ماجد) : وقت ماذا؟

- حالتكما العلاجية الأولى..

وجهت نظري لـ (عواد) الجالس معنا منصتاً بصمت وقلت له : متى يمكنك توفير حالة؟

(عواد) : في الوقت الذي تشاء

- غداً .. أول العصر

(عواد) : اعتبر الأمر منجزاً .. ومجدداً .. أنت مدرك أننا في فترة عيد

- أعرف .. ولا يهم

(عواد) آخذاً قضمة من شطيرته : حسناً كما تشاء

أعدت نظري لـ (هاجر) و(ماجد) وقلت لهما : خذا قسطاً كافياً من الراحة اليوم فأمامكما اختبار مهم غداً

(هاجر) : كنت أنتظر هذا اليوم

(ماجد) : هل نحضر معنا شيئاً؟

- فقط عقولكما .. أراكما غداً

(هاجر) : معلمي .. اشتقنا للحديث معك .. هل يمكن أن تمنحنا بضع دقائق من وقتك قبل أن ترحل؟

- لأي غرض؟

(ماجد) : لا يهم .. المهم أن نتحدث معك .. لقد غبت عنا شهراً بأكمله ولم يكن لدينا سوى الصفحات والأسطر نتحدث معها

- ألم تتحدثا بعضكما مع بعض؟

(هاجر) : بلى لكن الحديث معك مختلف

- أنا لا أجيد الأحاديث الجانبية بلا هدف .. لذلك سأمنح كلًّا منكما سؤالاً سأجيب عليه وبعدها سأرحل

تبادل الاثنان النظرات لثوانٍ معدودة ثم قالت (هاجر) لـ (ماجد) : هيا اسأل!

(ماجد) : أنت من كان يريد الحديث فاسألي أنتِ

(هاجر) : لقد ارتبكت وأشعر أنه اختبار جديدٌ

(عواد) ملوحاً بيده الممسكة بشطيرته نصف المنتهية : أنا لدي سؤال .. لَمَ الذباب لا يريد تركي اليوم .. لَمَ يحوم حولي دونكم؟

- تقول بعض الأساطير إن الذباب يحوم حول الشخص المصاب بعلة أو مرض أو أن الموت قريب منه

(عواد) : هراء .. لا أصدق هذه الأشياء

- لاحظ أني قلت : «أساطير»

(ماجد) : وماذا تظن السبب يا معلمي؟

- أن (عواد) ببساطة لم يستحم يوم العيد

ضحك الجميع عدا (عواد) الذي تجهم وأخذ قضمة أخرى من شطيرته وأخذ يلوكها بوجه عابس..

(هاجر) رافعة سبابتها بوجه متحمس : وجدت السؤال!

- أنا منصت ..

(هاجر) : ما هو أكثر شيء تكرهه ويزعجك في الناس؟

- سؤال غريب يا (هاجر) .. كنت أظنكِ ستسألين عن أمر يخص ما تعلمناه

(هاجر) : أنا مهتمة لمعرفة جوابك يا معلمي ..

- سأجيب بعد ما تجيبين أنت على سؤالكِ ..

(هاجر) بإحباط : نحن لم نتفق على ذلك!

- ستسمعين جوابي بعد ما أسمع منكِ ..

(هاجر) : أكره في الناس أنهم يتعاملون معي وكأن لا وجود لي أو قيمة .. سراب أو طيف يعبرون من خلاله دون أن يلاحظوه .. شخص شفاف لا يراه أو يسمعه أحد حتى وإن صرخ بأعلى صوته ..

- الناس لن يروك لسببين .. إما أنك صغير جدّاً .. أو أكبر منهم بكثير

(هاجر) : وأنت يا معلمي ..هل تراني؟

- لقد استهلكتِ حق السؤال ..

(هاجر) بشيء من التأثر : أجبني على هذا السؤال فقط ..

لم يعجبني السؤال .. ولا طريقة طرحه .. وكان لا بد أن أوصل لها رسالة واضحة وصريحة بأن العاطفة هي ألد عدو يمكنه أن يفسد كل ما تعلمته فصمت وحدت بنظري عنها ولم أجبها لكنها أصرت وعاودت الكرة بقول : لمَ تتجاهلني؟

وهنا كان لا بد أن أضع حدّاً لذلك التجاوز فقلت : «أنا لا أتجاهلكِ لأني لا أراكِ من الأساس ..»

وكما توقعت لم يعجب (هاجر) الجواب وبدا الضيق عليها وقالت بصوت مختنق بدموع مكبوتة : هل تأذن لي بالانصراف ؟..

قلت ونظري للأمام : يمكنكِ الانصراف ..

نهضت وسارت بخطوات متسارعة نحو الباب وسمع الجميع انفجارها بالبكاء وهي تتوجه لغرفتها وتغلق الباب خلفها ..

(عواد) وهو يمضغ قضمة من شطيرته : أنا يجب أن أرحل كذلك .. لقد تأخرت

- رافقتك السلامة .. موعدنا غداً

بعد رحيل (عواد) ساد الصمت والهدوء في المكان لعدة دقائق قضاها (ماجد) في محاولة استجماع شجاعته للتحدث فقلت : قل ما عندك حتى ننهي يومنا ..

(ماجد) : لا أريد إغضابك بحديثي

- أنا لا أغضب بسهولة يا (ماجد) .. لا أشعر .. لا أتأثر .. ولا أهتم .. فغضبي حينما يطرأ ستشعر به .. ستشعرون به جميعاً .. لذا .. تحدث بحرية ..

(ماجد) : أريد سماع إجابتك .. على سؤال (هاجر) .. ما هو أكثر شيء نكرهه ويزعجك في الناس؟

- الاستغلال .. الاستشراف .. النفاق .. الغباء .. قائمة طويلة .. وبالكاد ذكرت بعضها

(ماجد) : لو طلبت منك تحديد أمر واحد فقط .. فماذا سيكون ..؟

- بلا شك الغباء .. فهو الصفة الجامعة والحاضنة لكل الصفات السيئة الأخرى .. فبدونه ستختفي معظم مشكلاتنا .. لكنه مستفحل في الكثير من العقول لدرجة أنه تطور وتحور لنوع فاخر من الحمق

(ماجد) وهو يهم بالنهوض : شكراً يا معلمي .. تصبح على خير

- .. (ماجد) ..

(ماجد) : نعم يا معلمي ؟..

- الوعي والإدراك أهم بكثير من الذكاء والفطنة .. هل تفهمني؟

هز (ماجد) رأسه بالتأييد قبل أن يسير خارجاً من المكان ..

حينها ظهر (دجن) وجلس بالقرب مني وقال وعيناه على باب المجلس : يا خي رحمتهم ..

- لماذا؟

(دجن) موجهاً نظره ناحيتي : مدري كيف متحملينك؟

- ولمَ لا تقول إني أنا من يتحملهم مثلما أتحملك؟

(دجن) باسماً : لا تنكر أنك مبسوط أني رجعت

- أنت مثل الذنب القديم الذي لا أستطيع نسيانه ولا يريد مفارقتي .. أنت لم تعد .. أنت مجرد خيال ..

(دجن) واضعاً ساقاً على ساق متحدثاً بخليط من السخرية والتهكم : مو أنت دايم تقول إن الخيال أجمل من الواقع؟ .. يعني أنا الآن أجمل من قبل ..

- حسناً أيها الجميل .. انصرف كي أنام

(دجن) ناهضاً من مكانه : أنا أصلاً عندي شغلة أبي أخلصها وماشي بدون ما تقول لي

قلت متهكماً : خيال مشغول؟ .. كيف؟

(دجن) : تعرف .. قاعد أعيشك الجو أني حقيقي وكذا

تبسمت ولا أعرف لماذا لكني قلت له : بالتوفيق يا ضاحك الثغر ..

اختفى (دجن) ..

وبعد رحيله بلحظات بدأت أسمع هطول المطر بغزارة في الخارج ..

من جمال المطر أنه مهما ارتفع صوت هطوله فهو لا يعكر صفو أي هدوء ..

لذا بقيت تلك الليلة في «مجلس الدروس» ولم أصعد لغرفتي ..

فالنوم ليس من الملذات التي أشتاق لها أو أمارسها بانتظام ..

على عكس التفكير .. أفرط فيه كثيراً وأنغمس ..

وتلك الليلة لم تكن استثناء .. أعتقد أني استهلكت قهوة تعادل ما أستهلكه في أسبوع حتى أشع نور الصباح من خلال نوافذ المكان ..

بعد أقل من ساعتين سمعت أصواتاً في المطبخ فخرجت بنية التوجه لغرفتي لأكمن قليلاً وأريح جسدي وعقلي لأصادف (هاجر) التي خرجت للتو بعد ما أعدت لنفسها وجبة خفيفة.

(هاجر) : صباح الخير يا معلمي ..

- هل نمتِ جيداً ؟

(هاجر) : لا لم أنم طيلة الليل

- ولمَ؟

(هاجر) : ربما للسبب نفسه الذي أبقاك مستيقظاً

- لا أظن ..

(هاجر) : هل تأمرني بشيء؟

- خصصي وقتاً للراحة قبل العصر .. أريدكِ بكامل قوتكِ

(هاجر) وهي تسير تجاه غرفتها بوجه متبلد : حاضر

وكما كان الاتفاق هاتفني (عواد) قبل الموعد بنصف ساعة ليفيدني بأنه تواصل مع حالة من الحالاتِ الكثيرة التي يرصدها ويسجلها عنده في حال ما قررت النظر إليها فأنا لا أستطيع تلبيتها جميعاً بل أتركها مرهونة بوقتي ومزاجي فلو دخلت هذا العالمِ بكل تركيزي فسوف أضيع في دهاليزه ولن أتمكن من إنقاذ الجميع وسأخسر نفسي.

الحالة كانت لرجل قد فقد عقله فجأة بعد ما كان شخصًا ناجحًا وذا مكانة ومركز مرموق وظيفيّاً واجتماعيّاً وأسباب جنونه كانت مجهولة ولم يقدم الطب لأهله سوى التفسيرات المعتادة والعقاقير المخدرة المتعارف عليها لكن ما جعل (عواد) يشك أنه ليس مصاباً بعلة عقلية «طبيعية» هو مجال عمله الذي يتطلب منه السفر المستمر بالإضافة لثرائه الفاحش ولقناعته أنه قد يكون تعرض لـ «عمل» ما، قام بفحصه مبدئيّاً بناءً على طلب أسرته ليتحول شكه ليقين وفي العادة علم (عواد) المحدود يمكنه من صرف العلاج المناسب لمثل

هذه الحالات لكن ما فهمته منه أن الرجل مربوط بعمل معقد جدّاً وقد يكون متعدداً وأكثر من عمل في الوقت ذاته خاصة وأن المصاب عدائي جدّاً ويعتدي جسديّاً على كل من يقترب منه لذا وجدته بداية جيدة لتلميذيّ المبتدئين في مسيرتهما كمعالجين.

استقللنا السيارة وقادنا (عواد) لمنزل الرجل حيث كان يقيم مع عائلته وبعد استقبالنا قادونا لغرفته المغلقة والتي لا تفتح إلا لإطعامه وتنظيفه فهو لا يستخدم المرحاض بشكل طبيعي ويستلزم الأمر معاونته من وقت لآخر.

وقفنا نحن الأربعة عند مدخل الغرفة المقفلة وبجانبنا أحد أبنائه ينتظر منا الإشارة ليفتح لنا الباب وقبل أن نعطيها له وجهت كلامي لـ (ماجد) و(هاجر) اللذين لم يخفيا ارتباكهما وقلت: «شخصا الحالة .. حددا السبب .. وأخبراني بالعلاج ..»

وقتها سمعنا صراخاً قويّاً قادماً من وسط الغرفة .. صرخة غضب وسخط تبعها صوت ما يشبه الضربات على سطح خشبي صلب.

(هاجر) بتوتر: كنت أظن أننا سنعالج مريضاً ..

(ماجد): هل ستدخلان معنا؟

(عواد): عملي ينتهي لهذا الحد

- لا تقلقا سأكون بالقرب منكما لكن تهيأا لأي مفاجآت

أومأت للشاب بفتح الغرفة بعد ما وجهته بالرحيل مباشرة حينما يقوم بذلك وما أن طَقَّ صوت القفل حتى فُتح الباب وخرج منه رجل طويل القامة أصلع الرأس كثيف الشارب لا يلبس سوى ملابس داخلية ممزقة وملطخة ببقع صفراء واندفع نحونا مزمجرًا كالوحش ولم يتوقف حتى قبض على عنق (ماجد) وطرحه أرضاً وكاد أن ينهال عليه بالضرب لكن (هاجر) انطلقت ودفعته بجذع جسدها وأبعدته عن زميلها. نهض الرجل مباشرة وأمسكها من شعرها وأخذ يشده ويهز رأسها مطلقاً سيلاً من الشتائم النابية.

هرب الشاب من المكان كما وجهته وبقيت أنا و(عواد) نراقب ما يحدث بصمت وهدوء فهذه ليست المرة الأول التي نشهد فيها حالة «مس» من هذا النوع. أشرت بسبابتي لـ (ماجد) وقلت ببرود: «حررها من قبضته قبل أن يؤذيها ..»

(ماجد) صارخاً: هذا مجنون وليس مريضاً!

- لا تضيع الوقت وخلص زميلتك

جرى (ماجد) نحو الرجل الهائج وحينما أصبحت المسافة بينهما بضعة أقدام وجه الرجل له لكمة قوية رفعته في الهواء وأسقطته مغمىً عليه و(هاجر) ممسكة بكلتا يديها على قبضة الرجل الأخرى المتشبثة بقما

رأسها وهي تصرخ بخليط من الألم والسخط. اقترب (عواد) مني وهمس في أذني قائلاً : «هل هناك حكمة غائبة عني لتعريضهما لمثل هذا الموقف؟»

- أريد أن أرى إن كان سيحمي صاحبه

(عواد) : من تقصد؟ .. عمن تتحدث؟

وقبل أن أجيب على (عواد) تعرض الرجل الهائج لدفعة قوية رمت به لأقصى المكان ليرتطم بالجدار مسقطاً (هاجر) من يده لكنه تماسك وحافظ على توازنه وهز رأسه محاولاً استعادة تركيزه. وجه الرجل الثائر نظره لـ (هاجر) والزبد يقطر من فمه وهم بالهجوم عليها مجدداً لكنه لم يلحق لأنه تعرض لهجوم آخر من قبل شيءٍ خفيٍّ لا يمكن رؤيته صارعه وصرعه ولم ينفك عنه حتى أفقده الوعي بضرباته المتتابعة.

(هاجر) وهي تتنفس بثقل : ما الذي يحدث؟!

- ما هو تشخيصك للحالة؟

(هاجر) وشعرها منكوش وأنفاسها المتسارعة تدخل وتخرج من خلال فمها : تشخيص ماذا؟!

- الحالة ..

(هاجر) : أنا من يحتاج تشخيصاً وفحصاً وليس هو؟!

أشرت لـ (عواد) بمعاونة (ماجد) على النهوض بعد ما لمحت حركة منه ..

(هاجر) موجهة حديثها لي خلال مراقبتها (عواد) يعاون (ماجد) على النهوض : لَم لم تساعدنا؟

- لن يكون اختباراً حقيقيّاً لو تدخلت وساعدتكما في التشخيص

(ماجد) بإرهاق وتعب وهو متكئ على كتف (عواد) : عن أي اختبار تتحدث؟ .. لقد كان نزالاً وليس تشخيصاً

- هل تظنان أن كل الحالات التي ستقابلانها ستكون مستلقية على سرير؟

(هاجر) ماسحة نزيفاً بسيطاً من أنفها بأناملها : من طرح الرجل وصرعه؟

- .. (دجام) ..

(هاجر) : تقصد قرين (ماجد)؟

- نعم .. كنت أريد رؤية إلى أي مدى سيكون تدخله لو تعرض صاحبه لخطر يهدد حياته

(ماجد) : هذه أول مرة يتدخل لإنقاذي

- وما أدراك؟ .. أحياناً لن تعلم ولن تدرك ما يقوم به قرينك وخير مثال أنه لم يتدخل إلا بعد ما أغمي عليك والجيد أنه لم يقتل الرجل وهذا دليل أنه يتدخل للحماية فقط

(هاجر) : وقريني أنا .. لَمَ لم يتدخل لإنقاذي؟

(عواد) ضاحكاً ومتهكماً وهو سائر بـ (ماجد) عائداً للسيارة : ربما لا يحبك وكان مستمتعاً بتعنيف ذلك الرجل لكِ!

بعد خروجهما من المكان وجهت (هاجر) نظرها نحوي وقالت بعبوس : هل كلامه صحيح؟!

- من المفترض أنكِ وصلتِ إلى مرحلة من العلم تعرفين من خلالها أن قرينك لم يتدخل لأنه ليس محرراً ..

(هاجر) : حرره لي إذاً!

تجاهلتها وسرت خروجاً من المكان ..

ركبت في المقعد الأمامي للسيارة وألقيت نظرة على (ماجد) المرهق في الخلف حينها حدثني (عواد) من مقعد السائق وقال : أين الآنسة؟

نظرت للأمام وقلت : ستأتي ..

(دجن) من الصف الثالث للمقاعد : شكلها ضيعت الباب من الهبد اللي جاها ..

وجهت حديثي لـ (ماجد) وقلت : هل تمكنت من تشخيص الحالة؟

(ماجد) بصوت مرهق لكن واثق : حالته ناجمة عن عمل سحري مزدوج .. سحر مأكول وربط بأثر .. وهذا ما أوصله لتلك الحالة ..

(عواد) مشاركاً في الحوار : الفاعل كان يريد السيطرة عليه بشدة لذلك لجأ لتلك الطريقة لكنه أخطأ .. فالسحر المأكول إذا دمج بسحر الربط بالأثر يؤتي نتيجة عكسية .. في الغالب من قام بذلك زوجة ثانية أو شخص يريد الاستحواذ على أمواله

بعد عدة دقائق خرجت (هاجر) برفقة أحد أبناء الرجل وكان يودعها بحرارة ويسلم عليها بكلتا يديه ومن الواضح أنه يشكرها. سارت بعدها نحونا وركبت السيارة في المقعد الخلفي بجانب (ماجد) محدقة أمامها ولم تقل شيئاً.

خاطبتها دون أن ألتفت نحوها وقلت : ماذا وصفت له؟

(هاجر) وهي عاقدة أذرعها وبوجه عابس ونظر موجه للمنزل من النافذة : أن يسقوه منقوع «الرمث» و«العاقول»

- والجرعة؟

(هاجر) : مرة واحدة كل مساء لثلاثة أيام فقط وألا تكون الأيام خلال مراحل اكتمال القمر

- وكيف نصحتهم بأن يسقوا رجلاً هائجاً هذا الشراب؟

(هاجر) : بأن يضعوه في ماء شربه المعتاد فالتركيز ليس مهماً

رفعت كفي وأشرت لـ (عواد) بالتحرك والعودة بنا للمنزل ..

(دجن) : ولا تنسين تشربين دلة عُصفر من الروعة ..

المُعَمّمُ الأعمى

تلميذاي أثبتا لي في الأيام التي تلت ذلك اليوم أنهما مؤهلان لتولي مهام وحالات أخرى وهذا ما حدث بالفعل فقد وجهت (عواد) بجلب المزيد من الحالات وكنا نخرج نحن الأربعة معاً مرة أو مرتين يوميّاً لزيارتها وتشخيصها وتقديم الحلول والعلاجات. تلك الزيارات زودتهما بالخبرة الميدانية التي ثبتت ورسخت العلم الذي اكتسباه مني نظريّاً خلال الأشهر الماضية وكذلك قربتنا أكثر بعضنا من بعض على الصعيد الاجتماعي وقوت اللحمة بيننا وأصبحنا كعائلة واحدة نوعاً ما.

مع تزايد الحالات والمهام التي كنا ننجزها بدأت ألاحظ تبايناً بين قدرات (هاجر) و(ماجد) فكلاهما كان متمكناً ومتقناً فيما يقوم به لكن هي تفوقت عليه قليلاً في إجادة وصف العلاجات وتراكيب الخلطات وهو تميز بالتشخيص الدقيق وكشف أسباب العلل.

كنت أستمتع بالإنصات لهما حينما نعود كل يوم من رحلة علاجية وهما يناقشان ما حدث معي وبينهما بحماس وكانت تلك النقاشات مصدر تعليم إضافي لهما لأنها علمتهما على التعاون وتبادل الخبرات فيما

بينهما وفي الحقيقة نادراً ما كنت أساعدهما في شيء فتمكنهما وقدراتهما كانت عالية ونهمهما للتعلم واستيعابهما السريع فاقا توقعاتي لذا قررت بعد مضي عدة أشهر أن أثق بهما وأتركهما يخرجان وحدهما دوني مع (عواد) وبالرغم من أنهما حاولا إقناعي بالاستمرار بمرافقتهما إلا أني وضحت لهما أنهما وصلا لمرحلة لا تستدعي وجودي وأنهما جاهزان لتولي الأمر بأنفسهما وألّا يستعينا بي إلا في حالة تستعصي عليهما وهذا لم يحدث إلا مرة أو مرتين على الأكثر خلال ما يقارب العام.

بالرغم من ابتعادي المحدود إلا أني كنت آخذ من (عواد) تقريراً يوميّاً عنهما وعن ممارساتهما وطريقة تعاملهما مع الحالات وكنت راضياً عما أسمع منه ومسروراً للمرحلة التي وصلا إليها.

صباح أحد الأيام دخل عليّ (ماجد) في مطبخ الطابق السفلي وأنا أعد لنفسي وجبة فطور خفيفة وقال باسماً : ماذا تعد يا معلمي؟

- فطيرة زعتر بالليمون .. هل أعد لك واحدة معي؟

(ماجد) ملوحاً بكفه باسماً : لا، شكراً .. لا أظنني سأستسيغها

- هل جربتها من قبل؟

(ماجد) : لا ولكني واثق من أني لن أحبها

- ومن أين حصلت على هذه الثقة إن كنت لم تجربها من قبل؟

(ماجد) : مجرد شعور ..

- الشعور وحده ليس سبباً كافياً للحسم ..

(ماجد) ممازحاً : هل هذا درس آخر تريد إيصاله لي بطريقة غير مباشرة؟

- جرب وستعرف الجواب

صوت (هاجر) مقاطعاً لحوارنا من وسط بهو المنزل : لا تجرب يا (ماجد) .. أنا جربتها قبلك ولم تعجبني فهي مقيتة!

أجبتها ممازحاً بصوت مسموع لها : لم يسألكِ أحد!

(هاجر) ضاحكة : حسناً يا معلمي كنت أحاول المساعدة فقط! .. أنا خارجة .. (عواد) ينتظرنا في السيارة .. لا تتأخر يا (ماجد)!

(ماجد) مستأذناً للخروج : وأنا ذاهب كذلك يا معلمي .. هل تريد مني شيئاً؟

قلت وأنا ألف الفطيرة في منديل ورقي : ما الحالة التي ستزورونها اليوم؟

(ماجد) : طفل رضيع يصاب بكدمات متعددة في جسمه دون سبب طبي واضح

مددت الفطيرة له وقلت : هل لديك فكرة عن السبب؟

(ماجد) وهو يأخذ الفطيرة بابتسامة مجاملة : ما يحدث له تمهيد لتبديل .. أعتقد أن أمه تتركه وحده كثيراً و«وقية» ما لاحظت ذلك وقررت خطفه واستبداله

- هل تعرف لمَ يسمون بالـ «وقية» ؟

(ماجد) : لأن أشهر جنية كانت تقوم بذلك قبل مئات السنين كان اسمها (الوقية) ومنذ ذلك الوقت سمي كل من يقوم بمثل أفعالها بالاسم ذاته

- صحيح .. (الوقية) كانت من أعتى خاطفي الأطفال في الجاهلية ولم تتوقف حتى قتلتها ساحرة عربية

(ماجد) : كنت أظن السحرة لا يكترثون لأمر الناس

- تلك الساحرة كانت في الأصل معالجة لكنها انخرطت في السحر لاحقاً

(ماجد) : حكايتها تبدو مشوقة .. هل هناك كتاب يحكي عنها؟

- نعم .. أملك كتاباً يتحدث عن حياتها بالتفصيل في أحد فصوله .. حكاية «عانكة ابنة عَتَاب» أشهر معالجة قطنت الجزيرة العربية .. عندما تعود نهاية اليوم قم بتذكيري وسأعيرك الكتاب لتقرأه

أخذ (ماجد) قضمة من الفطيرة لتتسع عيناه عجباً ثم قال : طعمها

لذيذ جدّاً! .. لِمَ لم أعرف عنها من قبل!

قلت بخليط من المزاح والتهكم : لأنك اتبعت شعورك وكذلك كدت أن تسمح لرأي غيرك أن يوجهك .. لا تفعل ذلك أبداً .. واحكم دوماً بنفسك .. جرب كل شيء ولو لمرة واحدة على الأقل .. فالخبرة ليست كالعلم ولا تكتسب إلا بالتجربة

(ماجد) وهو يأخذ قضمة أخرى : أنا حقّاً نادم على عدم تجربتها من قبل!

تبسمت وقلت : سوف أعدها لك في كل مرة أقوم فيها بإعدادها لنفسي

(ماجد) : أنا أطمع في تعلم الوصفة منك

- حسناً لك ذلك ..

قوطع حوارنا حينما رن هاتف (ماجد) المحمول فقال وهو يهم بالرحيل : لقد تأخرت عليهما .. يوماً سعيداً يا معلمي!

سار (ماجد) مهرولاً تجاه باب الخروج ليلتحق بالبقية ..

عدت أنا لما كنت أعمل وبدأت بإعداد وجبة أخرى ..

ظهر (دجن) من خلفي وأطل من وراء كتفي ثم قال : وش قاعد

تسوي؟

- غدائي ..

(دجن) : غدا الصبح؟

- هذا الطبق يحتاج وقتاً لينضج ويجب أن أحضره باكراً

(دجن) : مو كأنها ذي الهريسة ما غيرها؟

- بلى ..

(دجن) : مو كنت تقول ما لها طعم وأنك تكرهها

- أنا لا أكرهها ولا أحبها ..

(دجن) : ليه قاعد تسويها أجل؟

قلت وأنا أقلب محتوى القدر قبل أن أغلقه وأتركه على نار هادئة : اكتشفت لاحقاً أنها مفيدة

(دجن) متراجعاً للخلف بضع خطوات : مفيدة لإيش؟ .. تمشي البطن؟

تجاهلت تعليقه وسرت نحو باب الخروج قائلاً : أنا من سيمشي ..

في المساء وبعد عودة الجميع من يومهم الطويل اجتمعنا نحن الأربعة

على مائدة أرضية حوت أصنافاً متعددة من الأطعمة والحلويات جلبوها معهم من الخارج وكان فيما يبدو أنهم يريدون الاحتفال بمناسبة ما. قلت وأنا أجلس عند طرف بساط المائدة الممتدة : ما كل هذا؟

(هاجر) وهي تضع طبقاً آخر على المائدة : عشاء بسيط للاحتفال

- الاحتفال بماذا؟

(عواد) : هما من أصرا على ذلك بالرغم من أنني أخبرتهما بأنك لا تحب الاحتفالات

- وما زلت ..

(دجن) من ورائي : لأنك نفسية ..

(ماجد) : اليوم أكملنا أنا و(هاجر) علاج الحالة المائة ..

- وهل هذا أمر يستحق الاحتفال؟

(عواد) : أخبرتكما بأنه لن يحب ذلك

- لا أبداً لا أمانع بالاحتفال لكني توقعت سبباً مختلفًا .. ثم إني لا أكل كثيراً خاصة بالليل

(عواد) : اترك موضوع الأكل لي ..

(هاجر) بخيبة : ألم يعجبك ما قمنا به؟

تبسمت وقلت : بلى .. أنا سعيد لأنكما وصلتما لهذه المرحلة وهذا أمر يستحق الاحتفال

ابتهجت (هاجر) ودعتنا للبدء بالأكل قبل أن يبرد ..

بعد العشاء الثقيل جلست مع (عواد) نتناول القهوة ونتجاذب أطراف الحديث بينما قام (ماجد) و(هاجر) برفع الأطباق وتنظيف المكان وبعد ما انتهيا انضما إلينا لكن (عواد) استأذن بالرحيل وقال : «موعدنا غداً أول العصر بإذن الله ..»

(هاجر) : هل سنزور حالة جديدة؟

(ماجد) : بالعادة لا نخرج يوم الجمعة

- لن نزور حالة للعلاج غداً .. ستكون زيارة مختلفة

(دجن) : مو يوم الجمعة تروح تزور أمك ؟.. وين ناوي تروح؟

(هاجر) : هل ستخبرنا عنها؟

(عواد) ملوحاً بكفه قبل أن يهم بالرحيل : تصبحون على خير

بعد ما أغلق (عواد) الباب خلفه وجّه (ماجد) نظره لي وقال : هل سنخرج في نزهة غداً؟

تبسمت وقلت : لا .. ستكون أشبه بالجولة الميدانية

(هاجر) : لأي غرض؟

- لرؤية نموذج لما لا أريدكما أن تكونا أو تصبحا عليه

(هاجر) : لم أفهم

- أريد منكما أن تجيباني على هذا السؤال .. سبب العلل والعلاجات التي تصفانها للناس وطرق التشخيص التي تتبعانها .. لو سألكما أحد المستفيذين منها عن محتواها ومضمونها أو مصدر علمكما بها .. فهل ستخبرانه؟

(ماجد) : أعتقد أنهم يستحقون مثل هذا التفسير .. لا أحد يتناول دواء دون معرفة محتواه والمريض له الحق في معرفة سبب علته ومصدرها

- وأنتِ يا (هاجر) .. ما رأيكِ؟

(هاجر) : لا دخل لهم فيما أصفه لهم ولماذا .. المهم أن يستفيدوا فقط وهذا هو حدود حاجتهم .. ومعرفتهم قد تقودهم وتدفعهم لاتهامي بالسحر والشعوذة فقط لأنهم لا يفقهون معنى علاج روحاني

- هل سمعت يا (ماجد)؟ .. (هاجر) محقة .. العقول مستويات من حيث استيعابها وإدراكها للأفكار المطروحة بحيث تجد أن بعض الناس يتعامل مع الفكرة العميقة على أنها بسيطة وسطحية فقط لكونه حكم على ظاهرها ولم يتمكن من هضمها بالكامل وهذا ليس نقصاً في الفكرة أو انتقاصاً لمن لم يتمكن من فهمها ..

فقط تفاوت مقدر في القدرات .. لذا لا تقدما أي تبرير أو تفسير لأي حالة تعالجانها ولا تظن لوهلة أن مساعدتك لهم ستشفع لك عندهم كي لا يلحقوا بك الضرر

(ماجد) : ضرر مثل ماذا؟

- سأعطيك مثالاً حدث عندما كنت أنا و(عواد) في أيامنا الأولى نقدم العلاجات .. عالجنا حالة «مس» متقدمة تعرضت لها امرأة عجوز تسكن في البادية بدأت تأكل اللحوم النيئة فقط مما دفع أبناءها للبحث عن حل لها بعد تيقنهم من أنها ليست مصابة بمرض نفسي عابر أو خرف

(ماجد) : أكل اللحم النيء من علامات مس جن «القطون» .. أعتقد أنها تغوطت ليلاً في الخلاء دون بسملة أو استعاذة

- بالضبط

(هاجر) : علاج هذا النوع من المس شاق ومرهق للممسوس والمعالج على السواء

- وهذا ما قمنا به أنا و(عواد) على مدى خمسة أيام متواصلة .. وبعد ما انتهينا وتماثلت للشفاء سأل أحد أبنائها (عواد) عن محتوى الخليط الذي كنا نسقيها إياه كل يوم

(هاجر) واضعة كفها على فمها : وهل أخبره؟

- نعم .. وهذا ما دفعهم لإبلاغ الشرطة وتحرير بلاغ ضدنا أننا ساحران متجاهلين حقيقة شفاء أمهم من علتها

(ماجد) : وماذا حدث؟

- لم يحدث شيء .. أنا لا أتقاضى أموالاً مقابل ما أقدمه للناس لذا بعضهم يحفظ المعروف والكثير منهم يملكون سلطة ومكانة اجتماعية ولم يستلزم الأمر مني سوى إجراء مكالمة مع أحدهم لينتهي الموضوع .. لكن المهم في القصة هو أني أريد أن تفهما أن الناس ليسوا دائماً مصدراً للثقة حتى وإن كنت قد قدمت لهم خدمة أو معروفاً ولا تثقا أبداً بأنهم سيفهمون أو يتفهمون الطرق التي نستخدمها

(هاجر) : كلامك هذا يا معلمي ذكرني بسؤال يراودني دائماً في كل مرة نخرج فيها لعلاج حالة ما

- ما هو؟

(هاجر) : لِمَ لا نتقاضى أموالاً مقابل خدماتنا؟ .. لو فعلنا لأصبحنا من الأثرياء

- لأن هذا ليس هدفنا .. نحن حاملون لعلم ولسنا متاجرين به .. اليوم الذي تأخذان فيه مقابلاً لخدمة الناس هو اليوم الذي يحق فيه تسميتكما بالمرتزقة

(ماجد) لـ (هاجر) : هناك قيمة أعظم من المال في تقديم ومد يد العون للناس

هاجر) : المعلم لن يصرف علينا للأبد .. ماذا سنفعل حينما نستقل عنه؟ .. كيف سندير شؤون حياتنا؟

- ابحثي عن مصدر رزق آخر ولا تجعلي من «علم الأولين» مصدراً للتكسب

(هاجر) : لقد انسحبت من الجامعة لأتفرغ لتعليمي هنا

- وستعودين لها قريباً .. تعليمكما شارف على الانتهاء

(ماجد) : كم بقي لنا؟

- العام الدراسي الجديد سيبدأ بعد شهر .. وقتها يمكن لأي منكما الرحيل .. أنتما مستعدان الآن للاستقلال بأنفسكما .. ومن يريد البقاء فهو مرحب به .. وبالنسبة لكِ يا (هاجر) سوف أستمر بصرف راتبك حتى تقفي على قدميكِ

(هاجر) : ماذا لو أحببت إكمال دراستي وأنا هنا؟ .. أهلي لا يزالون يعتقدون أني أدرس في جامعة أخرى خارج المدينة

- كلاكما مرحب به إلى أجلٍ غير مسمى

(هاجر) : شكراً يا معلمي

(ماجد) : نحن بحق ممتنان لك

- الآن .. لنعد لموضوعنا الأصلي .. زيارتنا غداً .. كي تكونا معالجين كفؤين يجب أن تلقيا نظرة على معالج محتال وتريا كيف يمارس عمله .. فمثلما يوجد معالجون حقيقيون هناك العشرات في المقابل ممن هم جهلة مندسون بهدف الارتزاق على أوجاع الناس .. فئة فاسدة تستغل ضعف هؤلاء المساكين وحاجتهم للعلاج لتستغلهم مادياً وجسدياً .. هؤلاء هم القطعة الفاسدة في مجتمعنا الروحاني وللأسف هم السواد الأعظم

(هاجر) : وهذا الذي سنزوره غداً .. لمَ وقع عليه الاختيار بالذات دون غيره؟

- لأنه من أسوئهم .. يدعي أنه «شيخ» وهو «متمشيخ» حقير

(ماجد) : ما الفرق بين «الشيخ» و«المتمشيخ»؟

(هاجر) : «الشيخ» هو شيخ الدين على ما أظن

- لا يوجد شيء اسمه «شيخ» دين .. نحن مبتلون بـ «متمشيخين» فقط

(هاجر) : لا أفهم .. كيف لا يوجد شيء اسمه شيخ دين؟

- أنصتا لي جيداً لأن ما سأقوله مهم جدّاً في مسيرتكما كمعالجين .. لا يوجد شيء في الإسلام اسمه «شيخ دين» أو «عالم دين» وهذه المصطلحات ظهرت لاحقاً بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم

وخلفائه الراشدين من بعده ولم يلقب أحدهم نفسه بهذه الألقاب وكذلك الصحابة الذين عاصروهم والتابعون الذين تبعوهم .. لكن لنتجاوز هذه النقطة الآن كي لا نغرق في بحرها الواسع ونكتفي بتعريف المصطلحين :

«الشيخ» لغة واصطلاحاً هو من تقدم في العمر وأدركته الشيخوخة وأصبح شيخاً وهي في الغالب تبدأ بعد الخمسين إلى الستين وما زاد على ذلك يسمى «كهلاً» وهذا المصطلح يُطلق أيضاً على من يَتقلد منصباً إدارياً في بعض القرى ويسمى بـ «شيخ البلدة» بمعنى المسؤول عنها وفي الإسلام نُسب لمن يتفقه في الدين ويطلب علمه ويصل لمرحلة من الزهد والتصوف تجعله (من وجهة نظر البعض) حالة استثنائية من التقوى والورع ما يستلزم تصنيفه فوق البقية لذا استخدم مصطلح «شيخ» للمسلمين مثلما استخدم لقب «شيخ» البلدة و«شيخ» الصيادين و«شيخ» التجار و«شيخ» القبيلة و .. و .. كناية عن كبيرهم الذي علمهم العلم فلقب «شيخ» ليس أمراً خاصّاً بالدين إنما هو تصنيف إداري بحت يضع صاحبه في مرتبة أعلى من غيره من الذين يمتهنون مهنته نفسها أو ينتهجون منهجه نفسه أو حتى تابعين له.

فلنأتِ الآن للمصطلح الآخر .. «المتمشيخ» .. وهو بكل بساطة من يتظاهر خارجيّاً بأنه «شيخ دين» ومن داخله خواء ولا يملك أيّاً من

المقومات التي تجعله مستحقّاً لذلك اللقب وللتوضيح أكثر لو أن شخصاً لبس لباس الصيادين واشترى أدواتهم وبدأ يخطب فيهم ويتحدث معهم ويأمر وينهى بينهم فهذا لا يجعل منه «شيخاً» عليهم إذا لم يكن بالفعل خبيراً بأمورهم ومعترفاً به منهم.

وهكذا الحال مع كل من يدعي المشيخة فيما عدا مشيخة الدين للأسف فتقمص تفاصيل الشكل الخارجي لما يعرف بـ«شيخ الدين» سهل جدّاً وتنطلي بسهولة على المغيبين ولن أخوض فيها لأن أغلبنا يعرف ما هي.

(هاجر) : لمَ يصدقهم الناس إذًا ويسيرون خلفهم؟

- المصيبة الحقيقية هي أن بعض «المتمشيخين» ظاهريّاً لم يدعوا يوماً أنهم أصحاب حل وعقد لكن الناس يزكونهم قولاً وعملاً ويقدمونهم على غيرهم ويبجلونهم ويدفعونهم دفعاً كي يبدؤوا بالتكلف والتظاهر بالوقار وهم في الأصل ربما لم ينووا ذلك لكن مغريات الاحترام والتبجيل تكون أقوى منهم فيضطرون للانخراط في تلك التمثيلية التي تدر عليهم مكاسب مادية واجتماعية لا تحصى مما يقود هذا النوع من «المتمشيخين» لنسيان نفسه أحياناً أو بالمعنى الدارج «يصدقها» ويبدأ بالدخول في نقاشات محمومة ويسترسل بالتنظير في التحليل والتحريم ويصل لمرحلة من تصديق الذات يظن فيها نفسه نبيّاً.

(ماجد) : لِمَ يفضلون «التمشيخ»؟ .. لِمَ لا يحتالون على الناس بطرق أخرى؟

- قناع التقوى هو المفضل للشر دوماً .. فهو أكثر الأقنعة سهولة في الارتداء وبثّاً للطمأنينة والطُعم الأنسب لكل فريسة حذرة

(ماجد) : ومن سنزوره غداً من هذا النوع؟

- بل أسوأ .. هذا المجرم حكى لي عنه (عواد) قبل فترة وشدتني طرقه المقيتة في التشخيص أو بالأحرى في التحرش بمن يلجؤون إليه إن صح التعبير فبدل أن يبصق بركته على المعتل كالمعتاد والشائع اتخذ وسيلة أخرى لإيصالها

(هاجر) : وماهي تلك الطريقة؟

- باللحس ..

(هاجر) بتقرف : اللحس؟

- نعم .. هذا المتمشيخ الوضيع يلحس ضحاياه وأماكن العلة فيهم مدعياً أن تلك الطريقة لها تأثير أقوى لإيصال بركته من مجرد البصاق .. يلحس الأيادي والأعين والرؤوس وأي شيء يريده بحجة العلاج .. والمؤسف أن الناس لا يبدون أي مقاومة لأن أنفسهم مكسورة بسبب المرض ومستعدون للتضحية بأي شيء في سبيل التخلص من ألمهم

(ماجد) : ماذا لو كانت العلة في قدمي؟

- سؤال وجيه ..

(هاجر) : وهل يمارس هذه الطريقة المقرفة مع الجميع؟

- ماذا تقصدين؟

(هاجر) : أقصد الجميع ..

- في الحقيقة القصص التي رواها لي (عواد) مقززة .. حتى الأطفال لم ينجوا منه والمحزن أن ذلك يحدث تحت مرأى ومسمع أهليهم ورضاهم .. أبشع مثال ذكره لي (عواد) كان لفتاة فقدت النطق ادعى أن لحس لسانها سيعيد القدرة لها على الكلام

(دجن) من الخلف : هذا قطو مو شيخ ..

(ماجد) : ما الهدف من زيارتنا يا معلمي؟ .. ما سمعته فقط أثار غضبي ولا أريد أن أراه أمامي كي لا أنهال عليه بالضرب

- ولأننا سمعنا فقط لن نحكم قبل أن نرى بأعيننا فحتى ما نقله لي (عواد) جميعها قصص وروايات ويجب أن نتحقق بأنفسنا

(ماجد) : وكيف سنتحقق؟

- لدي خطة ..

(دجن) متهكماً : شناوي عليه؟

(هاجر) : خطة ماذا؟

- سيأخذنا (عواد) غداً لمنزله وهو نفسه المقر الذي يزاول فيه عمله المشبوه وسندعي أن (هاجر) ابنتي وسنحاول الدخول عليه لرؤية حقيقة ما يروى عنه

(هاجر) باسمة بتغنج : ومن ماذا سأشكو يا أبي؟

(دجن) : هذي شفيها مبسوطة؟

- لا يهم .. عندما ندخل عنده ونقف أمامه وقتها سأفكر بشيء .. اخلدا للنوم الآن وكونا جاهزين غداً ..

ضحكت (هاجر) وتبسم (ماجد) ..

استغربت مما قاما به وسألت : ما بكما تضحكان؟

(ماجد) واضعاً يده على فمه مخفياً ابتسامته : المعذرة يا معلمي لكن في كل مرة تطلب منا النوم لا نستطيع حجب ضحكاتنا

(هاجر) دون أن تقيد ضحكتها : نحن لا ننام إلا قبيل الفجر كل يوم ولساعة واحدة على أكثر تقدير!

(ماجد) : منذ أن فعلت لنا هالاتنا ونحن على هذه الحالة

- ماذا عن الخواتم؟ .. ألم أخبركما بأن تستخدماها للتخفيف من أثر هالتكما المفعلة؟

(هاجر) : في الحقيقة تلك الخواتم تضعف الكثير من قدراتنا التي اكتسبناها بعد التفعيل ولا نحب ذلك

- الراحة مهمة ويجب أن تتعلما الموازنة بين قدراتكما الروحية وحاجاتكما الجسدية

(ماجد) : حاضر يا معلمي

(هاجر) وهي مستمرة بالضحك : ربما سأطلب من شيخ «اللحس» أن يلحسِ عينيّ كي أحصل على بعض النوم!

ضحك (ماجد) وتبسمت أنا قبل أن أنهض وأتركهما يضحكان ويتسامران بقية الليل في مجلس الدروس ..

صعدت لغرفتي ولبست خاتمين واستلقيت على فراشي مغمضاً عينيّ باسماً ..

حينها حدثني (دجن) دون أن يظهر شكله وقال : برد قلبك؟ .. نقلت علمك ..

أجبته دون أن أفتح عينيّ وقلت : نقلت المفيد منه فقط ..

(دجن) : أتمنى أنك ما تندم زي كل مرة

- فات الأوان على الندم .. أنا الآن أحاول التكفير عن أخطاء الماضي فقط ..

(دجن) : ومتى ناوي تكفر عن أكبر غلطة فيهم؟

مددت يدي في جيبي فقال (دجن) : ما يحتاج .. أنا ماشي ..

الدوائر الخمس

في اليوم التالي وكما هو الاتفاق كان (عواد) بانتظارنا أول العصر خارج المنزل وخلال وقت قصير ركبنا جميعاً معه وتوجه بنا لوجهتنا المنشودة .. منزل المتمشيخ ..

خلال الطريق دار بيننا حديث قصير في حضور خامس الخمسة (دجن) الذي لم يبخل علي بتعليقاته المستفزة من وقت لآخر ..

(هاجر) من المقعد الخلفي وقد وضعت بعض الزينة على غير عادتها : متى سنصل؟

(ماجد) الجالس بجانبها ممعناً النظر إليها : ما هذه المساحيق التي تضعينها على وجهكِ؟

(هاجر) بتهكم : ألم تعجبك؟

(عواد) ناظراً لها من خلال المرآة العلوية : تبدين كساحرة حقيقية

(هاجر) تمد لسانها له ساخرة : لا تنظر إذًا وقد بصمت!

(دجن) من الصف الثالث للمقاعد : البنت عايشة الدور بزيادة ..

(هاجر) : وأنت يا معلمي .. ألا تجدني مثيرة؟

وجهت نظرة خاطفة نحوها ثم قلت وأنا أحدق أمامي : بلى ..

(هاجر) بابتهاج : حقّاً؟!

- نعم .. مثيرة للشفقة ..

ضحك البقية عليها لكنها لم تكترث وقالت : لا يهمني رأيكم!

- لمَ وضعتِ هذه المساحيق؟

(هاجر) مدعية الغباء والبراءة : أليس من المفترض أن أغرر بالشيخ كي نكشفه؟

(دجن) : أنا قايل لكم إن الوضع عاجبها وما صدقتوني

- نحن فقط ذاهبون لرؤية محتال وهو يمارس عمله وللتحقق من الادعاءات التي تحوم حوله .. ولا نحتاج للتغرير أو الإيقاع به

(ماجد) : ألن نوقفه؟

- هذا ليس عملنا ..

(عواد) : يمكننا إبلاغ الشرطة عنه بعد ما نتحقق

- بلاغ مثل هذا لن يؤخذ على محمل الجد دون كشف هويتنا ونحن لا نحتاج لهذا النوع من لفت الانتباه خاصة وأننا نوعاً ما نعمل في المجال نفسه مع اختلاف الأساليب والنوايا .. لذلك لن نفعل

(هاجر) : لمَ لا نصوت؟

- عندما يكون القرار بيد الجميع سننتهي بفوضى .. أنا صاحب القرار النهائي وهو أننا سنذهب للتحقق والمشاهدة فقط

(هاجر) بخليط من الغضب والإحباط : كيف نتركه وشأنه؟! .. يجب أن يعاقب!

(دجن) : شفيها سحيلة عصبت؟

- كي نُنظف شيئاً يجب أن يتسخ شيءٌ آخر .. إن كنتِ تنوين القيام بشيء متهور فلن آخذكِ معي وسآخذ (ماجد) عوضاً عنكِ

(دجن) : خل الولد بحاله ..

صمتت (هاجر) عاقدة أذرعها بوجه متجهم ..

وجهت حديثي لـ (عواد) وقلت : كم بقي حتى نصل؟

(عواد) مشيراً بسبابته أمامه : منزله يقع بعد ذلك المنعطف .. ستعرف أننا وصلنا حين ترى الازدحام والتجمهر خارجه

- لم يتغير شيء ..

وصلنا للموقع وكما قال (عواد) كان التزاحم عند مدخل منزل «المتمشيخ» مثيراً للدهشة والحزن في الوقت ذاته .. تذكرت منزل «الشيخ العماني» وكل الشيوخ الذين أجبرت على زيارتهم وسرحت في ذلك القطيع الأعمى الذي يجاهد للدخول على حامل السكين.

(هاجر): متى سندخل؟

انقطع سرحاني وقلت وأنا أفتح الباب وأترجل من السيارة: الآن ..

هيا اتبعيني

(دجن): موفقين .. خذوا مناديل معكم

سرت و(هاجر) من خلفي ووقفنا أمام الجمع الغفير نراقبه حينها

قالت: هل تسمح لي بسؤال يا معلمي؟

- قولي ما تشائين ..

(هاجر): هل تكره الجمال؟ .. هل لأني جميلة وفاتنة تعاملني بقسوة؟

- مشكلتي ليست مع الجميل أو القبيح بل الجميل جدّاً والقبيح جدّاً ..

(هاجر) باسمة: هذا إطراء مبالغ فيه أنا لست بذلك الجمال أو ربما لا أعي ذلك

- أنا لم أقل بأنكِ جميلة جدّاً ..

(هاجر) تتجهم ولم تقل شيئاً ..

- هل لديكِ سؤال آخر؟

(هاجر) بعبوس: لا .. كيف سندخل الآن؟

- سنستخدم طريقة أمي ..

(هاجر) بتساؤل: طريقة ماذا ..؟

أخرجت محفظتي من جيبي وسحبت مبلغاً كبيراً منها وبدأت أتظاهر بعده ولم يمضِ وقت حتى اقترب منا رجل يلبس ثوباً أبيض قصيراً ارتسمت على وجهه ابتسامة عريضة وقال وهو يفرك كفيه بعضهما ببعض : «هل يمكن أن أخدمك يا سيدي ..؟»

أجبته دون أن أنظر لوجهه وقلت : أريد مقابلة الشيخ .. ابنتي مريضة ولا أملك الوقت للانتظار

أجاب قائلاً : الانتظار للرعاع أما أنت يا سيدي فيمكنك الدخول حالاً

مددت له مبلغاً من المال وقلت : قد الطريق إذًا ..

حنى الرجل رأسه ومد كفه تجاه الباب وقال : من بعدك وبعد الأميرة الجميلة

سرت وتبعتني (هاجر) التي أمسكت يدي وسارت بقفزاتٍ صغيرة وقالت : لقد قال عني أميرة!

- مقابل المال الذي أعطيته إياه سيقول كِذْبات أكثر لو أتيحت له الفرصة ..

خلال دقائق كنا أمام «الشيخ» المزعوم ..

أول فكرة طرأت ببالي عندما رأيت وجهه المقيت هو كيف أن أشياء كثيرة تتغير وتتطور حولنا مع تقدم الزمن عدا هذه الطريقة القديمة في الاحتيال .. كيف تمكن هؤلاء المحتالون من الاستمرار والازدهار بهذا الشكل؟ .. سرطان مهما ضمر يبقى كامناً لفترة ليعود وينمو مجدداً بمناعة أقوى وفتك أشد. كنت أريد التحدث بما كان يثور به جوفي لكني منعت نفسي لأني أسير على مبدأ: »لا تثق بالأفكار التي تحثك على الكلام دائماً ..« والصمت غالباً في بعض المواقف منجاة.. كنت وما زلت مؤمناً بذلك.

تحدث صاحب البركة وهو يتمعن في (هاجر) التي بالغت في تمثيلها دور الفتاة البريئة وأخذت تمضغ لبانة وتلعب بخصلة شعر تدلت من غرتها بسبابتها وبادلته نظراته حين قال بنبرة متكلفة : من منكما المعلول؟

أجبته وأنا أحاول منع نفسي من إظهار تقلب معدتي من تمثيله الفاشل وقلت : ابنتي .. تعاني من الكوابيس والكدمات ومغص مستمر

(المتمشيخ) : أحتاج أن أشخصها بنفسي قبل أن أقدم لها العلاج

- شخص .. من منعك؟

(المتمشيخ) : هل ابنتك عزباء؟

- وما دخل هذا بتشخيصها؟

(المتمشيخ) : من المهم أن أعرف إن كانت قد تزوجت من قبل

(هاجر) بنبرة غبية : أنا مطلقة!

نظرت لها بتعجب لكني لم أقل شيئاً ..

(المتمشيخ) : إذاً عزباء وليست عذراء

كنت أحاول كظم غيظي وتقرفي خلال ذلك الحوار المثير للغثيان وإظهار نفسي كالأب المهتم والقلق على ابنته كي يطمئن ذلك الخبيث بأني مسلم ومستسلم له ولما سيفعل ..

(المتمشيخ) : اتركني معها وحدنا .. سوف أفحصها ثم أقرأ عليها رقية خاصة

- أي قراءة تستوجب ترك فتاة في هذا العمر وحدها؟ حتى الطبيب لا يفعلها!..

(المتمشيخ) وقد تجهم : اذهب للطبيب إذًا ليعالجها! .. لكن تذكر أنها تعاني من علة كبيرة ولن تشفى إلا بعلاجي!

- وما هو علاجك؟

(المتمشيخ) : سأحدده بعد فحصها أكثر

- لا، شكراً .. سنخرج وسنعود لاحقاً

(هاجر) واضعة كفها على كتفي ماسحة برفق : اتركني معه يا أبي فأنا لا أمانع

بالرغم من استيائي واستغرابي لما فعلته (هاجر) إلا أني لم أعلق وخرجت من المكان وحدي وتوجهت مباشرة للسيارة ..

(عواد) : أين (هاجر)؟

- بقيت بالداخل ..

(ماجد) : لماذا؟ .. هل حدث شيء؟

أجبته وأنا سارحٌ أمامي : اسألها عندما تعود ..

(دجن) : شكله لحس مخك وخلاك تنسى اللي أنت جاي عشانه

لم تمضِ دقائق بعد عودتي حتى بدأنا نسمع أصوات صرخات جماعية آتية من وسط المنزل تبعها اندفاع وخروج أعداد كبيرة من الناس وعلى وجوههم ملامح الفاجعة والجزع وكأن حريقاً قد نشب بالمكان.

(ماجد) مطلًّا برأسه من النافذة المفتوحة : ما الذي يحدث؟

شاركه (عواد) النظر وهو ممسك بكلتا قبضتيه على مقود السيارة : أعتقد أن (هاجر) قررت إغلاق متجر الشيخ ..

بعد خروج جميع الناس جرياً خرجت بعدهم (هاجر) وسارت نحونا بخطوات بطيئة حتى ركبت السيارة وعيناها تتفجران جنوناً ..

ماجد صارخاً فيها بعد ما شاهد فمها ويديها ملطخة بالدماء : ماذا فعلتِ؟!

(هاجر) بهدوء ماسحة كفيها ببعض المناديل التي سحبتها من أمامها :
لا شيء يستحق الذكر ..

(عواد) : فصلي أكثر عن هذا الشيء الذي لا يستحق الذكر

بالرغم من أني لم ألتفت ورائي وبقيت سارحاً أمامي متجاهلاً وجودها إلا أني شعرت أنها وهي تشرح ما فعلته كانت تنظر إليّ حينما قالت بنبرة باردة كالثلج :

«قضمت لسانه بأسناني وقطعته عندما حاول تقبيلي وفقأت عينيه بأصابعي وكسرت معصميه ..»

(دجن) : كفو! .. مشموخة بس كفو!

(عواد) : نحن لم نأتِ هنا لهذا الغرض يا (هاجر)

(هاجر) ملتفتة على (ماجد) وبنبرة ساخرة : وما رأيك أنت؟

صمت (ماجد) ولم يرد ..

أجبت عنه وأنا أغلق النافذة المفتوحة : لقد ارتكبتِ جريمة ..

ضاحكة بلا اكتراث وهي ترمي بالمناديل الملطخة بالدماء تحت أقدامها :
أعرف يا معلمي .. هل ستسلمني للشرطة؟

استدرت ووجهت نظري لعينيها المحدقتين بي وقلت : لا .. تحرك يا (عواد) وعد بنا للمنزل

(هاجر) مبتسمة بفم ملوث بالدم الجاف : لمَ تنظر لي هكذا؟ .. أنا لست مجنونة

- لكنكِ تفكرين كواحدة منهم ..

(هاجر) : وهل المجنون يفكر؟

- الجنون ليس سوى فرط في التفكير .. وليس كل المجانين يهذون ويصرخون ..

(هاجر) : أعرف يا معلمي فأنا أتحدث مع أحدهم كل يوم ..

- ستحصدين ما زرعته يداك ..

(هاجر) : هل ستوبخني أو تعاقبني؟

أعدت نظري للأمام وقلت : أنتِ لستِ طفلة كي أوبخكِ .. هذا كان قراركِ في النهاية .. والعاقبة أحياناً تكون أشد من العقاب ..

خلال طريق العودة لم يتحدث أحد لكني كنت متيقناً أن الجميع كانوا يخوضون حواراً مع أنفسهم بمن فيهم أنا .. لن أنكر أني أحببت ما قامت به (هاجر) لكنني لم أحب أنها تصرفت من نفسها دون الاستئذان أو الرجوع لي وهذا كان دليلاً كافياً لي على أنها وصلت إلى أقصى حد يمكنها الوصول إليه معي كتلميذة ولن ترقى أو ترتقي أكثر من ذلك .. فأول مؤشر للاكتفاء والشبع هو التمرد والثورة على أيّ نظام مقيد وكل تمرد سيتبعه تمرد أكبر لا محالة.

فمن يجد صعوبة ومشقة كبيرة خلال مجاهدة النفس بالقوة على الانضباط ومنعها من الانحراف فليعلم مسبقاً أنه في الغالب سينكسر في نهاية المطاف. لذا تجد أن أشد المنحرفين كانوا غالباً من عتاة الملتزمين.

تلك الفتاة كانت عاقدة العزم على إخراج أسوأ ما فيَّ لذا اتخذت قراراً لا رجعة فيه كي لا أبقى مخادعاً لنفسي وإحساسي الذي لم يخذلني من قبل لكنني أخذله على الدوام بعدم الإنصات إليه. بعد وصولنا وترجلنا جميعاً من السيارة دخلنا نحن الأربعة بهو المنزل وقبل أن يتفرق الجميع قلت :

«اليوم كان بداية فصل جديد في مرحلة تعليمكما .. ونهاية أخرى ..»

(هاجر) : وما هي المرحلة التالية؟

- أيّاً كانت فأنتِ لن تكوني جزءاً منها ..

(هاجر) وهي مصدومة : ماذا تقصد يا معلمي؟

شاركها (ماجد) الصدمة ذاتها لكن (عواد) لم يكن متفاجئاً ..

- سوف تجمعين حوائجك الآن وترحلين في الحال .. انتهى تعليمكِ

(هاجر) بخليط من القهر والسخط : لماذا؟! .. ماذا فعلت؟! .. هل هذا بسبب الشيخ المتحرش لقد كان يستحـ..

قاطعتها بقول : السبب هو أنكِ تصرفتِ دون الرجوع إليّ

(هاجر) محاولة تدارك الأمر بالتوسل: حسناً أعتذر! .. ولن أكررها! .. لكن أرجوك لا ..

- أنا لن أسمح لكِ بتكرارها بألّا أعطيكِ الفرصة لذلك .. أنا لست هنا لتربيتكم بل لتعليمكم .. لديكِ حتى مغيب الشمس لتبحثي لكِ عن مكان آخر لتقيمي فيه .. (عواد) سيساعدك لو احتجتِ لذلك

(هاجر) بصوت مشحون بالعبرات: ما هذا الظلم؟! .. أشعر أني أحاسب على جريمة ارتكبت فيَّ .. هذا ليس عدلاً!!

- لم تكن الحياة عادلة قبلاً فلماذا تتوقعين أن تكون اليوم ..؟

(هاجر) صارخة بسخط وأعين دامعة: لا أريد منكم شيئاً!

توجهت بعدها (هاجر) ودخلت غرفتها وأغلقت الباب خلفها بقوة ..

وجهت حديثي لـ(عواد) وقلت بهدوء: لا ترحل إلا وهي معك .. أنا سأخرج لزيارة أمي فقد تأخرت عنها اليوم ..

هز (عواد) رأسه بالموافقة ..

(ماجد): وماذا عني؟

- ماذا عنك؟

(ماجد): هل أرحل؟

- هل تريد الرحيل؟

(ماجد) : بالطبع لا

- إذًا لا تسأل ..

استدرت وتوجهت للسلالم المؤدية للطابق العلوي وصعدت لغرفتي للاستحمام وتبديل ملابسي قبل خروجي لزيارة أمي وقبل أن أفعل سمعت بابي يُطرق ..

في العادة لا أسمح لأحد بزيارتي في الغرفة وأي أمر طارئ يحدث أقوم أنا بالنزول بعد ما يتم التواصل معي هاتفيّاً وهذا الأمر لم يكن عرفاً بل توجيهاً مني منذ أن انتقلت لهذا المنزل والتزم الجميع به حتى (عواد). فتحت الباب لأجد (هاجر) تقف وراءه بأعين حمراء ووجه مرهق من البكاء وحينما وقعت عيناي عليها أنزلت رأسها وقالت بنبرة نادمة : «أتيت للاعتذار .. أرجو أن تقبل اعتذاري ..»

- قدومك إلى هنا لن يغير شيئاً ..

(هاجر) : دعني أعتذر منك بطريقتي

هممت بإغلاق الباب لكنها بسطت كفها على سطحه ومنعتني قائلة بنبرة متوسلة : أرجوك .. أنا لم أكتفِ من العلم

- يبدو أني نقلت علمي للوعاء الخاطئ .. هذا أقصى ما يمكنكِ استيعابه ..

(هاجر) وقد بدأت نبرتها تتغير للسخط : أنت السبب! .. أنت من لا

يريد تعليمي! .. تريد الاحتفاظ بعلومك لنفسك وتخشى أن أتفوق عليك! .. لأن نجاحي يرعبك!

- الناجح يبحث عن «شمعة» لتنير مساره نحو إكمال طريق النجاح والفاشل يبحث عن «شماعة» ليعلق عليها فشله ..

(هاجر) : أنت مخطئ! .. أنا قادرة على الوصول بدونك لمراحل أبعد بكثير! .. أعلى حتى منك! .. وسترى!

أجبتها ببرود قبل أن أغلق الباب في وجهها عنوة : بالتوفيق في مسعاكِ ..

خلعت ملابسي ودخلت دورة المياه وأخذت حماماً ساخناً طويلاً خرجت بعده ومنشفة بيضاء تلفني كإزار وأخرى حول عنقي وقبل أن ألبس ملابسي لمحت اتصالاً فائتاً من أخي فجلست على طرف فراشي الأرضي وعاودت الاتصال به ووجدته يستفسر عن عدم حضوري اليوم لزيارة أمي وأبي على الغداء كما هو معتاد كل جمعة فأخبرته بأني انشغلت قليلاً وأنا الآن في الطريق لكنه قال لي بأنه مر بهما مع زوجته وخرجوا معاً فطلبت منه أن يبلغهما سلامي على وعد مني بأن أزورهما أول صباح اليوم التالي لتناول الإفطار عندهما.

بعد ما أنهيت المكالمة وجهت نظري أمامي وبقيت أتأمل بصمت ..

(دجن) من إحدى زوايا الغرفة : شفيك ما لبست؟

أجبته وأنا سارح : وما شأنك أنت؟

(دجن) بتهكم : كنك زعلان

- هل يمكن أن أحظى ببعض الهدوء؟

(دجن) : لهذي الدرجة راح توحشك المشموخة؟

نهضت من مكاني وبدأت أتجول في الغرفة دون أن أرد عليه وهو مستمر بالحديث معي ..

(دجن) : هذي نهاية نقل علمك .. ضيعت شهور على الفاضي .. وفي لحظة هدمت كل شيء

- ولِمَ أنت مهتم هكذا؟

(دجن) : لأنك بتتحسف وبتقعد تهوجس وأنا اللي بتحمل غثاك وقتها ..

- أنا لا أحمل تجاهها أي مشاعر .. لا ضغينة أو معزة .. لذلك اطمئن

(دجن) بسخرية : أنا عن نفسي مصدق والدليل أنك قاعد تحوم بالغرفة كنك فار محبوس

- ماذا كنت تريدني أن أفعل؟

(دجن) بتأنيب : ما تقربها منك من الأساس .. من شفتها قلت لك

إنها خطر عليك لكنك ما تسمع إلا لنفسك .. أزعجتنا بسالفة لا أحد يسمع لقلبه ولازم يسمع لعقله وأنت أول واحد يخالف هالكلام!

- أنت تحاول افتعال مشكلة من لا شيء .. لم يحدث ما يستدعي الندم .. ولم أخسر ما يستحق الحسرة عليه ..

(دجن) وهو يسير نحو فراشي ويقف بجانبه ويرمقني بنظرة تحدٍّ : متأكد ..؟

في تلك اللحظة شعرت بصدمة تصعقني .. حينما وقعت عيني على الرف فوق فراشي الأرضي .. الرف الذي حوى على كتب (عمار) الخمسة المهترئة .. كانت أربعة فقط ..

(دجن) بنبرة متشمتة : تعيش وتاكل غيرها يا بو قلب حنيّن ..

لم أجب عليه وبقيت أحدق بالفراغ بين الكتب ..

(دجن) : عمرك ما راح تتعلم .. من أول يوم كان واضح أنها مو مهتمة تتعلم منك خرابيط الأولين وعلاجاتك المخيسة .. كانت نيتها تتعلم السحر وتمسكنت لحد ما تمكنت ولعبت عليك وخذت اللي تبيه منك في النهاية وهجت

- وما المشكلة؟

(دجن) : أيواااا .. بدينا بالاستعباط

- لا أبداً .. لقد خلصتني وحررتني أخيراً من هم أحد تلك الكتب .. فلم أكن أستطيع منحه لأحد دون أن أشعر بتأنيب الضمير .. بسرقتها للكتاب أسقطت قطعة من حمل ثقيل أثقل كاهلي لسنوات طويلة دون أن أحمل ذنب نقل لعنته لغيري وأصبحت مشكلتها الآن .. دوامة جديدة ستبدأ معها .. بعيدًا عني ..

(دجن) : أنت من جدك تتكلم؟

- فهمت الآن شعور الراحة الذي أحس به قريبي الذي قدم لي أول كتاب أدخلني لهذا العالم .. لدي رغبة غير مسبوقة للنوم .. النوم لمدة طويلة ..

مددت يدي تحت الوسادة لألبس الخاتم الذي يساعدني على النوم لكنني لم أجد أيّاً من خواتمي ..

ضحك (دجن) وقال قبل أن يختفي : شيك قبل ما تنام إذا ما سرقت ثيابك بعد!

لم أخبر أحداً بما فعلته (هاجر) وأمرت (عواد) بالتوقف عن جلب الحالات العلاجية للتركيز على ما كنت أنوي القيام به وهو تهيئة (ماجد) ليكون أفضل ما يمكن أن يكون عليه وقررت مضاعفة عدد

الساعات التي نقضيها معاً للتعلم وقد لاحظ ذلك مما دفعه للتساؤل في أحد الأيام: هل هناك أمر استجد يا معلمي؟

- ماذا تقصد؟

(ماجد): ألاحظ أننا نسير بوتيرة أسرع من السابق وكأننا في سباق مع الزمن

- نحن بالفعل كذلك لأني أريد الانتهاء

(ماجد): الانتهاء من ماذا؟

- مما بدأت .. تقديم كل ما أستطيع لتلميذي الأول .. والوحيد ..

(ماجد): ماذا عن (هاجر)؟ .. أعرف أنها رحلت عنا لكنها كانت أحد تلاميذك

- بداية فشلك وهزيمتك هي عندما تقتنع بأنك نجحت وانتصرت .. و(هاجر) خسرت الكثير برحيلها ولم تحصل على ذرة مما يمكنني منحه لها .. خلاصة علمي الحقيقية احتفظت بها بنية تقديمها لكما في نهاية مرحلة تعليمكما وكل ما سبق لا يعادل ما سأمنحه لك وحدك .. لقد فشلت (هاجر) في أهم اختبار .. اختبار الثقة .. وخسرت جوهر علمي وخلاصة خبرتي فأنا لم أكن أبحث عن شخص ذكي أو فطن فقط لينقل علمي .. كنت أريد شخصًا جديراً بالثقة كذلك

(ماجد) : هل حقّاً تثق بي يا معلمي؟

تبسمت له واضعاً كفي على كتفه قائلاً : ستعرف حينما تسمع وترى ما سأعلمه لك الأيام القادمة من «علوم الأولين» ..

بعد مضي ما يقارب الشهر من التعليم المكثف أصبح (ماجد) متمكناً وملمّاً بمعظم جوانب «علم الأولين» التي نهلتها من مكتبة (عمار) بالإضافة للكثير من العلوم الأُخرى الخاصة بالجن والشياطين وعندما وصل للمرحلة التي أردته أن يصل إليها كان لا بد أن أعلمه بأمرٍ أخفيته عليه منذ أول يوم التقيته فيه.

قررنا أنا و(ماجد) الاجتماع كما اعتدنا كل يوم في «مجلس الدروس» أول الصباح لكن هذه المرة تفاجأ برؤية (عواد) حينما دخل للمجلس والذي لم يكن يوجَد إلا عند الظهيرة جالباً معه الغداء وحينما جلس معنا تبسم وقال :

«هل سيحضر (عواد) الدرس معنا اليوم؟»

- لم يتبقَّ شيء لأعلمك إياه يا (ماجد) .. لقد حان وقت الخطوة الأخيرة

(ماجد) بخليط من التوتر والتوجس : خطوة ماذا؟

- يجب أن ترحل وتقطع كل صلتك بي ..

(ماجد) وهو مصدوم : مـ .. لماذا؟ .. لقد قلت لي في السابق إن بإمكاني المكوث هنا بالقدر الذي أشاء .. هل اقترفت شيئاً ما أغضبك أو أزعجك؟

- على العكس تماماً .. لقد كنت الشخص المثالي الذي طال بحثي عنه لسنوات .. الوعاء الملائم لحمل وتحمل كل ما سكبته فيه وقد حان وقت تقديمك

(ماجد) : تقديمي؟

- تقديمك للعالم .. لن تستفيد من هذا العلم وتفيد غيرك إذا بقيت بجانبي يجب أن تطير من العش وألا تعود أبداً

(ماجد) : أشعر بأني لست مستعدّاً .. أريد أن أكمل تعليمي معك

- الشيء الوحيد الذي يجب عليك إكماله الآن هو حياتك ..

(ماجد) : لا أستطيع أن أرحل بهذه البساطة .. ألا تخشى أن أتخلى عن كل شيء وأتوقف ولا أكمل مسيرتك وأخرج من هذا العالم برمته؟

- لا يوجد سوى باب واحد لهذا العالم .. وهو للدخول فقط .. وأنت قد ولجت فيه وانتهى الأمر ..

(ماجد) : وأين سأذهب؟ .. وماذا سأفعل؟

- مخصصاتك المالية الشهرية سأستمر بصرفها لك لمدة عام وهذا سيكون كافياً لك لتنهض على قدميك .. وبعدها ستنقطع هي الأخرى ..

(ماجد) : حسناً .. فهمت قصدك .. سأرحل .. لكن هذا لا يعني أننا لن نتواصل

- بل يجب أن تنساني وتنسى أي علاقة شخصية ربطتنا معاً في الماضي .. انسَ كل شيء عدا ما لقنتك إياه .. ما كان بيننا لم يكن علاقة اجتماعية .. أنت كنت بالنسبة لي إرثاً وأثراً أردت تركه ويوماً ما يجب أن تقوم أنت بالمثل وتورث علمك لغيرك .. «علم الأولين» يجب ألا يندثر .. هذه وصيتي الأخيرة لك

صمت (ماجد) ولم يقل شيئاً لكن ملامح وجهه حكت الكثير ..

- سوف أذهب لآخذ قسطاً من الراحة وعندما أعود لا أريد أن أراك هنا ..

نهضت من مكاني ونهض هو الآخر مع (عواد) الذي تقدم نحو باب المجلس وهو يقول : سأكون بانتظارك في الخارج يا (ماجد) كي أقلك حيث تشاء .. خذ وقتك في جمع حوائجك

أنزل (ماجد) رأسه حزناً ولم يقوَ على الرحيل فقلت له قبل أن أرحل أنا كذلك : «أجبني على هذا السؤال الأخير ..»

رفع (ماجد) رأسه وكان من الواضح أنه يصارع نفسه على عدم البكاء وقال : تفضل يا معلمي ..

- كيف تقيم أهمية أحد؟

(ماجد) : لا أعرف ..

- بقدر عدد من سيفتقدونه إذا اختفى فجأة ..

(ماجد) : إذاً فأنا أقل الناس أهمية على هذه الأرض فلن يفتقدني أحد لو اختفيت فجأة

- إذًا قم بتغيير ذلك .. كن مهمّاً ومفيداً لأكبر عدد من الناس تستطيع كي يفتقدوك حينما ترحل عن هذه الدنيا

(ماجد) : ماذا عنك يا معلمي .. هل ستفتقدني؟

تبسمت وتقدمت خطوة نحوه وعانقته ثم سرت بعدها خروجاً من المكان ومن حياته للأبد ..

بعد ما انتهى (ماجد) من جمع ونقل متعلقاته قام (عواد) بإيصاله لفندق وسط المدينة ليبقى فيه مؤقتاً حتى يجد له سكناً دائماً. ترجل الاثنان من السيارة وخلال نقل الحقائب والصناديق لوسط الفندق وقفا يتحدثان بينما أشعل (ماجد) سيجارة دخنها بأنفاس ثقيلة ووجه مكتئب.

(عواد) باسماً محاولاً التخفيف عنه : ما بك؟ .. الأمر ليس بهذا السوء؟ .. ألم تمل من البقاء معنا؟

(ماجد) : يعز عليّ فراقكما .. فراق المعلم بالذات

(عواد) : صدقني أن هذا مقدر منذ البداية .. هو بالكاد يتحمل

وجودي حوله .. ليس كرهاً فيَّ .. لكني أعتقد أنه يخشى على من يحبهم من الوجود حوله بشكل دائم لذا يختار إبعادهم ..

(ماجد) : هل يمكن أن نبقى نحن على تواصل على الأقل؟

(عواد) : أنا وأنت نعلم أن التواصل معي هو تواصل غير مباشر معه وهذا ينافي رغبته ..

(ماجد) : أنا ما زلت لا أفهم سبب ما يقوم به .. بدأت أشك بأنه لم يكترث لي منذ البداية ولم يُكِن لي أي مشاعر ود وأنه استخدمني واستغلني فقط

(عواد) : هل عانقك من قبل؟

(ماجد) : ماذا؟

(عواد) : هل .. عانقك؟

(ماجد) : آه .. نعم .. اليوم .. قبل أن يرحل لغرفته

(عواد) : إذاً فهو يكترث لك .. وكثيراً ..

(ماجد) ممازحاً بحزن : وكيف أعرف أنه ليس «مندسّاً»؟

(عواد) ضاحكاً : صدقني كنت ستعرف فهم لا يجيدون التعبير عن مشاعرهم

(ماجد) : مثل المعلم ..

(عواد) : صدقني هو مستاء أكثر منك على هذا الفراق

(ماجد): لَمِ يقوم بذلك إذاً؟ .. ليس من الضروري أن أقيم معه .. لكن قطع التواصل بهذا الشكل أمر لم أفهمْه ولن أفهمه!

(عواد): ستفهم يوماً ما ..

(ماجد): وأنت يا شيخ (عواد)؟

(عواد): أنا ماذا؟

(ماجد): هل ستفتقدني؟

(عواد): لا أعرف .. لكن ما أنا متيقن منه هو أنني لن أنساك ..

رمى (ماجد) بعقب السيجارة أسفل قدمه ثم قال وهو ينفخ آخر سحابة من الدخان من أنفه: «وداعاً إذاً ..»

(عواد) فاتحاً ذراعيه باسماً: وأنا كذلك أريد عناقاً ..

افترق الاثنان بعد عناق طويل مشحون بالعواطف وبعض الدموع ومنذ ذلك اليوم لم نسمع من (ماجد) أو عنه إلا مصادفة بعد عدة سنوات عندما عمل كمذيع لأحد البرامج الإذاعية التي تستقبل مشاركات الناس من بعد منتصف الليل للحديث عن مواقفهم الغريبة مع العالم الآخر .. برنامج أطلق عليه اسم «هذا ما حدث معي» .. اسم يحمل في طياته الكثير .. لقد أصبح مشهوراً .. وكل الناس يفتقدونه حينما يغيب.

هَاوِيةُ الوَاقِع

برحيل (ماجد) عاد الهدوء لحياتي واستعدت روتيني اليومي المعتاد بين زيارات (عواد) الصباحية التي يجلب فيها ولائمه المتنوعة من البيض وليالي العزلة والخلوة بين قراءة وكتابة. في تلك الفترة عدت لإكمال مذكراتي وتدوين ما استجد من فصول حياتي .. لا لغرض محدد لكنني وجدت حاجة لترك إرث من نوع آخر .. إرث مخطوط على الورق. ربما السكينة التي كنت أعيشها تلك الفترة حفزتني على العودة للتدوين الذي هجرته منذ سنوات عديدة بسبب ريشة (عمار) الثقيلة.

علاقتي بالعالم الآخر في تلك الفترة حُصرت بالجن فقط وبشكل محدود جدّاً. سخرتهم لأغراض بسيطة مثل جلب الأحجار اللازمة لصنع خواتم جديدة أو تدريب المزيد من «المندسين» بمراقبتي طيلة اليوم حتى يكونوا أكثر إقناعاً وواقعية في تشكلهم ليتمكنوا مثلاً من زيارة أمي وكذلك نشر عدد منهم حول أركان المنزل الخارجية كمستطلعين فأنا كنت وما زلت هدفاً مغرياً للكثير من السحرة والدجالين خاصة الجدد منهم والذين يريدون إثبات أنفسهم في مهنتهم الجديدة بالتعرض «للمعالج الأكبر» كما أطلق عليّ وقتها من باب التندر.

أمر آخر كان يحدث وبشكل متكرر على مدى شهر منذ رحيل (ماجد) وهو أني تلقيت عدة اتصالات من (هاجر) على أوقات متفرقة خلال اليوم. تجاهلتها جميعاً بالرغم من أنها تُلحقها بعدد من الرسائل النصية والصوتية التي لم أفتح أيًّا منها. كان بإمكاني أن أقوم بحظر رقمها والتخلص من إزعاجها المتكرر .. لكنني لم أفعل .. وفي الحقيقة لم أعرف السبب لعدم قيامي بذلك.

نزلت صباح أحد الأيام للطابق السفلي متوجهاً لـ «مجلس الدروس» لأجد (عواد) قد سبقني إليه باستخدام مفتاحه الخاص الذي أعطيته إياه بعد خلو المنزل من قاطنيه لاستخدامه في حالات الطوارئ. دخلت عليه لأجده قد افترش الأرض ومندمجاً في ترتيب مائدة إفطار صغيرة فقلت له : ما الأمر يا (عواد)؟ .. هل هناك شيء؟

(عواد) وهو مستمر في توزيع الأطباق على السفرة البلاستيكية : لا أبداً أتيت لنتناول الإفطار معاً

- ولِمَ لم تتصل بي كالعادة لأفتح لك الباب وتُعلمني بقدومك؟

(عواد) : ارتأيت أن هذه الطريقة أفضل خاصة وأنك تتأخر عليّ أحياناً ويبرد الأكل

قلت متهكماً وأنا أجلس على السفرة : «ارتأيت»؟

(عواد) : نعم «ارتأيت» .. ما بها؟

- لا شيء على الإطلاق لكنك عندما تستخدم مثل هذه المصطلحات أشعر أنك ستجلب لي مصيبة

(عواد) رافعاً رغيفاً مشيراً لي للبدء بالأكل : هذا تخصصك وليس تخصصي

ضحكت وقبل أن أهم بمشاركته الطعام قلت : بيض أيضاً؟

(عواد) : أحضرت بعض الزعتر كي لا تقول بأني لا أنوع في الأصناف

- ماذا عن الليمون؟

(عواد) ضاحكاً : «ارتأيت» ألا أجلبه!

شاركته الضحك وقبل أن نبدأ بتناول وجبتنا الصباحية رن هاتفي النقال فأصمته وبدأت بالأكل .. تكرر الاتصال عدة مرات وتكرر معه إصماتي له حتى اضطررت لإصماته بشكل دائم مما دفع (عواد) للسؤال : من يتصل بك في هذا الوقت بهذا الشكل؟

- لا عليك ..

(عواد) : ألن تجيب؟ .. يبدو اتصالاً مهمّاً

- يجب أن يكون الشخص مهمّاً كي أرد

(عواد) : هل يحق لي أن أعرف من المتصل؟

تجاهلت سؤاله وغيرت مجرى الحديث بتوجيه سؤالٍ آخر له وقلت : لِمَ
لم تأتِ البارحة كما قلت؟

(عواد) : كنت أساعد ابنتي في مذاكرة دروسها فمستواها العلمي
منخفض مؤخراً وتجد صعوبة في الحفظ وهذه الفترة هي فترة اختبارات
ويجب أن تحصل على معدل مرتفع

قلت ممازحاً : هل هي صعبة الاستيعاب مثل أبيها؟

(عواد) : لم تكن كذلك في السابق لكن فيما يبدو أن عقلها مشغول
ببعض التوافه مؤخراً

- مضغ علكة بنكهة معينة وقت الاستذكار ثم مضغ علكة
أخرى بالنكهة نفسها خلال الاختبار يساعد المخ على استرجاع
المعلومات بصورة أسهل وأسرع

(عواد) باستغراب : علكة؟

- نعم .. هذه الطريقة فعالة لتحفيز المخ على التذكر بكفاءة عالية ..
حيلة استخدمها الحُفاظ قديماً

(عواد) : مضغ العلكة للفتيات أمر منبوذ وعادة مقيتة

تبسمت وقلت : استمر على الطريقة التقليدية إذًا واسهر الليالي طلباً
للعلا

بعد مضي دقائق خلال تناولنا الطعام سألت (عواد) وقلت : هل لا
تزال تقوم بتحويل مخصصات (ماجد) المالية كل شهر بانتظام؟

(عواد) : نعم بالطبع؟

- و(هاجر) ..؟

(عواد) : هي الأخرى يصلها راتبها بانتظام

- جيد ..

(عواد) : هذه أول مرة تسأل عن هذا الموضوع .. هل استجد شيء؟

قلت وأنا أخرج هاتفي من جيبي وألقي نظرة على الشاشة التي أشارت لعشرة اتصالات فائتة : لا .. لم يستجد شيء ..

لاحظ (عواد) تغير ملامح وجهي حينما نظرت للهاتف فقال : ما بك؟

أجبته برفع الشاشة عند وجهه وحينما رأى اسم (هاجر) قال : منذ متى وهي تتصل بك؟

قلت وأنا أعيد الهاتف لجيبي : منذ عدة أسابيع؟

(عواد) : ولِمَ لا تجيب عليها؟

- لأني لا أريد .. ولا يوجد شيء يربطني بها كي أرد

(عواد) : ربما تحتاجك

- حتى وإن كان .. لا علاقة لي بها الآن

(عواد) : أعتقد أن الموضوع ليس طارئاً ..

- وكيف تحققت؟

(عواد) : لو كان كذلك لاتصلت بي أيضاً لكن كونها لا تتصل إلا بك فعلى الأرجح أنه موضوع خاص بكما

- لا يوجد بيني وبينها موضوعات خاصة

ساد الصمت بعدها حتى انتهينا من الطعام ورفع (عواد) السفرة وأعد كوبين من الشاي وجلسنا معاً نحتسيه في هدوء ..

(عواد) : متى ستخبرني؟

- أخبرك بماذا؟

(عواد) : بما حدث؟

- لا تتحدث بالألغاز

(عواد) : أنا أعرفك منذ سنوات وأستطيع معرفة ما إذا كان هناك شيء يشغل بالك أو لا واتصالات (هاجر) بهذا الشكل ليس من دافع اشتياقها لك .. فهل يمكن أن توضح لي حقيقة ما يحدث كي لا أكون طرفاً ثالثاً مغيباً

زفرت وبدأت أحكي لـ (عواد) كل ما حدث في آخر يوم قبل رحيل (هاجر) وكانت ردة فعله في البداية غاضبة منها لكنها تحولت تدريجياً للقلق حيث قال : هل تعتقد أنها أوقعت نفسها في مشكلة ما بسبب ذلك الكتاب؟

- ربما .. لا أعرف

(عواد) : وإلى متى ستتجاهلها؟

- إلى أن تتوقف ..

لم نناقش الموضوع أكثر واستمرت محاولات (هاجر) للتواصل معي واستمر معها تجاهلي لها حتى حل يوم الجمعة وموعد زيارتي المعتادة لأمي وحينما وصلت لمنزل أهلي وبعد قضاء فترة الظهيرة وما بعدها معهم في تناول الغداء والحديث مع أبي وأخي لعدة ساعات حل المغرب وحان وقت رحيلي واخترت أن أمضي آخر الوقت في احتساء الشاي والقهوة مع أمي وحدنا.

(أمي) ممازحة : بدأت أنسى شكلك من قلة زياراتك

أجبتها باسماً : لا تبالغي يا أمي فأنا لم أفوت يوم الجمعة منذ أن انتقلت

(أمي) : تفوته في رمضان

- سوف أعالج هذه المشكلة قريباً أعدكِ بذلك

(أمي) : حتى وإن عالجتها .. هل تظن أن يوماً في الأسبوع كافٍ لي؟

- أعترف بأني مقصر في حقكِ لكن انشغالاتي تمنعني وتقيدني

(أمي) : أخوك لديه انشغالات كذلك ولديه أطفال وزوجة يعولها ومع ذلك يزورني ثلاث مرات بالأسبوع

- حاضر سأحاول تخصيص يوم إضافي بجانب الجمعة

(أمي) : بالحديث عن الزواج والأطفال .. كيف حال خطيبتك (هاجر)؟

هنا ارتبكت قليلاً فمنذ أن أرسلت (هاجر) لأمي قبل أكثر من عام لم تسألني عنها إلا عدة مرات في البداية وخف سؤالها عنها تدريجيّاً حينما أخبرتها بأنها سافرت لإكمال دراستها الجامعية في مدينة أخرى.

(أمي) : ما بك؟ .. لمَ سكت؟

- لا أبداً .. لمَ تسألين عنها الآن؟

(أمي) : لأنها زارتني بالأمس ..

صمت من هول الصدمة .. حاولت جاهداً أن أخفي وأكظم غضبي وغليان دمي من جرأتها لتجاوز حدودها بهذا الشكل وكان كل همي وقتها أن أنهي الحديث مع أمي كي أخرج وأتعامل مع هذا الموضوع بأسرع وقت لكن أمي استرسلت بالحديث قائلة: «تقول بأنكما على خلاف وتمران بأزمة ..»

- هل تعرضت لكِ بشيء؟

(أمي) باستغراب : تعرضت لي؟

- نعم

(أمي) : في الحقيقة ظننت العكس

- العكس؟

(أمي) : الفتاة علاوة على انكسار قلبها ونفسها كانت مليئة بالكدمات والجروح وذراعها مجبرة ورفضت أن تخبرني عن السبب ..

- وتظنين يا أمي أني أنا من قام بإيذائها؟

(أمي) : لا أعرف يا بني فأنت لا تريد إخباري بالحقيقة

- الحقيقة هي أنني انفصلت عنها منذ أشهر ولا أعرف عنها شيئاً من وقتها

(أمي) : ولِمَ لم تخبرني؟

- لم تطرأ مناسبة لذلك

(أمي) : وماذا كان سبب انفصالكما؟ .. ماذا فعلت لها؟

- ولِمَ افترضتِ أني أنا السبب؟ . .أنا من تركها وليس العكس؟

(أمي) : لأني لم أرَ منها إلا كل خير .. حتى بالأمس وهي في حالتها الصعبة كانت ودودة معي وتصر على خدمتي بالرغم من أنها هي ضيفتي

- وهل رأيتِ مني أنا شرًّا يا أمي؟

(أمي) : لا لم أقصد يا بني لكن ..

ـ انتهى الموضوع يا أمي وهذه الفتاة لم تعد تربطني بها أي علاقة وأنتِ كذلك يجب ألّا تستقبليها عندك بعد اليوم

(أمي) : حسناً .. لكن حالتها محزنة وأتمنى أن تتجاوز ما تمر به

هاتفي يرن .. أخرجه من جيبي ..

ينير اسم (هاجر) على الشاشة ..

أصمت المكالمة وأعيده لجيبي ..

(أمي) : من المتصل؟

- (عواد) .. يجب أن أرحل

(أمي) : ومتى سأراك مجدداً كما وعدت؟

قبلت رأسها وأنا أقول : أعدكِ بأني سأزوركِ قريباً

خرجت من منزل أهلي وأنا مستاء جدّاً واتصلت بـ(عواد) وطلبت منه الحضور فوراً لمنزلي ..

وصلت قبله وأعددت قدحاً كبيراً من القهوة وجلست في «مجلس الدروس» أحتسي كمية كبيرة منها أفكر بصمت في انتظار (عواد)

وخلال انتظاري ظهر (دجن) وقال بخليط من العبوس والتهكم : «فهمت قصدي الآن؟»

- هذا ليس وقتك

(دجن) : وعمر ما راح يكون عندك وقت تسمع كلمة الحق!

- ماذا تريد مني أن أفعل؟! .. لقد قطعت كل صلتي بها وهي لا تزال تريد التواصل معي!

(دجن) : أنا مو أمك أو (عواد) عشان تستهبل عليّ!

- ماذا تقصد؟

(دجن) : ليش للحين تصرف لها راتب؟

- وما علاقة ذلك بما يحدث؟

(دجن) : لا يا شيخ .. وتقول إنك ما تستهبل.. كيف تبيها تنساك وأنت تصرف عليها؟

- هذا جزء من مسؤوليتي تجاه تلاميذي ولا علاقة له بها .. (ماجد) ينال المعاملة نفسها ولم يحاول التواصل معي منذ رحيله كما أمرته

(دجن) : بس (هاجر) تفكيرها غير وأنت أكثر واحد يعرف ذا الشيء

- وهل تظن أني لو قطعت عنها ذلك الراتب ستتوقف؟

(دجن) : لا .. لكن على الأقل ما يكون لها حجة وتبرير في مخها أنك مازلت تفكر فيها

- الموضوع أكبر من ذلك ..

(دجن) : أنت مبسوط أنها محتاجة لك وقاعد تتلذذ باللي يصير .. أنا أقول تزوجها وتهاوشوا في البيت أبرك وأوفر

- سوف أضع حدّاً لجنونها اليوم ..

(دجن) : مدري من المجنون فيكم

صوت إغلاق (عواد) للباب الرئيس للمنزل ..

- اصمت الآن كي أتحدث مع (عواد) بتركيز

(دجن) وهو يضمحل في الهواء : ومن متى أنت تركز في شيء تسويه أصلاً ..؟

دخل (عواد) وأول شيء قاله بأنه جائع بالرغم من أني شرحت له أنني أريده في موضوع جاد ومهم إلا أن بطنه كان ما يشغل باله فوعدته أن نخرج للعشاء حالما ننتهي من الموضوع الذي استدعيته لأجله.

اجتمعنا وناقشنا الموضوع لعدة ساعات وكنا على خلاف في طريقة التعامل معها فهو من ناحيته أصر عليّ لتلقي المكالمة وحسم الموضوع

وأنا كنت أرفض وبشدة الخضوع لضغطها وابتزازها خاصة بعد زيارتها لأمي الأمر الذي اعتبرته رسالة غير مباشرة بأنها لن تتوقف عن محاولة الوصول إليّ. تحول مجرى الحديث بعدها لمنحىً لم أحبه لأن (عواد) ادعى أني أكن مشاعر لـ (هاجر) وأن ما يحدث بيننا أشبه بخلافات المراهقين أو المتزوجين حديثاً وبدأ يستظرف بالحديث بشكل مزعج في محاولة لاستفزازي بالرد عليها.

قوطع حديثنا بهاتفي النقال وهو يرن مجدداً ..

لكن الرقم هذه المرة مجهول ..

ترددت في الإجابة لكن في النهاية قررت عدم الرد وتجاهلت المكالمة بتحويله للوضعية الصامتة لأني كنت متيقناً من أنها (هاجر) ..

شاهد (عواد) ما قمت به فقال : لِمَ لا ترد عليها؟

- لا يوجد شيء بيننا كي أرد ..

(عواد) : ربما تكون واقعة في مشكلة ما وأنت الوحيد القادر على حلها

- أخبرتك سابقاً .. مشكلاتها ليست مسؤوليتي ..

(عواد) : لا أستطيع إجبارك على شيء لكن أعرف أنك لن ترتاح حتى تعرف ماذا تريد منك

- لا تقلق على راحتي واهتم بشؤونك

يرن هاتف (عواد) ويرى أنه رقم مجهول آخر فيقول مبتسماً : هل تظن أنها هي؟

- لا ترد ..

(عواد) مبتسماً: سأرد وأنهي لعبة القط والفأر هذه

فتح (عواد) الخط وبعد حوارٍ بسيط لم يقل فيه الكثير واكتفى بهز رأسه وقول كلمات مثل: «نعم.. نعم».. «أتفهم قلقكِ».. «سأخبره بما أخبرتِني»..

أغلق (عواد) هاتفه وبقي صامتاً وعلى وجهه ارتسمت ابتسامة ..

- لِمَ تبتسم هكذا؟

(عواد) بنبرة خبيثة وابتسامة أخبث : أنتظر سؤالك عن فحوى المكالمة ..

- أخبرتك بأني لست مهتمّاً

(عواد) : نعم أعرف .. لست مهتمّاً .. لكن ..

- لكن ماذا؟

(عواد) : تلميذتك السابقة عبثت بالمجهول مرة أخرى وهي الآن تواجه خطراً كبيراً وتريد مساعدتك ..

- ليس لدي وقت أضيعه معها.. لقد حذرتها مما كانت تمارسه .. فلتواجه مصيرها وحدها

(عواد) مبتسماً : حسناً.. كما تشاء

صمتنا لدقائق لكن التوتر والقلق كانا باديين على وجهي و(عواد) يراقبني باسماً ..

- أي نوع من المشكلات أوقعت نفسها فيها تلك الحمقاء هذه المرة؟

(عواد) بتهكم : هل أنت مهتم الآن؟

- كف عن المراوغة وأخبرني في الحال!

(عواد) : لقد قامت باستدعاء مستخدمة الكتاب الذي سرقته ولا تستطيع صرف من استدعته

تجهمت وقلت بحنق : تلك الحمقاء!

(عواد) : هل سنذهب لمساعدتها أم نذهب للعشاء كما خططنا؟

نهضت من مكاني وقلت : «أنا من صنعتها وأنا من يجب أن أتحمل تبعات ما صنعت ..»

(عواد) وهو يقف بجانبي : سنذهب إليها إذاً؟

- لا خيار لدي يا (عواد) .. لا خيار آخر ..

ركبنا السيارة وكانت الساعة وقتها تشير لمنتصف الليل وبعد ما أدار (عواد) محركها قال : أنا لا أعرف أين تقيم ..

قلت وأنا أخرج هاتفي من جيبي : انتظر .. أعتقد أنها أرسلت موقعها في إحدى الرسائل التي كانت ترسلها لي

وبالفعل وبعد أن فتحت رسائلها المتراكمة وجدت الموقع وقمت بإرساله لهاتف (عواد) الذي انطلق مسرعاً باتجاهه. خلال الطريق لم نتحدث لأني كنت مندمجاً بقراءة الكم الهائل من الرسائل النصية المرسلة لي على مدى أسابيع. بدأت الرسائل ببعض الاعتذارات والتبريرات التي سمعتها من قبل لكن تدريجيّاً مع تقدمها تحولت لطلبات مساعدة واستفسارات عن أمور غريبة تحدث لها وانتهت بتوسلات مستميتة لمساعدتها وخوفها على حياتها مما كان يحدث لها.

وجدت بعض الصور ضمن الرسائل وجميعها كانت لأجزاء متفرقة من جسدها أظهرت إصابات متفرقة وكدمات توزعت بين بسيطة وشديدة لكن الصور الأخيرة كانت مفزعة خاصة التي أخذتها لوجهها .. بالكاد تعرفت على ملامحها .. الرضوض والتورمات غطت معظمه وأعتقد أنها فقدت خصلات كثيرة من شعرها.

حينما انتهيت من قراءة جميع الرسائل النصية انتقلت للصوتية منها واستمعت لها تباعاً حسب ترتيبها الزمني وكانت خمساً تدرجت في محتواها من سيئ إلى أسوأ. سمعتها مع (عواد) في الوقت ذاته.

الرسالة الأولى : «كيف حالك يا معلمي؟ .. أعرف أنك لا تزال غاضبًا مني وأفترض أنك الآن علمت بما فعلته لكن يجب أن تتفهم وتدرك أني أملك طموحاً وقدرة لا تراها أنت .. سوف تكون فخورًا بي يوماً ما .. أعدك بذلك»

الرسالة الثانية : «لمَ لا ترد على اتصالاتي؟! .. أنا أحتاجك! .. لقد اقترفت شيئاً ما ولا أستطيع التراجع عنه! .. أرجوك اتصل بي في أقرب فرصة! ..»

الرسالة الثالثة (بصوت متعب ومرهق) : «أعتقد أني مصابة بمرضٍ ما .. كوابيسـي مؤلمة .. أشعر بالبرد .. الخواتم لا تفيد .. أتوسل إليك .. تحدث معي ..»

الرسالة الرابعة : ...

(عواد) لم أسمع شيئاً

- الرسالة فارغة .. وكأنها سجلتها ولم تتحدث .. بقيت رسالة صوتية واحدة .. أرسلتها بالأمس ..

الرسالة الخامسة (بهدوء وبرود) : «لقد فقدت الكثير اليوم .. وأعتقد أن حياتي هي التالي ..»

قلت محدثاً نفسي بصوت مسموع لـ (عواد) : الوضع أسوأ مما ظننت وقد يكون الأوان قد فات

(عواد) ملتفتاً نحوي لثوانٍ محاولاً النظر لشاشة هاتفي معيداً نظره أمامه للتركيز على الطريق : ماذا تقصد؟

- أخشى أني لن أستطيع مساعدتها ..

(دجن) من المقعد الخلفي : اللي سوى كذا شيطان علوي .. ومو أي شيطان ..

- من النسل الأول ..

(عواد) وتركيزه على الطريق أمامه والذي كان معتماً لأنه خرج عن حدود المدينة : ماذا؟ .. ماذا تقول؟

قلت بعد ما انتبهت أننا خرجنا لطريق زراعي وأشجار النخيل تحيط بنا من جميع الجوانب : إلى أين أنت ذاهب؟

(عواد) : هذا هو الطريق المؤدي للموقع الذي زودتني به ..

فتحت هاتفي لأتحقق من الموقع ووجدت أنه يقع في أقصى البلد نهاية

المخطط الزراعي وعند بداية حدود الصحراء : أعتقد أنه سيقودنا لمزرعة ما ..

(عواد) : مزرعة؟ .. ولَم تقيم في مزرعة؟

قلت بنبرة متوجسة : لقد اختارت ذلك المكان لتمارس طقوس التحضير دون إزعاج .. تحضير شيطان علوي من النسل الأول يستلزم الكثير من القرابين والأعمال الشنيعة بالحيوانات وبنفسها كذلك ولم تكن تستطيع القيام بها في شقة أو سكن خاص له جيران

(عواد) : تذكرت المزرعة التي زرناها في الماضي حينما كنا نبحث عن مصدر ذلك الفراء المشؤوم

(دجن) : قل حق (عواد) يرجع .. ما راح تقدر تساعدها بدون طلاسم .. وحتى لو استخدمتها ما في ضمان أنك بتربطه أو تفكها منه .. البنت ضاعت خلاص

بدأت أفكر بصمت في كلام (دجن) .. فقد كان محقّاً .. هذا النوع من الشياطين الاستحواذية يملك قوة خارقة وغير طبيعية حتى على مستوى الشياطين أنفسهم واستدعاء أمثاله أمرٌ يتجنبه أعتى السحرة لأنه لا يقوض ولا يربط بسهولة ومجرد ما أن يتم استدعاؤه يقوم بالفتك بمن حوله مبتدئاً بمن حضروه وأنا متعجب أن (هاجر) بقيت على قيد الحياة حتى الآن.

(دجن) : لا تفكر وقل له يرجع .. لا تصير أبله .. خلاص ما عاد في فايدة

رفعت كفي وقلت : اصمت دعني أفكر!

(عواد) : أنا لم أقل شيئاً

- ليس أنت!

نظر لي (عواد) بنظرة المستنكر المتعجب لكنه لم يعلق وأكمل طريقه حتى توقف بنا أمام مدخل مزرعة امتد سورها المصنوع من خوص النخيل لعشرات الأمتار يميناً وشمالاً ولم يكن هناك مصدر للأنوار سوى الصادر من مصابيح السيارة.

(عواد) : وصلنا

أمعنت النظر بمدخل المزرعة لثوانٍ ثم قلت قبل أن أترجل من السيارة : لا تطفئ المصابيح.

تبعني (عواد) ووقفنا أمام البوابة الحديدية الصدئة المتهالكة ولم ندخل مباشرة ..

(عواد) : ماذا الآن؟

- هل تملك كشافاً يدويّاً في سيارتك؟

(عواد) : لمَ لا تستخدم كشاف هاتفك؟

- تركته في السيارة ثم إن نور الهاتف لن يكون كافياً

(عواد) : حسناً أعتقد أن هناك واحداً في صندوق السيارة .. سأذهب للتحقق

سار (عواد) مبتعداً عني وبدأ يبحث في السيارة وبينما كنت واقفاً أستشعر الطاقة السلبية الهائلة القادمة من وسط المزرعة دنا مني (دجن) ووقف حيث كان يقف (عواد) وشاركني النظر قائلاً : مو كل مشكلة لازم تحلها .. هالمعركة مو معركتك .. حاول تعترف وتواجه حقيقة أنك فشلت هالمرة

قلت وأنا أتأمل التصدعات في البوابة المعدنية : لا تخلط بين الفشل والهزيمة .. فشلت في أمور كثيرة وسأفشل مستقبلاً لكني لم أهزم بعد .. ولو تراجعت اليوم وتخليت عنها فسيكون ذلك إقراراً مني بالهزيمة

(دجن) : أنت مستوعب أنك بتهلك أول ما تدخل .. ترى اللي ناوي تسويه غلط .. الوقت ما فات .. يمديك تتراجع وتترك عنك هياطك اللي بيوديك كالعادة في داهية

وجهت نظري تجاه (دجن) وقلت بثقة : كنت وما زلت من الباحثين

دومًا عن الصواب ولو عن طريق الخطأ .. أنا لست شجاعاً أو فارساً مغواراً لكني صاحب مبدأ ولو تراجعت الآن وعدت لفراشي فسأعيش جحيماً لن ينتهي إلا بموتي .. لذا ..

(دجن) : يا ذا البلشة .. واضح أنك شغلت نظام الهياط على حده الأعلى وما راح تسمع مني شي

- هذا شيء لن تفهمه ..

(دجن) وهو يضمحل : كل اللي أعرفه هو أنك مهايطي من يومك ..

عاد (عواد) حاملاً في يده كشافاً صغيراً وهو يقول : وجدت هذا لكن لا أعرف إن كانت بطاريته ستبقى لمدة طويلة

أخذت الكشاف من يده وقلت : يمكنك أن تبقى في السيارة وتنتظرني .. المكان لن يكون آمناً يا (عواد)

(عواد) : تعرف أني لن أفعل

قلت وأنا أتقدم نحو البوابة : أحببت أن أعطيك الخيار فقط

تبعني (عواد) لوسط المزرعة وما أن دخلنا حتى استقبلتنا رائحة نفاثة مميزة .. خليط مما يشبه الروث واللحم النيء. وجهت ضوء الكشاف يميناً وشمالاً في محاولة للتعرف على تضاريس المكان ومبانيه ولم

أجد سوى مجموعة من جذوع النخيل الخاوية بين المنحنية المحتضرة والجرداء الميتة مع قليل من الأعشاب الخضراء التي نمت في أماكن متفرقة. لم يكن هناك سوى مبنىً وحيد استقر وسط المزرعة يبعد عنا ما يقارب الخمسين متراً ظهرت معالمه حينما وجهت الكشاف نحوه.

الهدوء كان مهيمناً على المكان ولا يُسمع سوى صرير بعض الجنادب ونباح مجموعة من الكلاب خارج أسوار المزرعة. قبل أن نصل لذلك المبنى لمحنا مبنىً أصغر منه على يسارنا فتوجهنا إليه ودخلناه لنرى منظراً مقززاً.

مجموعة من جثث الحيوانات الصغيرة المسلوخة دون قطع رؤوسها ..

أرانب .. قطط .. طيور ..

بصمات كفوف دامية طبعت على الجدران ..

رسومات هندسية مرسومة حولها وفوقها بأحجام مختلفة ..

رأس كلب مفصول منصوب في إحدى الزوايا لكن جسده غير موجود ..

فضلات بدت أنها بشرية موزعة على أغلب الأسطح ..

رائحة البول الجاف فاحت من المكان خالطها روائح متقيتة أخرى ..

(عواد) واضعاً كفه على وجهه مغطياً أنفه وفمه : أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ..

- لنخرج من هنا ونتوجه للمبنى الآخر

مع تقدمنا أكثر بين جذوع النخيل وأصوات الجنادب القريبة والكلاب البعيدة واقترابنا من المبنى الكبير بدأنا نسمع صوتاً آخر .. صوتاً يشبه الأنين ..

(عواد) : هل تعتقد أنها هي؟

- سنرى .. تقدم بحذر وانتبه لخطواتك .

سرنا حتى وصلنا لمدخل المبنى وقبل أن نتقدم أكثر قلت لـ (عواد) وأنا أمد له الكشاف : ابقَ هنا حتى أعود ..

(عواد) : ماذا؟! .. هل ستتركني هنا؟!

لو كان تخميني صحيحاً و(هاجر) استدعت من أظن فليس من الحكمة الدخول عليه دون خطة للتخلص منه لأننا حتى وإن تمكنا من أخذها معنا فلن نستطيع الرحيل قبل التخلص منه لأنه سيلاحقها

وسيلاحقنا وسنهلك عاجلاً أم آجلاً .. هذا الشيء يجب ألا يخرج من حدود المزرعة

(عواد) : وكيف تنوي القيام بذلك؟ .. هل ستعود لاستخدام الطلاسم؟

لا .. هذا عهد أنوي الحفاظ عليه .. حتى وإن كلفني حياتي

(عواد) : علم الأولين لن يكون كافياً

أعرف .. لذلك سأطلب خدمة من صديق قديم

(عواد) : عمن تتحدث؟

قلت وأنا أهم بالتراجع بخطواتٍ للوراء لمدخل المزرعة : فقط ابقَ مكانك ولا تقم بأي عمل بطولي حتى أعود

استدرت وسرت بخطاً متسارعة تحولت لهرولة ولم أتوقف حتى خرجت عن المنطقة الزراعية ودخلت الصحراء القريبة. وبعد ما أصبحت على مسافة كافية جثوت على رُكبي وبدأت أرسم بسبابتي على الرمال رسمة معينة. عندما انتهيت بقيت أنتظر أتأمل النجوم لثوانٍ حتى ظهر أمامي رجل أسمر ضخم بلحية بيضاء كالثلج جلس متربعاً بأعين مغمضة يلبس جلباباً رمادياً وعمامة خضراء.

كان ذلك شيخاً من شيوخ الجن المسلمين الذين تعاملت معهم للحصول على مندسين ..

- أريد عوناً ومعاونة ..

(شيخ الجن) دون أن يفتح عينيه : في وجه من؟

- شيطان .. علوي ..

(شيخ الجن) : من أي نسل ..؟

ترددت بالإجابة لكني قلتها : «مركاز» .. من النسل الأول ..

فتح شيخ الجن عينيه حينما سمع ذلك وقال : فك أو تخليص؟

- مَحْق ..

(شيخ الجن) : سيكلفنا ويكلفك ذلك الكثير ..

- أعرف .. الدية في رقبتي .. والعوض والسداد في ذمتي

أعاد الشيخ إغماض عينيه أتبعه بصمت وجيز ثم قال : مُنحت الحق .. هم عند تصرفك الآن ..

رفعت نظري ووجهته خلفه لأرى أفواجاً من الجن يقفون بأكتاف

مزاحمة ينظرون إليّ بأعين صفراء متوهجة فقلت : هل سيكون ذلك كافياً؟

(شيخ الجن) : هذه قمة الملء وأقصى العنان ..

نهضت من مكاني وقلت : لو نجوت فدينك سيسدد

أومأ شيخ الجن برأسه بالموافقة قبل أن يختفي تاركاً جيش الجن تحت تصرفي ..

استدرت وعدت جرياً تجاه المزرعة وحينما وصلت لمدخل المبنى حيث تركت (عواد) لم أجده .. التفت حولي ولم أرَ له أي أثر فتقدمت ودخلت وسط المبنى بخطواتٍ حذرة. بالرغم من أني لم أكن أملك مصدراً للضوء إلا أن السماء وفرت لي ما يكفي لرؤية محدودة حينما بدد نور النجوم المتوهجة والقمر شبه المكتمل ظلام المبنى المفتوح الخالي من النوافذ المغلقة.

المكان لم يكن معقداً .. غرفة صغيرة عند المدخل قادت لباحة مفتوحة السقف تقود لغرفة أخرى مع بعض المرافق المهملة. وفي تلك الباحة وجدت (عواد) .. منزوياً في إحدى الزوايا محتضناً لنفسه بأعين متسعة ووجه شاحب ومرعوب فاقتربت منه وقلت : لَمَ دخلت؟

(عواد) بوجه متشنج سارح أمامه : سمعتها تصرخ ..

- وهل وجدتها؟

هز (عواد) رأسه بالإيجاب دون أن يتحدث ..

- أين؟

رفع (عواد) سبابته الراجفة ووجهها تجاه مدخل الغرفة الأخرى فهممت بالسير نحوها لكنه شدني من لباسي وقال بصوت مشبع بالرعب والجزع : لا تذهب! .. هناك شيء مريع بالداخل!

حررت قبضته من عليّ برفق وقلت : ابقَ هنا حتى أعود ..

دخلت للغرفة ..

وجدت (هاجر) مستلقية أرضاً على بطنها ..

لباسها ممزق ..

جسدها يوحي بأنها تعرضت لكثير من الانتهاك ..

يقف فوقها كائن ضخم مشوه الخلقة ..

لا يمكن وصف المخلوق الذي رأيته بدقة لكنه كان طويل القامة

بشرة حمراء داكنة لزجة وأعين مسحوبة سوداء خالية من الحياة. جسده أملس وأنامله طويلة مخلبة بمخالب صفراء وبالرغم من طوله إلا أنه بدا محنياً بعض الشيء وحدبة ظهره منتفخة. علمت بأن ذلك الشيء انتبه لوجودي حينما وجه نظره ووجهه البشع ناحيتي وبدأ يفح كالأفعى .. أعتقد أنه شاهد الجن المحيطين بي والذين بلا شك دخلوا معي وأدرك أنني أنوي التخلص منه فقال بصوت غليظ مذبذب وفم يقطر بما يشبه الدسّم : «زيزف ..»

فهمت معنى الكلمة لأنها من اللغات القديمة التي ألفتها من قراءاتي السابقة في مكتبة (عمار) وهي تهديد مباشر وصريح بالتراجع. كنت أنتظر اللحظة التي يحدث فيها الاشتباك مع جيش الجن كي أتمكن من إخراج (هاجر) من تحته ومن المكان لكن ذلك الصدام تأخر وبقينا متقابلين نتبادل النظرات والأنفاس الثقيلة.

حدث شيء لم يكن في الحسبان وهو أن (هاجر) رفعت رأسها وشاهدتني وحاولت النهوض مما دفع ذلك الشيء لينزل بقدمه على رأسها ويثبتها مكانها. كنت مستغرباً من عدم تقدم جيش الجن نحوه وبقائهم خلفي ساكنين حتى أدركت وفهمت السبب.

هم معنيون بحمايتي فقط وليس حمايتها لذلك لن يتدخلوا إلا إذا تعرضت أنا للخطر المباشر لذا قررت التقدم نحو الشيطان العلوي

لاستفزازه لمهاجمتي وبالفعل ومع كل خطوة أخذتها تجاهه أخذ هو بالزمجرة حتى وقفت أمامه مباشرة ولم يفصلني عنه سوى جسد (هاجر) المُلقى بيننا.

رفعت رأسي ووجهت نظري ناحيته وقلت: «زيزف ..»

لطمني ذلك الشيء بقوة رمت بي جانباً لأقصى المكان ولم يردني سوى ارتطامي بالجدار لأسقط على وجهي وصاعقة ألم تمر بجسدي كادت أن تفقدني الوعي. بدأت حينها أسمع صراخات تتعالى لمجموعة كبيرة من الأصوات تخللها أصوات أخرى تشبه زئير الحيوانات المفترسة تزامن معها وميض ضوء قوي توهج بالمكان ونار اشتعلت على جدرانه. نهضت بسرعة متحاملاً ومتحملاً الألم النابض في عظامي وجريت تجاه (هاجر) وعندما وصلت إليها حاولت إنهاضها لكنها لم تستجب لي ولم أكن أملك القوة الكافية لحملها خارج المكان فقبضت على كاحليها وسحبتها كالشوال ولم أتوقف حتى خرجت من المبنى برمته.

وقفت أراقب الأنوار المتوهجة وسط المبنى التي استمرت وتزايدت وخرجت من سقفه المفتوح ونوافذه وأصوات الصراع لم تنقطع وانتابني شعور أن شيئاً سيئاً سيحدث لنا لو لم نبتعد أكثر ونخرج من المزرعة.

ف كيف لكني انتفضت واستجمعت نفسي وحملت (هاجر) على
وهرولت بها حتى اصطدمت ببوابة المزرعة المعدنية وفتحتها على
عيها وسقطت على الأرض معها أمام مصابيح السيارة المضاءة
ت الوعي مباشرة.

الضّوءُ آخر الجُحْر

يد تهز كتفي برفق .. تحاول إيقاظي ..

أفتح عينيّ لأرى شابة منتقبة ..

تخبرني أن لدي زائراً ..

أجول بنظري من حولي ..

غرفة بيضاء ..

مستشفى المدينة ..

بعد ما رأت الممرضة أني استيقظت سارت خارجة من الغرفة ليدخل بعدها (عواد) وعلى وجهه ابتسامة عريضة وهو يقول : حمداً لله على سلامتك .. لقد نجوت

- ماذا عن (هاجر)؟

(عواد) : هي الأخرى بخير بشكل عام بالرغم من حالتها المزرية لذلك ستبقى هنا بضعة أيام أخرى

- أريد الخروج ..

(عواد) : الطبيب أخبرني بأنه سيمنحك تصريحاً بذلك نهاية اليوم بعد المرور عليك

- هل أبلغت أحداً من أهلي عما حدث؟

(عواد) : لا تقلق .. أعرف أنك لا تحب ذلك

- حسناً .. أريدك أن تذهب للسوق وتشتري بعض الحاجيات

(عواد) : يمكننا تأجيل ذلك لوقت لاحق

- لا .. اليوم والآن .. لدي دين يجب أن أسدده

(عواد) بتعجب : دين؟ .. هل تقصد أنك تريد إخراج صدقة أو زكاة شُكراً لله على سلامتك؟

- نفذ دون جدال يا (عواد)

(عواد) : حاضر .. ماذا تريد؟

زودت (عواد) بتفاصيل الأشياء التي أحتاجها وبالرغم من استغرابه في بادئ الأمر من فحوى الطلبات التي طلبتها إلا أنه لم يناقش وخرج مباشرة متوجهاً للسوق على وعد منه بأنه سيعود وقت خروجي ليقلني للمنزل. بعد خروجه مباشرة تشكل أمامي (دجن) لكنه لم يتحدث معي وبقي عاقداً ذراعيه مسنداً ظهره للجدار أمام سريري يحدق بي بوجه مشمئز.

- ماذا؟ .. لمَ تحدق بي هكذا؟

(دجن) : أتأمل حسنك ..

- وهل اكتفيت؟

(دجن) : أنت عارف أن الشيطان مات؟

قلت وأنا أنهض بتثاقل وأسند ظهري للوسادة البيضاء خلفي : هذه كانت الفكرة ..

(دجن) : وهذا ثأر جديد انربط برقبتك .. وقبيلته ما راح تسكت

- القائمة طويلة ..

(دجن) : أنت مبسوط أن اسمك الآن معمم عليه في كل خرابة ومقبرة؟

تألمت بشدة حينما ضحكت وبدأت بالسعال وأنا أقول : اصمت أرجوك لا أريد الضحك

(دجن) : اضحك اضحك .. كلها كم يوم وبتبكي دم لما «المراكيز» يجونك ويعلقونك من ..

قاطعته قائلاً : لدي اعتراف ..

(دجن) بتهكم : ناوي تقول وصيتك؟

- لا .. أريد أن أقول .. بالرغم من أنك مجرد وهم من صنع خيالي إلا أنني حقيقة افتقدتك .. ولم أتجاوز رحيلك ..

اضمحل خيال (دجن) دون أن يرد بشيء ..

نهاية اليوم عاد (عواد) لأخذي من المستشفى بعد ما اشترى كل ما أمرته به وحينما عدنا للمنزل طلبت منه وضع الحاجيات عند مدخل القبو وقبل رحيله قال : هل ستخبرني لِمَ طلبت هذه الأشياء ..؟

أجبته وأنا أتفحصها للتحقق من أن جميع ما طلبته موجود : لا ..

(عواد) : حسناً .. أراك غداً بإذن الله

- أمهلني أسبوعاً قبل أن تزورني

(عواد) : لماذا؟

- أحتاج عزلة ..

(عواد) : كما تشاء .. اتصل بي لو احتجت شيئاً آخر

- سأفعل ..

انقضى الأسبوع ..

وعادت حياتي إلى حد ما لطبيعتها السابقة ..

(عواد) يحضر بيضه صباحاً ..

زيارة أمي كل جمعة .. بالإضافة ليوم الاثنين الآن ..

قراءة .. تدوين .. تأمل ..

استمر هذا الروتين لما يقارب الشهرين دون أي تغيير يذكر .. لا في الأعمال أو الأشخاص .. حتى (دجن) لم يعد يظهر لي كالسابق .. أعتقد أن ذكراه في عقلي هدأت وسكنت بعد اعتذاري له ..

تلقيت اتصالاً من (عواد) عصر أحد الأيام .. كنت في غرفتي وقتها .. أجبته : «اتصال في وقت غير مألوف ..»

(عواد) : أنا في الطابق الأسفل

- حسناً سأنزل لك بعد قليل

(عواد) : معي زائر ..

قلت بتعجب : زائر؟

(عواد) : نعم .. وأعرف أنك لا تحب الزيارات المفاجئة لكن هذه الحالة تحتاج إلى علاج عاجل

أجبته بشيء من السخط : ومنذ متى أستقبل الحالات في منزلي؟! .. هل فقدت عقلك؟!

(عواد) ببرود غريب : هذه حالة خاصة .. سنكون بانتظارك

قلت قبل أن أغلق الخط : قدم الضيافة لزائرك وارحلا .. أنا لن أستقبل أحدًا!

وضعت هاتفي فوق خزانة ملابسي وبدأت أفكر بوجه عابس لتصرف (عواد) غير المسؤول وخلال ذلك سمعت باب غرفتي يُطرق.

فتحت الباب لأجد (هاجر) تقف وراءه مرتدية معطفًا جلديًّا أسودَ غريباً بياقة عالية وشفتاها وأظافرها طليت باللون الأسود وعيناها اكتحلتا كذلك باللون ذاته وباستثناء الندبة الكبيرة التي بدأت من جبينها مروراً بعينها اليسرى منتهية عند منتصف خدها إلا أنها كانت تبدو بحالة جيدة.

(هاجر) باسمة وهي تشد على حقيبة حملتها على كتفها : «كيف حالك يا معلمي ..؟»

لم أجب عليها ووجهت نظري المتجهم لـ (عواد) الواقف خلفها وقلت : تعرف أنك ستدفع ثمن ما فعلته ..

(عواد) : نعم نعم .. أعرف ..

(هاجر) ونظراتها الحادة منصبة عليّ : شكراً يا (عواد) .. هل يمكنك تركنا وحدنا؟

(عواد) : بكل سرور .. لكن قبلها لدي سؤال

(هاجر) تحيد بنظرها عني موجهة أذنها تجاه (عواد) الواقف خلفها : تفضل ..

(عواد) مشيراً لياقتها العالية وشعرها المربوط كذيل الفرس : ما هذا اللبس والمنظر الغريب؟

(هاجر) : هل أعجبك؟

(عواد) : لا أعرف .. تبدين كأحد مصاصي الدماء

(هاجر) باسمة : سأعتبر ذلك إطراء ..

- هل انتهينا؟

(عواد) : حسناً .. حسناً .. أنا راحل

سار (عواد) مبتعداً ونزل للطابق السفلي ..

وجهت كلامي بعدها لـ (هاجر) وقلت : لا يمكنكِ البقاء

(هاجر) : أريد الحديث معك فقط .. ألا أستحق فرصة لحديث أخير؟

قلت وأنا أدخل الغرفة : ماذا تريدين؟

(هاجر) تسير خلفي لوسط الغرفة : هل ما زلت غاضباً مني؟

أجبتها دون أن ألتفت نحوها : حاولي أن تفهمي .. كي أغضب منكِ يجب أن أكنُّ لكِ مشاعر من الأساس وهذا لم يحدثْ ولن يحدث .. أنتِ كنتِ مجرد تلميذة .. لا أكثر ولا أقل

(هاجر) : وما زلت .. وسأبقى .. حتى وإن لم تعترف بي

- هل هذا هو الموضوع الذي أتيتِ من أجله؟

تقدمت (هاجر) ووقفت أمامي وأخرجت من حقيبتها الكتاب الذي سرقته ومدته لي قائلة : أتيت لأشكرك على إنقاذ حياتي ولأعيد لك هذا ..

- ضعيه مكانه حيث كان ..

نفذت (هاجر) ما طلبته ثم أخرجت شيئاً آخر من حقيبتها .. لفافة قماشية ومدتها لي قائلة : أتمنى أن تقبل مني هذه الهدية البسيطة

- ما هذه؟

(هاجر) : افتحها وستعرف

اخذت اللفافة وفتحتها لأجد فطيرة ..

(هاجر) باسمة : فطيرتك المفضلة .. زعتر بالليمون ..

- هل هذه مزحة؟

(هاجر) : لا أبدًا يا معلمي .. أنا هنا لأودعك .. لن تراني مجددًا بعد اليوم لأني سأرحل

- ترحلين إلى أين؟

(هاجر) : سؤالك دليل اهتمام

- رافقتكِ السلامة إذًا .. ولا تنسي أن تغلقي الباب خلفكِ

(هاجر) : ليس قبل أن نتشارك لقمة أخيرة

- هل تظنين أني سأتناول شيئاً من صنع يدكِ؟

(هاجر) بخليط من الحزن والإحباط : أنا لست بهذا السوء الذي تظن .. هل تعتقد حقّاً أني وضعت شيئاً بداخلها قد يلحق بك الضرر؟

- نعم ..

(هاجر) : ألهذا الحد تظنني جاحدة؟ .. لقد أنقذت حياتي وأنا هنا أحاول أن أعبر عن امتناني لك وكل ما تفعله هو التجريح بي! .. اعتقدت أننا سنحظى بحوار مثمر لكن يبدو أني كنت مخطئة

ما زلتِ لا تعرفين الفرق بين الحوار والجدال .. وعلى أي حال أنا أمنح الثقة مرة واحدة فقط ولن أثق بكِ مجدداً بعد ما حدث .. لقد أثبتِّ لي شيئاً اليوم .. أن النحاس لن يصبح ذهباً مهما صُقل ..

(هاجر) رافعة الفطيرة بيدها : سوف أقضم منها قبلك إذا كان ذلك سيريح بالك

- لا داعي .. اتركيها هنا وارحلي

(هاجر) باسمة وهي تقربها من فمي : ليس قبل أن تعطيني رأيك بها

ولأول مرة في حياتي ..

يتفق قلبي مع عقلي ..

ولا أجد ذرة شك أو حيرة ..

إن قرار أخذ قضمة من تلك الفطيرة ..

سيكون خطأً فادحاً .. ومخاطرة لا تستحق ..

ومع ذلك .. فعلت ..

أخذت قضمة منها بينما كانت (هاجر) تراقب بوجه باسم وأنا أمضغها وأبتلعها ..

(هاجر) : كيف وجدتها؟

- لا بأس بها .. هل ارتحتِ الآن؟

(هاجر) : ليس بعد ..

- ماذا تقصدين؟

حينها تصلب جسدي وجف ريقي وأحسست بطعنات تشق أمعائي ..

اختل توازني .. ترنحت وسقطت على وجهي ..

أعراض تقليدية لسحرٍ مأكول ..

(هاجر) وهي تسير تجاه رف الكتب فوق فراشي وتبدأ بالتقاطها واحداً تلو الآخر وتضعها في حقيبتها :

«لا تسئْ فهمي أو تستأْ يا معلمي لكن وقتك قد انتهى منذ زمن طويل وحان الوقت أن يتولى المهمة من هو أقدر وأشجع منك .. لقد قدمت لك خدمة بتخليص نفسك من نفسك .. أنت روح مرهقة وتحتاج للراحة ..»

كنت وقتها أتقلب على الأرض من شدة الألم ولم أقوَ حتى على الصراخ والاستنجاد بـ (عواد) ولم يُمَكِنِّي جسدي سوى من الزحف لبضع خطوات خلف (هاجر) التي سارت نحو باب الخروج وفتحته قائلة :
«لا تلم (عواد) فقد كان تحت تأثير طلاسمي ..»
رفعت يدي محاولاً مسك طرف ثوبها لكنني لم أستطع ..
(هاجر) وهي تتأملني أصارع الألم : المخرج الوحيد لك هو أن تستخدم الطلاسم ..
كانت محقة فيما تقوله لكن ذلك لن يحدث حتى وإن فقدت حياتي وربما هذه هي النهاية الطبيعية والعادلة للحياة التي قدتها وعشتها ..

حينما تيقنت (هاجر) من أني لن أنقذ نفسي بالطلاسم قالت قبل خروجها وإغلاق الباب خلفها : «أعرف أنك الآن أصبحت فخورًا بي كما وعدتك سابقاً .. وداعاً يا معلمي ..»

خرجت وتركتني أحتضر .. فالعمل الذي دسته لي كان قويّاً جدّاً ومفعوله سريع ولن يستغرق سوى دقائق أخرى قبل أن يفتك بي وأهلك وخلال تقلبي بين ندمي وأوجاعي ظهر لي (دجن) وقال بخليط من التوتر والتأنيب وبصوتٍ مرتفع :

«هذا اللي تبيه! .. هذا اللي تبيه!»

لم أستطع الإجابة عليه... وحتى لو استطعت فما الجدوى أو الفائدة المرجوة؟ .. بقيت أنظر إليه بأعين زائغة أنتظر خروج روحي لأجده فجأة يجثو عند رأسي ويحدثني قائلاً : وش علاجك؟!

قلت بصوت بالكاد يسمع : نبتة ..

(دجن) : طيب كلم (عواد) يجيبها لك!!

- لن يلحق .. هذه النبتة .. نادرة .. ولا تنمو إلا في مكان معين بالصحراء الحمراء عند جحور الزواحف

(دجن) : وين يعني؟!

قلت متهكماً من وراء ألمي : هل ستجلبها لي؟

(دجن) صارخاً فيَّ : قل وين ولا تكثر كلام!!

أخبرته عن الموقع وفي لمح البصر وجدت نفسي هناك مستلقياً على بطني وعشبة كبيرة من تلك النبتة نابتة أمامي و(دجن) من خلفي يقول بنبرة متوترة وصوت مرتفع : هذي اللي تقصد؟!

أجبته وأنا أمد يدي الراجفة قاطفاً بعض أوراقها : نعم ..

حشرت قبضة من تلك الأوراق بين أسناني وبدأت أمضغ العشبة وأبتلع عصارتها ثم قلت : «ادفن جسدي العاري هنا ..»

(دجن) بجزع شديد : أدفنكِ ليه؟! .. العلف اللي كلته ما نفع؟!

قلت قبل أن أفقد الوعي : «جسدي دون رأسي يا أحمق ..»

سقط رأسي بعدها ولم أشعر بنفسي ..

ضاحِك الثّغْر

فتحت عينيّ .. ليلاً ..

جسدي مطمور تحت الأرض ..

خلف رأسي تلة رملية صغيرة ..

توزع عليها مجموعة من الجحور والأعشاب ..

عضلاتي تئن ورأسي ينبض ألماً ..

نظري مشوش .. وحلقي جاف ..

أعتقد أني أمضيت عدة ساعات غائباً عن الوعي ..

أو أياماً .. لا أعرف ..

أجول بنظري من حولي برقبة متشنجة ..

تقع عيني على (دجن) الجالس بقربي على الرمال ..

يلحظ استيقاظي .. يحدثني بنبرة مهتمة ..

(دجن) : كيفك الحين؟

- أنت لم تكن وهماً إذاً ..

(دجن) : خلك من هذا الآن .. محتاج شيء ثاني والا خلاص طبت؟

- تلك النبتة لم تعالجني تماماً .. فلم يكن هذا الغرض منها فهي لم تكن سوى ترياق مؤقت لإيقاف تطور السحر وتفاقمه لكن الأثر لم يبرح ويستلزم علاجاً آخر

(دجن) : وشو .. قل لي

- ماء .. أحتاج ماء ..

وفي لمح البصر وجدت (دجن) يمد إناء ماء ويقربه من فمي ..

شربت كفايتي ثم قلت : سوف أغفو من وقت لآخر وأدخل في غفوات طويلة .. لا تجزع .. هذه مرحلة يجب أن يمر بها جسدي قبل أن يتخلص تماماً من الأثر

(دجن) بقلق : طيب وش تحتاج بعد؟

- أن تسقيني الماء في كل فرصة تجدني فيها مستيقظاً ولا تطعمني شيئاً حتى أخبرك

(دجن) : بس؟

- أحتاج أخذ خليط مرة واحدة فقط وفي أقرب فرصة

(دجن) : خليط إيش؟

زودت (دجن) بمقادير الخليط وخلال ثوانٍ وجدته يمده لي في الإناء ذاته ..

بعد ما أخذت عدة رشفات منه سقط رأسي وغططت في نومٍ عميق ..

قضيت الأيام التي تلت ذلك في دوامة من الغَفَوات واليقظات المشبعة بالكوابيس والهلوسات وفي كل مرة أكون مستيقظاً لفترة وجيزة يحرص (دجن) على سقيي ما يستطيع من الماء. استيقظت في إحدى المرات في وقت الظهيرة ورأيت أن (دجن) قد صنع فوق رأسي ما يشبه الغطاء لحمايتي من الشمس المحرقة وبعد أن أسقاني الماء قال : إلى متى بتبقى كذا؟

قلت وأنا أشعر بغثيان شديد ينتابني : أنا أتعافى .. أمهلني فقط وقتاً أكثر

(دجن) : خذ كل الوقت اللي تحتاج .. أنا هنا وما راح أتركك

- قد يطول الأمر ..

(دجن) : انتظرتك ثلاث سنين برا بيت (عمار) وأنا أكرهك .. فما بالك وأنا أحبك؟

قلت وأنا أشعر بالخدر لاقتراب غفوة أخرى : تحبني؟ .. لا تثر غثياني أكثر مما أنا عليه

(دجن) : «غثيانك»؟ .. ما حد غثيث غيرك ..

تبسمت بأعين مغمضة قبل أن يسقط رأسي وأدخل في غفوة أخرى ..

كان من المفترض أن أشهد بعض التحسن بعد مضي خمسة أيام لكن

ذلك لم يحدث مما دفع (دجن) لسؤالي في إحدى اليقظات عصراً وهو يسقيني الماء : مو الأحسن لك تاكل شيء؟

- لا .. الطعام سيعكر التصفية .. ماء فقط

(دجن) : بس جسمك ما راح يتحمل أكثر بدون أكل

- لا تتحدث في شيء لا تفقهه

(دجن) وهو يسكب محتوى الإناء فوق رأسي : صدق شين وقوي عين ..

تبسمت وأغمضت عينيّ لأدخل في غفوة أخرى ..

بدأت بوادر خروج السحر من بدني بعد اليوم السابع حينها طلبت من (دجن) إحضار بعض العنب الأخضر الحامض لي ووجهته بإطعامي ثلاث حبات فقط بين كل غفوة ويقظة وألا يتجاوز ذلك العدد حتى وإن طلبت منه ذلك. قبل بزوغ فجر اليوم التاسع استعدت معظم عافيتي وطلبت من (دجن) إخراجي لكنه لم يفعل وجلس بالقرب من رأسي متأملاً الأفق ..

- ما بك؟ .. لمَ لا تخرجني

(دجن) : لازم نتكلم أول

- وهل كلامي معك مرهون ببقائي تحت الأرض؟

(دجن) : ما عندك أسئلة لي؟

- لدي الكثير .. لكن ليس قبل أن أخرج

(دجن) : عطني واحد منها ..

- لِمَ اختفيت كل تلك السنوات؟ .. أم أنك لست من أظن

(دجن) : شتقصد؟

- ليس من الصعب أن يتشكل شيطان آخر بهيئة (دجن) ويحاكي تصرفاته .. لا يوجد دليل على أنك هو ولست مدسوساً عليّ لخداعي واستدراجي

(دجن) : خف علينا يا آخر حبة ..

- إذا كان كلامي ليس منطقيّاً فأقنعني بالعكس وقدم لي الدليل على أنك (دجن) الحقيقي ..

(دجن) بشيء من الحنق : لا أبد! .. كلامك منطقي مرة! .. فعلاً ممكن أكون «مندس» وما أكون صديقك اللي غدرت فيه وسامحت اللي قتلته بس لأنها سبلت لك عيونها وأنت زي الخروف الأعور نسيت كل شيء وسامحتها ولا كأن في خروف ثاني توه مذبوح ودمه ما برد!

ضحكت من كلام (دجن) وانفعاله وبدأت أسعل من شدة الضحك ..

(دجن) بسخط : وتضحك بعد؟!

- أضحك لأني تحققت ..

(دجن) : من إيش؟!

- من أنك (دجن) الحقيقي .. صديقي الأحمق

(دجن) : وكيف تحققت؟

أجبته باسماً : لأنه لا يوجد شيطان يحقد ولا ينسى مثلك ..

(دجن) باسماً : والله ما حد حقده حقد بعارين غيرك

لفت نظري أن (دجن) حلف بالله وهذا أمر لا تقوم به الشياطين ..

- لقد أسلمت بالفعل إذًا ..

(دجن) متهكماً : وحسن إسلامي .. بس مقصر بالصلاة شوي

- ما الذي حدث؟ .. وما قصة قتل (جُند) لك إذًا؟ .. لمَ اختفيت كل تلك الفترة؟ .. ولمَ ظهرت الآن بالذات ..؟ .. ولمَ لم تتجمد حينما نطقت اسمك؟ .. ولمَ ..

(دجن) مقاطعاً : بس بس بس .. تحقيق هو؟!

- بالطبع سأحقق معك كي أفهم

(دجن) : ما نقدر نتكلم الحين .. كل اللي أقدر أقوله لك أني صرت مثلك يا (خوف) .. حاولت أطلع من عالمهم لكنهم سحبوني بالقوة ورجعولي ..

- لم أفهم ..

نهض (دجن) من مكانه وقال : لو انكتب وشفتك مرة ثانية بفهمك .. لازم أروح الحين

- إلى أين؟!

(دجن) : مهمتي خلصت ..

- مهمة؟

(دجن) وهو يضمحل في الهواء : أتمنى تقدر هالمرة التضحية اللي قدمتها لك ..

- انتظر!

العُنق المربوط

تركني (دجن) وحيداً في تلك الصحراء ..

مدفونًا تحت رمالها الحمراء ..

مقيدًا مشتت التفكير ..

تساءلت مع نفسي .. هل ما زلت أتوهم ..؟

هل مت؟ .. هل أنا في غيبوبة في أحد المستشفيات ..؟

أم تحت التراب أحاسب ..

أفكار وهواجس تلاعبت بي لما يقارب الساعة ..

حتى تهشم جدار الصمت بعبارة وجهت لي ..

صوت مألوف قادم من خلفي ..

الرجل الأنيق ..

خرج من وراء التلة الصغيرة التي دفنت عندها وسار وهو يشد ربطة عنقه الحمراء حتى استقر أمامي وتقرفص على ركبتيه وحدق بي لثوانٍ مبتسماً ثم قال :

«في المرة الأخيرة التي التقينا فيها رفضت سماع عرضي لأنك كنت

في موضع قوة وهذا خطئي أنا .. أما الآن فالوضع مختلف .. مختلف تماماً ..»

- لم يتغير شيء .. عروضك كلها بلا استثناء كانت وما زالت مرفوضة ..

تحركت الرمال بيني وبينه وخرج منها عقرب أسود سار بأرجله النحيلة تجاه رأسي المستقر فوق سطح الأرض وتوقف عند وجهي محركاً ذيله مقرباً رأس إبرته السامة من وجهي مداعباً طرف أنفي برفق.

(الرجل الأنيق) : لم أعد بحاجتك فقد قدمت لي البديل المناسب مشكوراً

- عمن تتحدث؟

(الرجل الأنيق) : أحد تلاميذك .. قدمنا له العرض ذاته ووافق بكل سرور

- (ماجد)؟

(الرجل الأنيق) : (هاجر) .. الفتاة متحمسة أكثر منك وستكون مفيدة لنا .. فهي تواقة جدّاً لتصبح من خدمنا والدليل أنها لم تتردد لثانية حينما طلبنا منها سرقة كتبك وإطعامك سحراً مأكولاً ينهي حياتك .. بفضلك هي الآن في مرحلة تمكنها من استيعاب كل ما

نمليه عليها وحماسها وحده كافٍ لأن تصبح أكبر ساحرة في هذا العصر

- هنيئاً لكم بها

(الرجل الأنيق) : لكن ..

- لكن ماذا؟

(الرجل الأنيق) مشيراً للعقرب الأسود بالتراجع قليلاً للوراء : بقدر حماسة تلميذتك إلا أني ما زلت أريد المعلم

- لن أكون خادماً لك مهما حاولت

(الرجل الأنيق) باسماً : ما رأيك بمسمى شريك؟

- هذا أسوأ ..

(الرجل الأنيق) : لا بد أن أصل معك لمقايضة ما .. هل يعقل أنك لا تحتاج إلى شيء؟

- حتى وإن احتجت فلن أبحث عن حاجتي عندك

(الرجل الأنيق) : هل تتحدث معي الآن بعقلك أم قلبك؟

- أتحدث معك بما أتحدث به مع غيرك

(الرجل الأنيق) : وهو؟

- أقدم عقلي وأدخر قلبي .. فأي سلوك مدمر يأتي من هوىً والهوى منبعه القلب

(الرجل الأنيق) : وهذا الهوى .. يحثك على البحث عن ماذا؟

- بعض الأجوبة ..

(الرجل الأنيق) مبتهجاً : وأخيراً شيء يمكن أن أقدمه لك .. هات ما عندك أيها المدون

- أريد أن أعرف كل شيء يخص (دجن) .. وما علاقته بكم؟

جلس الرجل الأنيق متربعاً وقال : هل يهمك أمره؟

- يهمني أن أفهم ما يحدث

(الرجل الأنيق) : ماذا تريد أن تعرف؟

- هل حقّاً كان في مهمة؟ .. هل يعمل لمصلحتكم؟

(الرجل الأنيق) : نعم .. لكن تدخله لإنقاذك لم يكن ضمن مهامه وكان خيانة عظمى لنا

لا أنكر أني صدمت عندما سمعت ذلك الجواب لكني لم أظهر تأثري واستمررت بطرح الأسئلة ..

- ألم تقتله (جُند)؟

(الرجل الأنيق) : ابنة (شُند) لم تقتل (دجن) .. لقد قتلت متشكلاً

آخر قمنا بإرساله لها حينما كانت تنتظره خارج ((مكة)) لنوهمها بذلك وتتوقف عن ملاحقته ..

- وكيف وافق هذا المتشكل على التضحية بنفسه؟

(الرجل الأنيق) : لَمَ أنت مستغرب من أن الكثير من أتباعنا مستعدون أن يفتدوا بحياتهم قضيتنا مثلما يفعل الكثير من البشر فداءً ودفاعاً عن قضية يؤمنون بها

- وما الهدف من كل هذا؟

(الرجل الأنيق) : صاحبك كان الوحيد المقرب لك وقتها ولم نكن سنستغني عن ذلك الكرت الرابح بسهولة لذا قمنا بأسره والاحتفاظ به إلى حين

- حين ماذا؟

(الرجل الأنيق) : حين حاجتنا له ..

- ألم يكن الوصول إليه صعباً عليكم وهو وسط ((مكة))؟

(الرجل الأنيق) : لا شيء يصعب علينا .. من المفترض أنك تعرف ذلك الآن

- وما نوع الحاجة التي دفعتك لتحريره من أسره؟

(الرجل الأنيق) : ردعك عما كنت تنوي القيام به .. كان الورقة

خيرة التي استخدمناها لإقناعك بالعدول عن نقل علمك ويبدو
فشل هو الآخر

- ظننتكم لا تكترثون لو تحدثت أو نقلت علمي .. ما الذي تغير؟ .. لمَ أصبحتم تخشون ذلك؟

(الرجل الأنيق) : نحن لا نخشى شيئاً .. وبالذات بشريّاً ضعيفاً مثلك ..

- وكيف لم يتجمد (دجن) حينما كنت أنطق اسمه؟

(الرجل الأنيق) : توبته حررته من كل الطلاسم المقيدة له ..

- كنت أظنه أسيراً عندكم ومجبراً على التعاون معكم

(الرجل الأنيق) : في كل الأحوال تعاون ولم يرهقنا مثلك .. ونحن نكرم من يخدموننا

- وماذا سيحدث له الآن؟

(الرجل الأنيق) : بعد فشله وانكشاف حقيقته أمامك بعد ما ساعدك أصبح كرتًا محروقاً لنا .. مجازاً وقريباً حرفيّاً ..

- لولاه لما كنت أنا وأنت نتحدث الآن .. لقد قدم لكم خدمة

(الرجل الأنيق) : مسؤوليته كانت محصورة في ثنيك عن نقل العلم

وإقناعك بالوسوسة بالانضمام لنا وقد أخفق في المهمتين لذا لم يعد لنا به حاجة وسنتخلص منه

- وهل هذا ما ستفعله بي حينما تنتهي حاجتك مني؟

(الرجل الأنيق) : لا بالطبع فأنت مختلف

- حديثك معي مختلف لكن نواياك واحدة

(الرجل الأنيق) : هل تراني كعدو؟

صمت ولم أجب عليه ..

(الرجل الأنيق) باسماً : إذًا فنحن صديقان

- كوني لست عدوك فهذا لا يجعلني صديقك .. وإن كنت تريد معرفة الحقيقة فأنت ألد عدو لي

(الرجل الأنيق) : ماذا تريد؟ .. اصدقني القول .. ماذا تريد؟

- كل شيء ولا شيء ..

(الرجل الأنيق) : ما رأيك ببعض الشيء؟ .. هذا حل معقول ..

- أنصاف الحلول مشكلات مكتملة .. لن أكون خادماً لكم ولأهدافكم

(الرجل الأنيق) : فلنؤجل هذا الأمر الحتمي في الوقت الحالي ولنكتفِ بشيء أقل .. سأقدم لك عرضًا مغريًا لو أنصت ..

- أنا منصت ..

(الرجل الأنيق) : سنعيد لك كتبك وخواتمك المسروقة وسنحرم (هاجر) من التعامل مع الأسياد من الشياطين العلوية وستكون محصورة على السفلية منها فقط وبهذا لن ترتقي ولن تتجاوز كونها ساحرة متواضعة ومشعوذة وضيعة

- ولِمَ لا تحرم عليها التعامل مع السحر والشياطين على الإطلاق؟

(الرجل الأنيق) : صدق أو لا تصدق .. هذا خارج حدود قدراتنا .. نقدر على الحد ونعجز عن القطع .. فما رأيك؟

- وماذا أيضاً؟

(الرجل الأنيق) : طماع .. أحب ذلك .. سنترك لك صديقك (دجن) ونعفو عنه كذلك وسأضيف عليه عفواً خاصّاً بك يسقط عنك انتقام قبيلة الشيطان الذي قتلت

- هذا لا يكفي

(الرجل الأنيق) : بل أكثر من كافٍ .. أنت لم تسمع المقابل الذي

سأطلبه منك .. هذه المرة طلبي سيكون بسيطاً ويسيراً لكنك ستلتزم به وبعدها أنت حر فيما تفعل

- لقد فقدت حريتي منذ اليوم الأول الذي دخلت فيه عالمكم

(الرجل الأنيق) : ماذا ستخسر إذًا؟

- ماذا تريد؟

(الرجل الأنيق) : كتبك ..

- كتبي؟

(الرجل الأنيق) وهو يشير للعقرب الأسود بالتقدم والعودة لمكانه السابق أمام وجهي: «تلك الكتب التي تكتبها خلسة ..»

- مذكرات .. وليست كتباً ..

(الرجل الأنيق) : لا تتغابَ .. أنا أتحدث عن الصفحات الأخرى

- هذه مجرد خربشات ..

(الرجل الأنيق) : آه نعم خربشات .. هل تنوي نشرها؟

- لا ..

(الرجل الأنيق) والعقرب يقرب إبرته من طرف أنفي : لمَ تكتبها إذًا؟

- لنفسي ..

الرجل الأنيق) بنبرة ساخرة : كل ذلك العدد الهائل من الصفحات
ي كتبتها وتنوي كتابتها لنفسك فقط؟ .. من تظنني أيها المدون؟ ..
ذا الحوار يجب أن يكون خالياً من التدليس كي نصل لاتفاق

- أنا لست مدلساً مثلك

الرجل الأنيق) : لكنك مراوغ .. مراوغ جيد ..

- لمَ تسألني عنها؟

الرجل الأنيق) : لأن المقابل هو ألا تنشر أيّاً منها

لت متهكماً : هذا أمر مباشر .. لم أعتد ذلك منك .. هل في محتواها
ئيء يضايقك أو يسيء لك .. إنها مجرد قصص عابرة للتسلية .. ماذا
حدث لـ «أخبر من تشاء فلن يصدقوك ..»

(الرجل الأنيق) : أنا وأنت نعلم ما تكتبه بين السطور في تلك
القصص .. أنت تنتهج طريقة ملتوية لإيصال رسالتك وعلم
الأولين للعامة ونحن لسنا غافلين عن ذلك

- بعضُ ما عندكم .. سأنشر ما أشاء وأحتفظ بما أريد

(الرجل الأنيق) : ستنشر كل شيء؟

- هذا الأمر يعود لي

(الرجل الأنيق) : سأسمح لك بنشر عدد محدود من العلم ولو وافقت فسأعطيك ما وعدتك به .. هل يرضيك هذا العرض؟

- لا ..

(الرجل الأنيق) : سأزيد لك كمية العلم التي يمكنك مشاركتها .. ما رأيك؟

- لا ..

أمضيت مع الرجل الأنيق في أخذٍ وجذب حتى وصلنا لاتفاق .. ما

رقم محدد ..

عدد ما يمكنني نشره من السطور في مقابل ما عرضه عليّ ..

(الرجل الأنيق) : هل نحن متفقان؟

- العدد الذي وصلنا إليه مناسب

(الرجل الأنيق) والعقرب الأسود يداعب طرف أنفي برأس إبرته : ولو تجاوزته ..؟

- يحق لك أن تفعل بي ما تشاء

(الرجل الأنيق) ناهضاً متأملاً الأفق خلفي : الشمس ستشرق بعد قليل ..

- هذا ما يحدث كل يوم في الوقت نفسه .. ماذا تريد أن تقول؟

(الرجل الأنيق) منزلاً نظره ناحيتي : تذكر أنك قد قطعت عهدًا وستلتزم به شئت أم أبيت ..

- أعرف .. حان دورك الآن لتنفذ جانبك من الاتفاق

حرك الرجل الأنيق سبابته باسماً وقال : «اعتبر الموضوع أنجز أيها المدون ..»

لدغني العقرب الأسود على طرف أنفي وفقدت الوعي ..

الحَرامُ المَعِيب والعَيب الحَرام

حينما أفقت كان الصباح في أوله .. الأفق شاحب والسماء غائمة ..

الرجل الأنيق رحل .. وأنا ما زلت مدفونًا مكاني ..

لكن الأرض متشققة حول عنقي وأكتافي ..

تمكنت من إخراج إحدى أذرعي بعد عناء ..

لكني عجزت عن تحرير الأخرى ..

صوت خطوات تقترب من خلفي ..

أنتظر القادم بخليط من الرهبة والتوجس ..

يقف أمامي (دجن) .. يمد ذراعه لي ..

يشدني من عمق الأرض ..

أخرج بجسدي العاري ..

وكأني أولد من جديد ..

بدأت أمسح الرمال بكفي من على جسدي وأنا أقول : شكراً يا (دجن) .. أنا ممتن لك

(دجن) رافعاً كفه عند وجهه حاجباً نظره : اشكرني بأنك تلبس هدومك

- وأين هي؟

ن) وكفه لا تزال مرفوعةً أمام وجهه : وراء الجحور

طت ملابسي ولبستها وأنا أقول : أحتاج للاستحمام ..

جن) : وش صار معك ..؟

ا أدخل ذراعي في أحد الأكمام : لم يحدث شيء أعدني للمنزل

جن) : كيف ما صار شيء .. سامحوك؟

- اسألهم .. ألست خادمهم وهم أسيادك؟

دجن) : أنا سويت كذا عشان أحميك .. مثل كل مرة

- شكراً أعدني لمنزلي الآن

(دجن) : أنا ما أشتغل عندك

- صحيح .. أنت تعمل لمصلحة الرجل الأنيق

(دجن) : ما يهمني لا هو ولا غيره

- تتحدث عنه بطريقة جريئة .. ألا تخشى سخطه؟

(دجن) : شكله ما قال لك حقيقة الاتفاق اللي كان بيني وبينهم ولعب بمخك كالعادة

- كل ما أعرف هو أني حررتك من اتفاقك معهم وأنقذت حياتك

(دجن) بتهكم : ولأنك حررتني لازم أكون عبد عندك؟

- أنا لم أقل ذلك

خِلاَل الخَلْوة

وجدت نفسي في غرفتي .. مستلقياً على سريري ..

لم أرَ (دجن) .. لكنها لم تكن المرة الأخيرة التي سأراه فيها ..

هاتفي النقال فوق دولابي حيث تركته ..

نهضت وأخذته .. وجدته مطفأً لنفاد بطاريته ..

وضعته في الشاحن أنتظر عودته للحياة ..

أوفى الرجل الأنيق بعهده ..

وجدت الكتب الخمسة مكانها على الرف فوق فراشي ..

وكذلك جميع خواتمي ..

وخصلة شعر سوداء مستقرة فوقها ..

.. كانت لـ (هاجر) ..

تبسمت وأنا أفرك الشعيرات بين سبابتي وإبهامي ..

صوت طنين هاتفي الذي عاد للعمل ..

عشرات الاتصالات الفائتة والرسائل المستلمة ..

تجولت بينها حتى أضاءت الشاشة ..

(عواد) يتصل ..

وخلال أقل من ساعة كنت معه في «مجلس الدروس» ..

(عواد) : هل هذا كل ما حدث؟

- تقريباً .. من غيرك علم بغيابي؟

(عواد) : إخفاء الأمر على أهلك لم يكن صعباً فهم معتادون على غيابك المفاجئ لكن ..

- لكن ماذا؟

(عواد) : عندما لم أجدك في غرفتك والكتب مختفية معك بعد زيارة (هاجر) فكرت بالأسوأ واضطررت للتواصل مع (ماجد) وحكيت له كل شيء كي يساعدني في البحث عنك وهو من إكتشف السحر المأكول في الفطيرة.

- لا بأس لكن لا تتصل به مجدداً

(عواد) : لكنه قلق عليك ويجب أن أطمئنه

- لا تفعل .. اتركه يعتقد أني مت .. هل تفهم؟

(عواد) : لا لم أفهم .. لَم تريد أن تبقيه في توتر؟

- هذا شأني وليس شأنك ..

صمت (عواد) بوجه خالطه الحزن والعبوس ..

- لمَ لحيتك طويلة؟

(عواد) : ماذا؟

أشرت بسبابتي لذقنه وقلت : ذقنك .. لمَ هي هكذا؟

(عواد) ماسحاً فكه بكفه : لم أجد الوقت خلال غيابك لأقوم باي شيء .. كنت مشغولاً بالبحث عنك

- هذا ليس عذراً .. احلقها

(عواد) بنبرة متهكمة ومتذمرة : مرحباً بعودتك ..

تبسمت له وقلت : لن تصدقني لو قلت لك إني مشتاق للبيض الذي تحضره

ابتهج (عواد) وقال : لقد وجدت مطعماً جديداً يعدها بطريقة مميزة

- لمَ أنا لست مستغرباً ..؟

(عواد) : الصباح لا يزال في أوله .. ما رأيك؟

- سأكون بانتظارك ..

نهض (عواد) وخرج على عجالة ليحضر لنا وجبة صباحية من البيض ..

بقيت وحدي أدخن ..

أجمع رماد السجائر في منفضة زجاجية

حتى حصلت على ما يعادل قبضة يد ..

بدأت أرسم بسبابتي على الرماد ..

وضعت منفضة بعدها أرضاً بين أقدامي ..

تشكل منها رجل ضخم ببشرة زرقاء ..

جن أزرق .. أندر أنواع الجن ..

حدثني وقال : بمَ يأمر المستدعي ..؟

- أريدك أن تجد لي شخصاً ..

(الجني الأزرق) : هل تملك منه أثراً؟

مددت يدي في جيبي وأخرجت خصلة شعر (هاجر) وقلت : نعم ..

أخذ الجني الأزرق الخصلة وقال : «سأجدها قبل أن يرتد طرفك ..»

- أريد منك شيئاً آخر بعد أن تجدها

الجني حانياً رأسه : منصت ومطيع ..

- أريدك أن تراقبها .. تكون لصيقاً لها دون أن تشعر بك ..

(الجني الأزرق) : يسير ..

- وأن تبلغني في كل مرة يلجأ إليها أحدٌ لطلب العلاج أو العون

(الجني الأزرق) : ثم ماذا ..؟

- فقط هذا .. لا أريد منك شيئاً آخر

(الجني الأزرق) : أمرك مجاب ..

النِّهَايَةُ المَفْتوحة

التجاهل يختلف عن الجهل .. الجهل ببساطة عدم معرفتنا بحقيقة ما لكن التجاهل هو اختيار عدم البحث عن شيء نعي أنه حقيقة. لكن ذلك يهون أمام الغباء .. المكتسب منه والمتوارث .. فالحقيقة المؤلمة التي توصلت إليها بعد سنواتٍ من معاشرة الناس هي أن كل وباءٍ عابر ومنتهٍ إلا الغباء باقٍ ومستفحل. العقل هو طوق النجاة الوحيد في بحر الجهل المتلاطم .. وسيغرق ويهلك الكثير في أعماقه بسبب حماقتهم وهذه سنة الانتخاب.

عندما يستاء شخص من هجومي على الأغبياء أليس ذلك تأكيداً منه بأنه أحدهم ..؟

أعتقد أن أساس أي حماقة هو عدم الاستقلال .. بالرأي والتفكير خصوصاً .. مما يجبرنا على اللجوء للغير لسد ذلك الفراغ عوضاً عنا .. ليفكروا بدلاً منا ونتبنى نحن بدورنا أفكارهم المعلبة فقط لأننا تكاسلنا عن القيام بذلك بأنفسنا .. لذلك تكون صدماتنا بهم حينما ينقلبون على أفكارهم أقوى وأكثر حدة .. فمن يعلق إيمانه بأشخاص سوف يكون إيمانه مرهوناً بهم وبتصرفاتهم.

القطيع يسير خلف صوت المزمار الشجي حتى وإن كان العازف

أعمى فالشعارات والخطابات العاطفية مسكنات رخيصة ينتشي بها الأحمق وتجلب الغثيان للعاقل.

مراكز الكون أصبحت كثيرة مؤخراً لأن كل شخص يرى نفسه وآراءه قبلة للحق وبوصلة للباحثين عنه والنتيجة هي أن الجميع تاهوا وفقدنا أي توجه واتجاه يقودنا إليه. كل أرض نقف عليها يمكن أن تكون نقطة بداية نحو أي وجهة لذا فأنت مركز كونك وليس كوننا.

أنا مؤمن أن القناعات لم توجد لتثبت أو تناقش لأن هذا يتعارض مع مفهوم يقينك بها فهي باقية بغض النظر عن وجهة نظر الطرف الآخر بها حتى وإن بدلت أنت قناعتك الخاصة.

من المفارقات العجيبة لما يمكن أن تتقبله العقول المؤدلجة هي أن شهادة الشهود التي يعتد بها قانونيّاً كحقيقة لا جدال فيها ترفض علميّاً ولا تعتبر عنصراً حاسماً ينظر إليه بجدية لإثبات أو نفي نظرية .. فشهادتي مع مجموعة من الناس أن رجلاً ما سارق تدينه وتثبت عليه تلك الجريمة وعلى أساسها يصدر به حكم قضائي وعقوبة لكن شهادتي مع المجموعة نفسها بأننا رأينا شيئاً خارقاً للطبيعة تفسر على أنها هلوسة جماعية لا تستحق الأخذ بجدية. ومن هذا المثال البسيط يتضح لنا الفرق في آلية التصديق وكيف نستسقي الثوابت من مصادر مختلفة بالطريقة ذاتها لكن مع نتائج متباينة حسب أهوائنا.

عض يفضل شرب الحساء من كوب أو كأس وليس آنية مجوفة ..
ل غيّر ذلك من طعم الحساء؟ .. هل هم مخطئون فيما فعلوا؟ .. هل
ن يقدم لك الحساء بهذا الشكل يهينك بطريقة ما؟ .. بالطبع لا ..
كن هذا ليس بالأمر المألوف والمتعارف عليه. طرق الآفاق الجديدة
مر لا يمارسه إلا فئة قليلة من الناس .. صفوة منبوذة ونخبة مستنكرة.

وهذا يقودني لسؤال يستحق التفكر .. من حدد المألوف والمتعارف
عليه؟ .. ولِمَ نحن مجبرون أن نسير عليه ولا نجرب غيره؟

ربما لأننا أسرى .. مأسورون ومقيدون لمنظومة فكرية معدة مسبقاً
ومقدمة لنا تحت مسمى «التطور» .. نفضل شرب الحساء بملعقة
وطبق .. نتناول ثلاث وجبات باليوم .. نحمي أنفسنا من المطر ..
ننام على أسرة ووسائد بدل الأرض .. ولا نعرف السبب .. لكننا
مستمرون في ذلك وندافع عنه أيضاً وننتقد من ينتهج طريقة مختلفة
أو مغايرة .. مع أن الموضوع مجرد .. شرب حساء أو نوم على الأرض.

أنت حر في اختياراتك وفي قرارك بأن تكون أسيراً .. مثلما أنا أسير
لرغبتي في التحرر .. التفكير والتفكر لم يعودا رفاهية في هذا الزمن
بل واجب حتمي لكل من يريد النجاة. فالمجتمع يرى سابق عصره
بخطوة عبقريّاً، وسابقه بخطواتٍ مجنوناً.

التفكير بطريقة مختلفة ينقي العقل من الشوائب العالقة به والمعيقة
لحركة الأفكار بين جنباته ويجعله مهيأً لاستيعاب مفهوم «الغيبيات»

التي يظن الكثير أنها مجرد فرضيات لا يمكن إثباتها علميّاً. وهذا خطأ جملة وتفصيلاً لأنها من الأساس ليست فرضية .. بل نظرية.

قد تتساءل عن الفرق .. النظرية هي فرضية نجحت في تقديم تفسير منطقي لأمرٍ ما أما الفرضية فهي مجرد محاولة لتفسير الظاهرة لكنها لم تصل لدرجة عالية من الإقناع. والنظرية تتحول لحقيقة علمية بعد سلسلة من التجارب التي تحسمها.

إذاً كيف نصنف فكرة وجود العالم الآخر بجنه وشياطينه؟

بالنسبة للمؤمن فهي حقيقة لا جدال فيها بالرغم من غياب عنصر التجارب الحاسمة وتعتبر نظرية لكثير من المهتمين بعلم الما ورائيات والخوارق ومجرد فرضية لمن هم متقبلون لطرح الأفكار الجديدة وتعد خرافة لا أساس لها من الصحة لأصحاب المنطق والعلم الفيزيائي المطلق .. لكن .. أيٌّ منهم على حق؟

في الحقيقة لا يهم .. لأن المهم هو الحقيقة ..

وليس ما نظنه عنها ..

والحق لا يحتاج من يدافع عنه والحقيقة لا تنتظر نوراً يُسلط عليها

فمن يريد إيجاد أحدهما سيجده بسهولة ..

من أسباب تأخرنا هو قناعة البعض بأنهم أوصياء على غيرهم

كلفون بتغييرهم دون أنفسهم .. هذه الفئة الفارغة والمتفرغة من
تمع تعاني من مشكلة مزمنة ومستعصية .. وهي أنهم لا يملكون
كلات حقيقية في حياتهم لذا تجدهم يتدخلون في شؤون غيرهم
ل فظاظة من باب سد الفراغ في حياتهم الجوفاء.

ى سبيل المثال الكثير يتحدثون عن وجوب «الاحتشام» ولا أرى إلا
ا ندر منهم يتحدث عن أهمية «غض البصر» .. لماذا؟ .. لأن الأولى
وجهة للغير والأخرى موجهة لهم .. لذلك تجدنا اليوم نعيش في زمن
لوقاحة المغلفة بمصطلح «الصراحة» .. زمن أصبحت فيه الأخلاق
لأسف مصدراً للدهشة .. وهذه نتيجة طبيعية حينما يزدهر التافهون
ويذبل حضور العقلاء .. الأخلاق ليست إنجازًا نستعرضه بل منهجٌ
نمارسه .. فالهمجية ليست رجولة وبذاءة اللسان نقص في المروءة ..
والتباكي أمام الناس على الأوجاع بحثاً عن التعاطف ضعفٌ مقيت.

أتفهم الحزن وأسبابه لكنني لم أفهم يوماً الحاجة والغرض من عرضه
واستعراضه خصوصاً أمام الغرباء .. فمشاهدة مُتصنع الحزن أمر
مرهق .. نعم متصنع .. فالحزين الحقيقي لا يملك وقتاً أو مزاجاً
لإخبار من حوله عن حزنه .. الحزن الحقيقي شعور خاص ..
مكبوت .. يأكلنا من الداخل ولا يظهر للخارج إلا بعد ما يلتهمنا
بالكامل ولا يُبقي منا سوى الخواء.

لو كان لي وصية أخيرة أقدمها فهي بلا شك ألا تحرم نفسك من متع الحياة بترك اختياراتك مرهونة لآراء الآخرين. لذلك لا تبرر لأحد شيئًا قمت به عن قناعة وخذ حذرك من الحمقى الذين يحاولون تسطيح رأيك أو ذوقك والاستخفاف به فهم لا يملكون في حياتهم شيئاً يستحق الفخر لذا يلجؤون لتحقير خيارات غيرهم. هذه حقيقة ثقيلة وصعبة الفهم على ضيقي الأفق وهي أن هناك من هم ليسوا مثلهم ولن يكونوا كذلك أبداً، ويفكرون بطريقة مختلفة عنهم ولهم حياة خاصة هم منسجمون ومتصالحون معها.

همسات هواجسنا هي وقود أقلامنا ..

استهلكت جزءاً ليس باليسير من السطور ..

التي مُنحتَ لي من قِبل الرجل الأنيق ..

وبعد إتمام ما تبقى منها ..

سأُقيد عن نشر المزيد وللأبد ..

كان هذا هو الاتفاق ..

وسألتزم به ..

عندما تسمع أحدًا يقول لك بأنك «سابق لعصرك» فلا تفرح كثيراً ..

فسابق عصره يعاني أكثر من المتأخر عنه ..

أحياناً مشوار الألف ميل قد يبدأ بعثرة ..

وأنا تعثرت كثيراً خلال مسيرة حياتي ..

لكن عزيمتي لن تنطفئ وقلبي لن يُرهق لأني أكتب بيساري بضميرٍ مطمئن لأن ذنوبي وإن كثرت كانت وما زالت .. باختياري ..

خوف ..

مشكلتنا لم تكن يوما الالتزام أو التفريط..
مشكلتنا كانت ومازالت "التطرف" في أحد الاتجاهين..
البقاء في الوسط مفهوم لم نتقن التعامل معه حتى الآن.
تطرفنا في الكرم وحولناه لتبذير وإسراف..
تطرفنا في النصح وجعلناه ترهيباً وتخويفاً..
تطرفنا في الحب فأصبح تملكاً واستحواذاً..

وتطرفنا في الخوف..
وسلمناه زمام حياتنا..
فأصبحنا عبيداً له..







